قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر لويس الرابع عشر

تاريخ الحضارة الأوروبية
في عصر
بسكال وموليير وكرومول وملتن
وبطرس الأكبر ونيوتن وسبينوزا
١٦٤٨ - ١٧١٥

ترجمة
فؤاد أندراوس

مراجعة
علي أدهم

الجزء الأول من المجلد الثامن

دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع
DAR AL JIL - EDITEUR DISTRIBUTEUR
بيروت

جامعة الدول العربية
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
تونس

دار الجيل : ص.ب: ٨٧٣٧ ـ ت: ٢٦٦١٥٨ ـ ٢٦٠٤٦٥ ـ تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دارجيلاب ـ بيروت ـ لبنان

إلى القارىء العزيز

هذا المجلد هو الجزء الثامن فى تاريخ نسيت بدايته ، ولن ندرك نهايته أبدا . موضوعه الحضارة ، وتعريفنا لها أنها ذلك النظام الاجتماعى الذى يدعم الإبداع الثقافى ، فهو إذن ينظم أبواب الحكم ، والاقتصاد (أى الزراعة والصناعة والتجارة والمالية) ، والأخلاق، وآداب السلوك، والدين، والفن ، والأدب ، والموسيقى، والعلم ، والفلسفة . وهدفه التاريخ المتكامل - أى تغطية جميع نواحى النشاط لشعب ما فى منظور واحد ورواية موحدة . وقد حققنا هذا الهدف ولكن فى قصور شديد . ومسرحه أوربا ، وزمانه يمتد من معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) إلى وفاة لويس الرابع عشر ، الذى غلب حكمه (١٦٤٣ — ١٧١٥) على العصر وسماه باسمه .

أما الموضوع الغالب على هذا الجزء فهو « المناظرة الكبرى » بين الإيمان والعقل . لقد كان الإيمان متربعا على العرش إبان هذه الحقبة ، ولكن العقل كان يجد أصواتا جديدة تفصح عنه فى هوبز ، ولوك ، ونيوتن ، وبيل ، وفونتنيل ، وسبينوزا ، و « كان هذا العصر الكلاسيكى من أوله إلى آخره ما أطلقه على ذاته فى ختامه ، أى عصر العقل » (*) وقد خصصنا ثلث الكتاب تقريباً لتلك المغامرة الفكرية التى انطلقت من الخرافة والظلامية والتعصب إلى الدرس والعلم والفلسفة . وقد بذل المؤلفان محاولة لرواية هذا النقاش فى إنصاف رغم انحيازهما الواضح إلى أحد الجانبين، ومن ثم كان تناولهما المستفيض ، المتعاطف ، لنفر من المنافحين الأكفاء عن الإيمان ، أمثال بسكال ، وبوسويه ، وفنيلون ، وباركلى ، ومالبرانش ، وليبنتز . وسوف يعيش أبناؤنا فصلا جديدا فى صراع المثل هذا ، وهو صراع لابد لكل انتصار فيه أن يكسب من جديد المرة بعد المرة .

وأملنا أن تقدم للقراء الجزء التاسع الذى يتناول « عصر فولتير »

(*) البيرجيرار : The Life and Death of an Ideal

فى ١٩٦٥ ، والجزء العاشر « روسو والثورة » فى ١٩٦٨ ، ولقد اعترضتنا عقبات ، بعضها نجم عن ضخامة المادة التى أتاحها لنا القرن الثامن عشر ، وكلها يتطلب الدرس والحيز الكافى . وإنا خلال ذلك رنا كسنان إلى « القوى العظمى » فى ألا تدمر موضوعنا هذا قبل أن تدمرنا .

مايو ١٩٦٣ — ول واريل ديورانت

إقرار بالفضل

لقد لقى ربه أحد الناشرين المشاركين اللذين بدأنا معهما « مشروع الكلام » هذا فى ١٩٢٦ ، ولن ننسى أبدا روحه النيرة المتألقة . وما زال الثانى صديقا لنا ، وهو لايفتأ متحمسا ، سمحا ، غفوراً . إنه ناشر لم يطغ عمله على شاعريته .

وعسى ألا يفسر انتهازنا هذه الفرصة — التى قد تكون الأخيرة — للإعراب عن عرفاننا بجميل النقاد الكثيرين الذين أتونا بقراء لهذه المجلدات — نقول عسى ألا يفسر هذا بأنه « إحساس قوى بأفضال قادمة » ، فما كنا بغير معونتهم إلا صوتين صارخين فى البرية .

ونحن مدينان دينا كبيرا لابنتنا إيثل لما بذلت من جهد مخلص فى نسخ مسودتنا الثانية ، التى لم تكن واضحة تمام الوضوح ، على الآلة الكاتبة نسخا قارب الكمال ، ولما أدخلت عليها من تنقيحات صائبة ؛ ولاخواتنا وأخينا — ساره ، وفلورا ، ومارى ، وهارى كاوفمان — لما قاموا به من تصنيف صابر لنحو أربعين ألف جزازة تحت اثنى عشر ألف عنوان ، وللسيدة آن روبرتس بمكتبة لوس أنجيليس العامه ، والآنسة داجنى ولمز بمكتبة هوليوود الإقليمية ، لما قدمتا من معونة قيمة فى توفير الكتب النادرة لنا من جميع أرجاء أمريكا ، فما كان لهذه المجلدات أن تكتب لولا مكتباتنا السخيه العظيمة ، وللسيدة فيرا شنيدر ، عضو هيئة التحرير بمؤسسة سيمون وشوستر ، لما لقى هذا المجلد وسابقه على يدها من تحقيق علمى دقيق لم يظفر بمثله فى أغلب الظن إلا القليل من المخطوطات .

الكتاب الأول
فرنسا فى أوج عظمتها
١٦٤٣ — ١٧١٥

الفصل الأول
الشمس تشرق
١٦٤٣ — ٨٤

١ - مازاران والفروند: ١٦٤٣ - ٦١

ترى ما الذى أعان فرنسا على أن تفرض على أوربا الغربية منذ ١٦٤٣ ، سلطانا فيه ما يشبه قوة التنويم ، اتصل فى ميدان السياسة حتى ١٧٦٣ ، وفى ميادين اللغة والأدب والفن حتى ١٨١٥ ؟

إن العالم لم يشهد قط منذ أيام أوغسطس ملكية إزدانت بمثل هذا العدد من أفذاذ الكتاب والمصورين والمثالين والمعماريين ، أو حظيت بمثل الإعجاب والمحاكاة الواسعين ، سواء فى آداب المجتمع أو الأزياء أو الأفكار أو الفنون ، اللذين حظيت بهما حكومة لويس الرابع عشر من ١٦٤٣ إلى ١٧١٥ لقد كان الأجانب يؤمون باريس وكأنهم يؤمون مدرسة تهذيبية تصقل كل ألوان الجمال فى الجسم والعقل . وكان الألوف من الايطاليين ، والألمان ، وحتى الإنجليز ، يؤثرون باريس على أوطانهم .

أن من أسباب هيمنة فرنسا آنئذ ضخامة قواها البشرية . فقد بلغ سكانها عشرين مليونا من الأنفس فى ١٦٦٠ ، فى حين لم يزد سكان كل من أسبانيا وانجلترا على خمسة ملايين ، وإيطاليا على ستة، والجمهورية الهولندية على مليونين . أما الامبراطورية الرومانية المقدسة ، التى شملت ألمانيا والنمسا ، وبوهيميا ، والمجر ، فقد سكنها واحد وعشرون مليونا تقريبا ، ولكنها لم تكن إمبراطورية إلا بالاسم وقد أفقرتها قبيل هذه الحقبة حرب الثلاثين ، وانقسمت إلى نيف وأربعمائة دويلة ، شديدة الحرص على «سيادتها» ،

جلها صغير مستضعف ، ولكل منها حاكمها ، وجيشها ، وعملتها ، وقوانينها، ولا يزيد سكان الواحدة منها على المليونين — وعلى نقيض هذا كانت فرنسا بعد ١٦٦٠ أمة متماسكة جغرافيا، متحدة تحت حكومة مركزية قوية واحدة، وهكذا تمخضت جهود ريشليو الألمعية عن مولد « القرن العظيم » .

ولقد فاز البوربون حيث أخفق الفالوا فى ذلك الصراع الطويل الذى نشب بين الهابسبورج والملوك الفرنسيين . وأخذت أجزاء من الإمبراطورية، عقداً بعد عقد ، تقع فى قبضة فرنسا ، ثم نزلت أسبانيا الهابسبورجية عن كبريائها وزعامتها فى روكروا (١٦٤٣) وصلح البرانس (١٦٥٩) . وبعدها عقد لواء القوة للدولة الفرنسية فى العالم المسيحى ، دولة مطمئنة إلى مواردها الطبيعية ، ومهارات شعبها وولائه ، وخطط قادتها العسكريين ، ومصير ملكها . كذلك كان من الأهمية بمكان ما كتب لهذا الفتى من حكم سيتصل قرابة ثلاثة أرباع القرن ، مضيفاً بذلك وحدة الحكومة والسياسة إلى وحدة العرق والأرض ، وهكذا سنرى فرنسا طوال خمسين عاما ترعى وتستقدم عباقرة العلم والأدب ، تشيد القصور الشامخة ، وتجيش الجيوش الضخمة ، وترهب نصف الدنيا وتلهمها . لقد قدر لهذه الصورة أن تكون صورة عظمة لم تكد تضارعها من قبل عظمة ، ترسم بكل ضروب الفن وألوانه ، وبدم الرجال أيضاً .

لم تكن فرنسا قد توحدت بعد يوم ارتقى لويس الرابع عشر العرش وهو لا يجاوز الخامسة (١٦٤٣) ، وكان على كردينال ثان أن يتم العمل الذى بدأه سلفه ريشليو . ذلك هو جول مازارن الذى كان يسمى فى إيطاليا جوليو مازارينى ، وقد ولد فى « الأبروتزى » لأبوين صقليين فقيرين ، وتولى اليسوعيون تعليمه فى روما ، وخدم البابوات موظفا دبلوماسيا ، ثم لفت أنظار أوربا فجأة يوم أنهى الحرب المانتوية (١٦٣٠) بالمفاوضة [illegible]لة حرجة . فلما أوفده البابا مبعوثا له فى باريس ، ربط مصيره بعبقرية

ريشليو المسيطرة ، فكافأه هذا على إخلاصه بقبعة الكردينالية . وحين حضرت المنية ريشليو ، « أكد للملك أنه لا يعرف غير مازاران رجلا كفؤا لملء مكانه » [١]. واستمع لويس الثالث عشر إلى النصيحة .

فلما مات هذا الملك المطيع (١٦٤٣) ظل مازاران متواريا بينما اضطلعت الملكة الأم ، آن النمساوية ، بالوصاية على ولدها ، واحتال لوى دكونديه وجاستون دورليان ، الأميران الملكيان ، ليصبحا القوة الفعالة وراء العرش ولم يغتفرا للملكة قط أنها تخطتهما واستوزرت ذلك الإيطالى الوسيم ، الذى بلغ الآن الحادية والأربعين . وفى غداة تقلده الوزارة هشت باريس لنبأ انتصار روكروا الحاسم ، وبدأ حكم مازاران بهذا الاستهلال الميمون ، ودعمته الانتصارات الكثيرة سواء فى الدبلوماسية والحرب . وقد تبين ذكاؤه فى حسن تخيره للسياسات ، والقواد العسكريين ، والمفاوضين . وبفضل إرشاده وقيادته وطد صلح وستفاليا (١٦٤٨) تفوق فرنسا الذى أكسبته إياها الحرب .

على أن مازاران لم يوهب وحدة الإرادة وقوتها اللتين أوتيهما ريشليو ، ومن ثم فقد اعتمد على صبره ودهائه وسحره . وقام أصله الأجنبى عقبة فى طريقه . ومع أنه أكد لفرنسا أن قلبه فرنسى وإن كان لسانه إيطاليا ، إلا أن تأكيداته لم تحظ قط بالتصديق التام ، فلقد كان رأسه إيطاليا ، وقلبه ملكا له . ولا علم لنا كم من هذا القلب اختص به الملكة ، إنه خدمها وخدم أطماعه بغيرة ، واكتسب ودها ، وربما حبها . وكان على يقين من أن سلامته وسلامتها فى مواصلة سياسة بناء قوة الملكية تدريجيا ضد أشراف الاقطاع . وفى سبيل الأثراء تحسبا للمستقبل إن سقط ، جمع المال بحرص الرجل الذى يذكر الفقر أو يخشاه ، فحكمت عليه فرنسا ، التى بدأت تعجب بفضيلة الاعتدال ، بأنه محدث نعمة ، وساءتها لكنته الإيطالية ، وأقرباؤه الذين كلفوا الدولة غاليا : لاسيما بنات أخيه ، اللاتى تطلب حسنهن جهازا مترفا من الخدم أو الحشم . وقد احتقره الكردينال رتز ، مع أن رتز هذا لم

يسكن ركناً ركيناً للفضيلة ، فزعم أنه « إنسان قذر ... ومحتال أصيل ... وشرير لئيم(٢) ». على أن رتز – بعد أن هزمه مازاران – لم يكن فى وضع يعينه على إنصاف غريمه. وإذا كان الوزير الماكر قد جمع المال دون اكتراث للكرامة ، فإنه أنفقه بذوق رفيع ، فملأ حجراته بالكتب والتحف التى أوصى بها بعد ذلك لفرنسا وكان ذا أسلوب سمح مهذب يلذ السيدات. ويحير الرجال . وقد وصفته امرأة منصفة تدعى مدام دموتفيل ، بأنه : « يفيض رقة ، بعيد كل البعد عن صرامة » ريشليو(٣). وكان سريع العفو عن معارضيه ، سريع النسيان لفضل ذوى الفضل عليه. وأجمع الكل على أنه لم يدخر جهداً فى حكم فرنسا ، ولكن حتى هذا التفانى كان يسىء إلى بعض الناس ، لأنه كان أحيانا يترك كبار زواره ينتظرون على مضض فى حجرات انتظاره . وكان كل إنسان فى رأيه قابلا للرشوة ، وكان عديم الإحساس بالنزاهة . أما أخلاقه الشخصية فلم يكن بها بأس إذا ضربنا صفحا عن الشائعات التى أرجفت بأنه جعل من مليكته خليلة له. وقد صدم الكثيرين فى البلاط بدعاباته الشكاكة عن الدين(٤)، لأن مثل هذه السخرية لم تكن قد فشت بعد فى المجتمع الفرنسى ، ومن ثم عزوا تسامحه الدينى إلى افتقاره للإيمان(٥). وكان من أول أعماله توكيد مرسوم نانت ، فسمح للهيجونوت بأن يعقدوا مجامعهم فى سلام . ولم يكابد أى فرنسى الاضطهاد الدينى من الحكومة المركزية فى عهد وزارته .

ومن عجب أنه احتفظ بسلطته كل هذا الزمن برغم كراهية الناس له لقد كرهه الفلاحون لما أثقل به كواهلهم من ضرائب يستعين بها على خوض غمار الحرب، وكرهه التجار لأن المكوس التى فرضها أضرت بالتجارة، وكرهه الأشراف لأنه اختلف معهم حول مزايا الاقطاع . وكرهته « البرلمانات » لأنه وضع نفسه والملك فوق القانون . وزادت الملكة من كره الناس له بحظرها توجيه النقد لحكمه . وقد أيدته لأنها ألفت نفسها فى وضع تتحداها فيه جماعتان رأتا فى طفولة الملك ، وفى ضعف المرأة الموهوم ، منفذاً إلى

السلطة : الأشراف الذين علوا أنفسهم باسترجاع امتيازاتهم الإقطاعية السابقة على حساب الملكية و « البرلمانات » التى تطلعت لإحالة الحكومة إلى أوليجاركيه من المحامين . إزاء هاتين القوتين ـ « أرستقراطية السيف » العريقة ، و « أرستقراطية الرداء » الأحدث عهدا ـ التمست الملكة درعا لها فى عناد مازاران المقترن بالمرونة و لدهاء . وقد بذل أعداؤه محاولتين عنيفتين لخلعه والسيطرة عليها ، والمحاولتان تؤلفان حرب الفروند .

بدأ برلمان باريس حرب الفروند الأولى (١٦٤٨ — ٤٩) محاولا أن يكرر فى فرنسا تلك الحركة التى كانت لتوها قد رفعت البرلمان الإنجليزى فوق الملك مصدراً للقانون وحكما فيه . وكان برلمان باريس ، بعد الملك ، المحكمة العليا لفرنسا ، وقد قضت التقاليد ألا يقبل الشعب قانونا أو ضريبة إلا إذا سجل هؤلاء الموظفون القضائيون (وكلهم تقريبا محامون) القانون أو الضريبة . وكان ريشليو قد اختزل هذه السلطات أو تجاهلها ، فصمم البرلمان الآن على تأكيدها . وأحس أن قد آن الأوان لجعل الملكية الفرنسية ملكية دستورية ، خاضعة للإرادة القومية يعبر عنها مجلس نيابى . ولكن برلمانات فرنسا الاثنى عشر لم تكن مجالس تشريعية انتخبتها الأمة كما كانت الحال فى برلمان انجلترة ، بل هيئات قضائية وإدارية ورث أعضاؤها مقاعدهم أو وظائفهم القضائيه عن آبائهم ، أو عينهم الملك فيها . ولو أن حرب الفروند الأولى كتب لها الفوز لاستحالت فرنسا إلى أرستقراطية من المحامين . وكان فى الأمكان تطوير مجلس طبقات الأمة ، المؤلف من مندوبين عن الطبقات الثلاث ـ النبلاء ورجال الدين وباقى الشعب ـ إلى مجلس نيابى يكبح جماح الملكية ، ولكن مجلس الطبقات لم يكن يملك دعوته للانعقاد إلا الملك ، ولم يدعه أى ملك منذ ١٦١٤ ، ولن يدعوه حتى ١٧٨٩ ، ومن هنا اندلاع الثورة الفرنسية .

على أن برلمان باريس تحول إلى هيئة نيابية بصورة غير مباشرة ، مؤقتا ، يوم اجترأ أعضاؤه على الكلام نيابة عن الأمة . فنرى أومير تالون ، فى

أوائل ١٦٤٨ ، يندد بالضرائب التى أفقرت الشعب علـى عهد ريشليو ومازاران إذ يقول :

« لقد ألحق الخراب بفرنسا طوال عشرة أعوام . فاضطر الفلاحون أن يناموا على القش بعد أن بيعت أمتعتهم وفاء للضرائب . وتمكينا لنفر من الناس من أن ينعموا فى باريس بحياة البذخ أكرهت جماهير لا حصر لها أن تعيش على الخبز القفار .. فافقدها كل شىء إلا نفوسها — وهذه لم تترك لها إلا لان أحدا لم يجد سبيلا لعرضها للبيع(٦) .

وفى ١٢ يوليو، انعقد البرلمان فى قصر العدالة مع غيره من محاكم باريس ووجهوا إلى الملك وأمه مطالب عدة لا بد أنها بدت لهما ثورية . فقد طالبوا بخفض ربع الضرائب الشخصية كلها ، وبألا تفرض ضرائب جديدة دون موافقة البرلمان بالتصويت الحر ، وبطرد النظار الملكيين intendants الذين حكموا الأقاليم دون اكتراث للحكام والقضاة المحليين ، وبألا يحبس شخص أكثر من أربع وعشرين ساعة دون أن يمثل أمام القضاة المختصين . ولو أن هذه المطالب اجيبت لأصبحت حكومة فرنسا ملكية دستورية ، ولسارت فرنسا جنبا إلى جنب مع انجلترة فى تطورها السياسى .

بيد أن الملكة الأم ربطتها بالماضى جذور أقوى من الحصر بالمستقبل ، إذ لم يكن لها عهد قط بأى شكل من أشكال الحكم سوى الملكية المطلقة ، وقد أحست أن التخلى عن السلطة الملكية على هذا النحو المقترح الآن مفض لا محالة إلى صدوع لا رأب لها فى صرح الحكومة الوطيد ، وإلى تقويض تلك الركيزة السيكولوجية التى يستمدها من التقاليد والعرف ، والنزول بها إن عاجلا أو آجلا إلى فوضى الجماهير المتسيدة . ثم يالها من سبة أن تسلم ولدها سلطة دون تلك التى تمتع بها أبوه (أو ريشيليو) ! ذلك تقاعس عن واجبها سوف يوقفها موقف الإدانة أمام محكمة التاريخ . ووافقها مازاران لما رأى من قضاء مبرم عليه فى هذه المطالب الوقحة من هؤلاء القانونيين المتنطعين .. ومن ثم أمر فى ٢٦ أوغسطس بالقبض على بيير بروسيل وغيره

من زعماء البرلمان . بيد أن بروسيل العجوز كان قد اكتسب محبة الناس بهذا الشعار الذي أذاعه : « لا ضرائب » فاحتشد جمهور من الغوغاء أمام الباليه — رويال وتعالى صياحهم بطلب الإفراج عنه . وقد أطلق عليهم اسم الرماة Frondeurs لما كان يحمل الكثيرون منهم من مقاليع أو مراجيم ، كما أطلق اسم « الفروند » على هذا التمرد . على أن جان فرانسوا بول دجوندي — الملقب درتز فيما بعد — مساعد رئيس أساقفة باريس وخليفته المنتظر ، نصح الملكة بالإفراج عن بروسيل . فلما أبت انسحب غاضبا ، وعاون على استعداء الشعب على الحكومة ، وكان خلال ذلك يستخدم نفوذه خفية في محاولة الظفر بقبعة الكردينالية ، ويعاشر ثلاث خليلات .

وفي ٢٧ أغسطس اتخذ أعضاء البرلمان وعددهم ١٦٠ طريقهم إلى القصر الملكي مخترقين الحشود والمتاريس ، تشد أزرهم هتافات تصيح « يحيى الملك ! إلى الموت يا مازاران ! » ورأى الوزير الحذر أن اللحظة تتطلب الحكمة لا الشجاعة ، فنصح للملكة بأن تأمر بالإفراج عن بروسيل ، فوافقت ، ثم إذ أحفظها هذا النزول على رغبة الجماهير اعتكفت هي والملك الصبي في ضاحية روبل وأجاب مازاران البرلمان إلى مطالبه مؤقتا ، ولكنه طاوله في تنفيذها . وظلت المتاريس في الشوارع . فلما غامرت الملكة بالعودة إلى باريس صاحت الجماهير بها صيحات الازدراء ، وسمعت بأذنيها تندرها بعلاقتها بمازاران . ثم عاودت الهروب من المدينة في ٦ يناير ١٦٤٩ ، مصطحبة في هذه المرة الأسرة المالكة والبلاط إلى سان جرمان ، حيث توسد الحرير القش ، ورهنت الملكة جواهرها لتشتري الطعام . أما الملك الصغير فلم يغتفر قط لهذا الحشد فعلته ، ولم يحب عاصمة ملكه قط .

وفي ٨ يناير أصدر البرلمان في أوج تمرده مرسوما طرد به مازاران من حماية القانون واستعدى عليه كل الفرنسيين الصالحين ليطاردوه ويقبضوا عليه باعتباره مجرما . وقضى مرسوم آخر بالاستيلاء على كل الأموال

الملكية واستعمالها فى أغراض الدفاع العام . ورأى كثيرون من النبلاء فى هذا التمرد فرصة لاستمالة البرلمان إلى قضيتهم — قضية استردادهم امتيازات الاقطاع ، ولعلهم أيضاً خشوا أن يفلت زمام الحركة إذا لم يتزعمها ذوو الألقاب الرفيعة . وانضم إليها كبار الاقطاعيين أمثال أدواق لونجفيل ، وبوفور وبويون ، وحتى أمير كونتى البوربونى الدم ، وأمدوها بالجند والمال وحرارة العاطفة. فأقبلت دوقة بويون ودوقة لونجفيل — الرائعة الحسن برغم إصابتها بالجدرى — مع أطفالهما للعيش فى الأوتيل دفيل رهائن مختارة لضمان ولاء زوجيهما للبرلمان والشعب . وبينما كانت باريس تنقلب إلى معسكر مسلح ، كانت حاملات الألقاب يرقصن فى قاعة المدينة ، وواصلت دوقة لونجفيل غرامها بأمير مارسياك ، الذى لم يكن قد أصبح بعد الدوق دلاروشفوكو ، ولا اعتنق بعد فلسفته الكلبية . وفى ٢٨ يناير رفعت الدوقة من معنوية المتمردين إذ ولدت ابنا للمارسياك (٧) ، وارتبط كثير من الفرونديين بكرائم النبيلات فرسانا تابعين لهن ، فكن يشترين دماءهم بابتسامه متلطفة من ثغورهن .

ثم حالف الحظ الملكة فأنقذ الموقف عداء بين أمير كونتى وأخيه الأكبر لويس الثانى البوربونى ، أمير كونديه — وهو « كونديه العظيم » ذاته الذى قاد الجيوش الفرنسية من قبل إلى النصر فى روكروا ولنز . وإذ شمخ بأنفه القوى على تمرد المحامين والغوغاء ، فإنه عرض خدماته على الملكة والملك . فوكلت إليه فى ابتهاج قيادة جيش ضد باريس المتمردة — أى ضد أخيه ، وضد أخته دوقة لونجفيل — والعودة بالأسرة المالكة فى أمان إلى الباليه — رويال . وجمع كونديه الجند ، وحاصر باريس ، واستولى على شارنتون ، المخفر الأمامى الحصين . أما النبلاء المتمردون فقد طلبوا المعونة من أسبانيا والإمبراطورية . وكان الطلب غلطة ، ذلك أن عاطفه الوطنية كانت عند البرلمان والشعب أقوى من الإحساس الطبقى . وأبى معظم أعضاء البرلمان أن يلغوا أعمال ريشليو وانتصاراته باعادة تفوق الهابسبورج على فرنسا ،

وبدأوا يتبينون أنهم إنما يستعملون بيادق في محاولة لاسترجاع نظام إقطاعي من شأنه أن يقسم فرنسا ثانية إلى أقاليم مستقلة فرادى ، مستضعفة جماعة . وفي نوبة تواضع مفاجئة أرسلوا وفداً إلى الملكة المقتربة ، وعرضوا الخضوع لها ، مؤكدين أنهم كانوا على الدوام يكنون لها الحب . أما الملكة فقد منحت جميع المتمردين عفواً عاماً ، شريطة أن يضعوا السلاح . وسرح البرلمان جنوده ، وأبلغ الشعب أن طاعة الملك هي واجب الساعة . وأزيلت المتاريس . وعادت آن ، ولويس ، ومازاران إلى قصبة الملك (٢٨ أوغسطس ١٦٤٩)، والتأم شمل البلاط من جديد ، وانضم إليه النبلاء المتمردون كأن شيئاً لم يقع ، اللهم إلا سحابة قد انقشعت . واغتفر كل شيء ، ولم ينس شيء . ووضعت حرب الفروند الأولى أوزارها .

ولكن حرباً ثانية مالبثت أن نشبت . ذلك أن كونديه أحس أن خدماته تخول له الترؤس على مازاران . فتشاجر الاثنان ، واتصل كونديه بالنبلاء المتذمرين يجس نبضهم ، أما مازاران ففي أجرأ لحظات حياته أمر بحبس كونديه وكونتي ولونجفيل في فانسين (١٨ يناير ١٦٥٠) . وهرولت مدام لونجفيل إلى نورمنديا ، وأثارت حركة تمرد فيها ، ثم مضت منها إلى الأراضي المنخفضة الأسبانية ، وفتنت تورين حتى ارتضى خيانة العرش . فوافق القائد العظيم على أن يقود جيشاً أسبانياً ضد مازاران . يقول فولتير : « واصطدمت كل الأطراف بعضها ببعض ، وأبرموا المعاهدات ، ثم خان كل منهم الآخر واحداً إثر واحد ... ومامن رجل لم يغير ولاءه غير مرة »(٨) وقال ريتز ذاكراً تلك الفترة « كنا على استعداد لقطع رقاب بعضنا البعض عشر مرات كل صباح »(٩) . وكان هو نفسه على وشك أن يقتل بيد لاروشفوكو . على أن الكل أعلنوا ولاءهم للملك ، الذي لابد قد سأل نفسه : أي نوع من الملكية ذاك الذي استحال هشيماً بين يديه ؟

وقامت قوة ملكية بمناورة في بوردو انتهت باستسلامها ، وقاد مازاران جيشاً إلى فلاندر وهو يلعب دور إله الحرب مارس ، وهناك هزم تورين

الذى لايقهر . أماويتز ، التواق إلى الحلول محل وزير الملكة وعشيقها ، فقد أقنع البرلمان بأن يجدد مطلبه بنفى مازاران . وفقد الكردينال جرأته ، فأمر بالإفراج عن الأمراء المسجونين (١٣ فبراير ١٦٥١) ، ودفعه الخوف على حياته إلى الهرب إلى برول القريبة من كولونيا . أما كونديه المتحرق للثأر من الوزير والملكة جميعا فقد ربط بين أخيه كونتى ، وأخته لونجفيل ، ودوق نامور ولاروشفوكو ، فى حلف جديد . وفى سبتمبر أعلنوا الحرب ، واستولوا على بوردو ، وأحالوها معقلا للثورة من جديد . ووقع كونديه محالفا مع أسبانيا ، وتفاوض مع كرومويل ، ووعد بأن يقيم جمهورية فى فرنسا .

وفى ٨ سبتمبر أعلن لويس الرابع عشر أنه منه وصاية أمه عليه وآخذ مقاليد الحكم فى يده ، وكان يومها قد بلغ الثالثة عشرة . ورغبة فى تهدئة البرلمان أيد نفى مازاران ، ولكنه استجمع شجاعته فى نوفمبر ، فاستدعى الوزير ثانية ، وعاد هذا إلى فرنسا على رأس جيش . أما جاستون أورليان فقد لعب الآن دور الحياد ، ولكن تورين انحاز إلى صف الملك . وفى مارس ١٦٥٢ أوفـــد لويس حامل أختامه موليه ليطالب بولاء مدينة أورليان . فبعث قضاتها برسالة عاجلة إلى جاستون هددوه فيها بتسليم المدينة إلى الملك مالم يعد هو أو ابنته ليستنفرا أهلها .

هنا ظهرت على مسرح الأحداث امرأة من أشهر نساء فرنسا الشهيرات ، وما أكثرهن ، وكأنى بها « جان دارك » ثانية أقبلت لتنقذ أورليان . هذه المرأة — آن مارى لويز دورليان — كانت قد رفعت راية العصيان فى طفولتها حين نفى ريشليو أباها . وكان جاستون يلقب رسميا — « المسيو » باعتباره شقيق لويس الثالث عشر ، أما زوجته مارى بوربون ، دوقة مونبانسييه ، فهى « مدام » ذلك العهد ، وابنتهما إذن هى « المدموازيل » ، ولما كانت هذه الفتاة قوية البنية فارعة القوام فقد سميت « الجراند مدموازيل دمونبانسييه » . وإذ كانت ذات ثراء عريض فقد شبت على كبرياء للمال

والنسب، وكانت تقول «انني أنتمي إلى بيت لا يفعل إلا ما هو جليل نبيل»(١٠). وقد تطلعت إلى الزواج من لويس الرابع عشر رغم أنه ابن عمها، فلما لم تلق تشجيعاً احتضنت التمرد. وحين سمعت استغاثة مدينتها ورأت أباها يكره أن يخوض المعمعة، حصلت على رضاه بأن تنوب عنه. ولقد طالما غاظتها القيود التي فرضها العرف على بنات جنسها، ولشد ما أنكرت حرمان النساء من الانخراط في سلك الجندية. ومن ثم فقد لبست الآن درعا وخوذة، وجمعت من حولها لفيفاً من كرائم النساء المسترجلات وقوة صغيرة من الجند زحفت بها في مرح وابتهاج على أورليان. وأبى القضاة أن يدخلوها المدينة خشية إغضاب الملك، فأمرت بعض رجالها أن ينقبوا ثغرة في الأسوار، ومنها تسللت ورفقتها كونتيستان بينما الحراس يغفون أو يغضون. وما إن أفلحت في دخول المدينة حتى استطاعت أن تلهب مشاعر أهلها بسحر خطبها النارية. وهكذا رد موليه عن المدينة خاوي الوفاض، وأقسمت أورليان يمين الولاء لـ «عذراء» الجديدة.

وبلغت حرب الفروند الثانية ذروتها على أبواب باريس. فقد زحف كونديه عليها من الجنوب، وهزم جيشاً ملكيا، وأوشك أن يأسر الملك، والملكة، والكردينال، ولو فعل لـ «مات الشاه» حقيقة لا مجازا وبينما كان جيشه يدنو من باريس، حملت الجماهير — وهم «الفرونديون» هنا أيضاً، رفات القديسة جنفييف راعية المدينة وطافت الشوارع في موكب ضارعة إلى الله أن ينصر كونديه ويسقط مازاران أما الجراند مدموازيل فقد هرعت من أورليان إلى قصر لكسمبورج حيث كان أبوها لا يزال على تذبذبه، وطلبت إليه أن يؤيد كونديه، ولكنه أبى. واقترب الآن تورين وجيش الملك، والتقيا بقوات كونديه خارج الأسوار قرب بوابة سانت انطوان (ميدان الباستيل الآن). وكاد تورين يكسب المعركة، لولا أن المدموازيل اندفعت إلى الباستيل وحرضت

مأموره على تصويب مدافعه على جنود الملك . ثم أمرت القوم داخل الأسوار ، باسم أبيها الغائب ، أن يفتحوا الأبواب برهة ريثما يدخل جيش كونديه ، ثم يغلقوها فى وجه جيش الملك (٢يوليو١٦٥٢) . وهكذا كانت المدموازيل بطلة الساعة .

وغدا كونديه سيد باريس، ولكن الرءوس المتزنة أخذت تنقلب عليه، ولم يستطع أن يدفع رواتب جنده ، فبدأوا يهجرونه، وأفلت زمام الجماهير . وفى ٤ يوليو هاجم الغوغاء قاعة المدينة مطالبين بأن يسلم إليهم جميع مؤيدى مازاران ، وإظهارا لسخطهم اشعلوا النار فى المبنى ، وقتلوا ثلاثين من المواطنين . وتعطلت العمليات الاقتصادية ، وعمت الفوضى إمداد المدينة بالطعام ، وخشى نصف أسرات باريس الموت جوعا . وتساءلت الطبقات المالكة : أليست الأوتقراطية الملكية . بل أليس حكم مازاران ، أهون من حكم الرعاع . وأعان مازاران الموقف حين ارتضى لنفسه النفى طوعا ، تاركا الفرونديين بغير قضية توحد بين صفوفهم . أما ريتز فقد رأى أن الوقت قد حان لدعم مكاسبه بعد أن تم له الظفر بقبعة الكردينالية الحمراء التى طالما اشتهاها ، فاستخدم الآن نفوذه ليشجع الولاء للملك .

وفى ٢١ أكتوبر عادت الأسرة المالكة إلى باريس دون أن يمسها سوء . وافتتن الباريسيون بمنظر الملك الصغير ، البالغ من العمر آنئذ أربعة عشر ربيعا ، وسحرهم حسنه وشجاعته ، ورددت الشوارع هتاف الجماهير « يحى الملك » وما لبث هياج الشعب أن هدأ بين عشية وضحاها ، وأعيد النظام لا بفضل القوة ، بل بهالة الملكية ، وهيبة الشرعية ، وإيمان الشعب — الإيمان نصف اللاشعورى — بحق الملوك الإلهى . وماوافى ٦ فبراير ١٦٥٣ حتى استشعر لويس فى نفسه من القوة ماشجعه على دعوة مازاران للعودة وتثبيته مرة أخرى فى جميع سلطاته السابقة . ووضعت حرب الفروند الثانية أوزارها .

وفر كونديه إلى بوردو ، وخضع البرلمان فى بطء ووقار ، واعتكفه

النبلاء المتمردون فى قصورهم الريفية . والتمست مدام لونجفيل العزاء بين راهبات البور — رويال بعد أن ذهب رواء حسنها . ونفيت الجراند مدموازيل إلى إحدى ضياعها ، حيث راحت تأكل قلبها حسرة وهى تذكر ملاحظة نسبت إلى مازاران ، قال فيها إن إطلاقها المدافع من الباستيل قتل زوجها - أى قضى على أملها فى الزواج من الملك . وفى عامها الأربعين أحبت أنطوان كومون ، كونت لوزان ، وكان أصغر وأقصر منها كثيرا ؛ ولكن الملك رفض أن يأذن لهما بهذا الزواج ، فلما عزما عليه برغم هذا الحظر سجنه لويس عشر سنوات (١٦٧٠ — ٨٠) . وظلت المدموازيل وفية له فى شجاعة طوال سجنه ، ولما أفرج عنه تزوجته ، وعاشت معه عيشة مضطربة صاخبة حتى ماتت (١٦٩٣) . وأما ريتز فقد قبض عليه ، ولكنه فر ، ثم نال العفو ، وخدم الملك مبعوثا دبلوماسيا فى روما ، واعتكف فى ركن باللورين ، وألف مذكرات تمتاز بتحليلها الموضوعى للخلق ، بما فى ذلك خلقه هو يقول فيها :

« لم ألعب دور الناذر نفسه للدين ، لأننى لم استطع أن أعرف على وجه اليقين كم من الزمن سأستطيع لعب دور المزيف ، وحين أعجزنى العيش دون صلة غرامية محرمة ، اتصلت بمدام بومرو ، وكانت شابة لعوبا ، لها الصدد الكبير من العشاق ، لا فى بيتها فحسب ، بل فى مكان عبادتها أيضاً ، بحيث كانت صلات غيرى المكشوفة معها ستارا لصلتى بها . . . واستقر رأيى على التمادى فى خطاياى . . . ولكنى كنت مصمما كل التصميم على القيام بواجبات مهنتى (الدينية) بأمانة ، وعلى بذل قصاراى فى تخليص نفوس غيرى وإن لم أكترث لخلاص نفسى » (١١).

أما مازاران فقد هبط على قدميه دون أن يضار ، وعاد سيداً على المملكة ، وخادما لملك ما زال راغبا فى التعلم . وقد روع فرنسا أن يبرم الوزير معاهدة مع إنجلترا البروتستنتية وكرومويل قاتل ملكها (١٦٥٧) ، الذى أعان على محاربة كونديه والأسبان بإرساله ستة آلاف جندى ؛

وأحرز الفرنسيون والإنجليز معا النصر فى « معركة الكثبان » (١٣ يونيو ١٦٥٨) . وبعد عشرة أيام سلم الأسبان دنكرك ، فدخلها لويس فى احتفال رسمى مهيب ، ثم نزل عنها لانجلترة طبقا للمعاهدة. وأبرمت أسبانيا مع فرنسا صلح البرانس (٧ نوفمبر ١٦٥٩) بعد أن استنزف القتال مالها ورجالها، فأنهت بذلك ثلاثة وعشرين عاما من حرب واحدة ، وأرست أساس حرب أخرى . ونزلت أسبانيا عن روسيون ، وأرتوا ، وجرافلين ، وتيونفيل ، لفرنسا ، وتخلت عن جميع مطالبها فى الالزاس ، وزوج فيليب الرابع ابنته ماريا تريزا للويس الرابع عشر ، بشروط ورطت فيما بعد غرب أوربا كله فى حرب الوراثة الأسبانية . ذلك أنه تعهد بأن يبعث إليها ، خلال ثمانية عشر شهرا ، بصداق قدره ٥٠٠ر٠٠٠ كراون ، ولكنه انتزع منها ومن لويس تنازلا عن حقوقها فى ولاية العرش الأسبانى . وأصر ملك أسبانيا على أن يكون العفو عن كونديه شرطا من شروط الصلح ، فلم يكتف لويس بالصفح عن الأمير المنيف ، بل رد إليه كل ألقابه وأملاكه ، ورحب به فى بلاطه .

كان صلح البرانس الدليل على إنجاز برنامج ريشليو — وخلاصته كسر شوكة الهابسبورج ، وحلول فرنسا محل أسبانيا أمة متسلطة فى أوربا . واعترف الفرنسيون بفضل مازاران فى الوصول بهذه السياسة إلى ختامها الظافر ، ومع أنه لم يظفر إلا بحب القليلين منهم ، فإنهم رأوا فيه رجلا من أكفأ الوزراء فى تاريخ فرنسا . ولكن فرنسا التى سرعان ما نسيت خيانة كونديه ، لم تغتفر قط لمازاران جشعه وحرصه . ففى وسط الفاقة التى كابدها الشعب جمع ثروة طائلة قدرها فولتير بمائتى مليون من الفرنكات(١٢) . وكان يحول المخصصات الحربية إلى خزائنه الشخصية ، ويبيع وظائف التاج لمنفعته الخاصة ، ويقرض الملك بالربا ، وقد أهدى إحدى بنات أخيه قلادة مازالت تعد من أغلى الحلى فى العالم(١٣) .

ولما حضرته الوفاة أشار على لويس بأن يكون وزير نفسه الأول ، وألا يترك مسائل السياسة العليا لأى من مساعديه إطلاقا(١٤) وبعد موته (٩ مارس

١٦٦١) كشف كولبير للملك عن المخبأ الذى أخفى فيه ثروته . فصادرها لويس ، وأثلج بذلك صدر شعبه ، وغدا أغنى ملوك زمانه . وهتف ظرفاء باريس لجينو ، طبيب مازاران ، لأنه رجل أحسن إلى الشعب كله ، وقالوا «أفسحوا الطريق لنبالته . إنه الطبيب الطيب الذى قتل الكردينال » (٢٥).

٢ — الملك

لم يكن أشهر ملوك فرنسا فرنسياً إلا بربع دمه . فقد كان نصف أسبانى من ناحية أمه آن النمساوية ، وربع إيطالى من ناحية جدته مارى مديتشى . وقد أولع بالفن والحب الإيطاليين دون تردد وبعد ذلك بالتدين والكبرياء الأسبانيين ، وفى أخريات عمره كان أكثر شبها بجده لأمه ، فيليب الثالث ملك أسبانيا ، منه بجده لأبيه ، هنرى الرابع ملك فرنسا .

سمى عند ولادته (٥ سبتمبر ١٦٣٨) ديودونيه Dieudonné أى «عطية الله » ، ولعل الفرنسيين لم يستطيعوا أن يصدقوا أن لويس الثالث عشر قد حقق أبوته فعلا دون عون من الله . وقد أضر بنمو الصبي وتطوره ما كان بين أبويه من تنافر ، وموت أبيه الباكر ، واضطرابات الفروند الطويلة الأمد . وكثيراً ما لقى الإهمال وسط نضال آن ومازاران المرة بعد المرة للاحتفاظ بالسلطة . وفى تلك الأيام التى لم تكن ظروفها مواتية لأى ملك ، ذاق مرارة الفقر أحيانا فى الملبس الرث والطعام القليل . ويبدو أن أحدا لم يهتم بتعليمه ، وحين تولاه المدرسون الخصوصيون كان همهم الأكبر أن يقنعوه بأن فرنسا بأسرها ميراثه الذى سيحكمه بالحق الإلهى ، ولا يسأل عنه إلا أمام الله . ووجدت أمه الوقت لتدريبه على العقيدة والعبادة الكاثوليكيتين ، اللتين سترتدان إليه فى قوة بعد أن أنهكت فيه الشهوات وتضاءل سناء المجد . ويؤكد لنا سان — سيمون أن لويس « لم يكد يعلمه أحد القراءة أو الكتابة ، وأنه ظل جاهلا كل

الجهل حتى أنه لم يلم بأشهر حقائق التاريخ وغيرها من الحقائق » . ولكن لعل هذه إحدى مبالغات الدوق المفرطة . وما من شك فى أن لويس لم يظهر ميلا يذكر للكتب ، وإن كانت رعايته للمؤلفين وصداقته لموليير وبوالو وراسين تشير إلى تقدير صادق للأدب . وقد أعرب فيما بعد عن أسفه لأنه لم يصل إلى دراسة التاريخ إلا متأخراً جداً ، وكتب يقول « إن الإلمام بالأحداث العظيمة التى وقعت فى العالم على مدى القرون الكثيرة ، والتى هضمتها العقول القوية النشيطة ، هذا الإلمام يفيد فى دعم الحجة فى جميع المداولات الهامة » (١٧) وقد جهدت أمه لتربى فيه الإحساس بالشرف والشهامة لا مجرد آداب السلوك ، وبقى الكثير من هذا فيه وإن لوثته إرادة طائشة للقوة . كان فتى جاداً ممتثلا ، يبدو أطيب من أن يصلح للحكم ، ولكن مازاران صرح بأن فى لويس « من الأصالة والكفاءة ما يصنع أربعة ملوك ورجلا شريفا » (١٨).

فى ٧ سبتمبر ١٦٥١ أطل جون إيفلين من مسكن توماس هوبز فى باريس على الموكب الذى رافق الملك الصبى ، البالغ الثالثة عشرة ، متجها إلى الحفل المقام بمناسبة إنهاء سن قصوره . وقال هذا الإنجليزى فى وصفه « مضى أبوللو الصغير هذا أكثر الطريق وقبعته فى يده يحى السيدات والمعجبات اللاتى ازدانت النوافذ بهائهن وملأ الجو هتافهن « يحيى الملك » (١٩) وكان فى إمكان لويس يومئذ أن يتسلم زمام الأمر كله من مازاران ، لولا أنه كان يحترم ذلك الدهاء المهذب الذى طبع عليه وزيره ، فسمح له بأن يحتفظ بالزمام تسع سنوات أخرى . ومع ذلك فقد اعترف بعد موت الكردينال قائلا « لست أدرى ماذا كنت صانعاً لو عمر طويلا » (٢٠) فلما مات مازاران أقبل رؤساء الإدارات على لويس سائلين إلى من يأتون ليتلقوا تعليماتهم ، فأجاب ببساطة قاطعة « إلى » (٢١) ومنذ ذلك التاريخ (٩ مارس ١٦٦١) حتى أول سبتمبر ١٧١٥ تولى حكم فرنسا بنفسه . وبكى الشعب فرحا إذ أصبح له ملك فعال لأول مرة فى نصف قرن .

ولقد تهللوا فرحا وتيها بحسنه . قال جان دلافونتين حين رآه فى ١٦٦٠ ، ولم يكن بالرجل الذى يخدع بسهولة ، « أتظنون أن فى الدنيا ملوكا كثيرين وهبوا هذا الوجه المليح وهذا السمت الرائع ؟ لا أظن ، ويخيل إلى حين أراه أنني أرى العظمة مجسمه »(٢٢) لم تكن قامته تزيد على خمسة أقدام وخمس بوصات ، ولكن السلطة جعلته يبدو أطول . وإذ كان قوى البدن ، متين البنية ، فارساً وراقصاً ماهراً ، ومثاقفاً بارعاً وراوية خلاب العبارة . فقد ملك جماع الصفات التى تفتن المرأة وتفتح مغاليق قلبها . كتب سان — سيمون وكان يكرهه ، « لو أنه كان فرداً عادياً لا أكثر لجلب نفس الدمار بغرامياته »(٢٣). على أن هذا الدوق (الذى لم يستطع قط أن يغفر للويس حرمانه الأدواق من سلطة الحكم) اعترف بكياسته وآدابه الملوكية التى أصبحت الآن مدرسة للبلاط ، ولفرنسا عن طريق البلاط ، ولأوربا عن طريق فرنسا . قال :

« لم يعط أحد قط بأرق وألطف مما أعطى لويس الرابع عشر ، ولا ضاعف أحد بهذه الطريقة من قيمة عطائه كما ضاعف لويس . . . لم تكن الألفاظ الجافية لتند عنه قط ، فإذا اضطر أن يلوم ، أو يوبخ ، أو يقوم ، وهو أمر نادر ، ففى لطف دائما تقريبا ، لا فى غضب أو صرامة قط . . . إلا فى مناسبة واحدة وما عرف الناس رجلا طبع على مثل هذا الأدب الجم . . . أما مع النساء فلم يكن لتأدبه نظير . ما مر بامرأة مهما قل شأنها إلا رفع لها قبعته ، حتى الخادمات اللاتى يعرف أنهن خادمات . فإذا خاطب سيدات المجتمع لم يغط رأسه إلا بعد أن يفارقهن »(٢٤).

على أن ذهنه لم يرق إلى مستوى سلوكه . لقد كاد يضارع نابليون فى حكمه الثاقب على الرجال ، ولكنه قصر كثيراً دون ذكاء قيصر الفلسفى ، أو سياسة أوغسطس الإنسانية البعيدة النظر . وفى هذا يقول سانت — بوف « لم يؤت أكثر من الأدراك السليم ، ولكن حظه منه كان موفورا »(٢٥) ولعله خير من الذكاء . ولنستمع إلى سان — سيمون ثانية « كان بطبعه حصيفا ،

معتدلا، حذرا ، سيدا على حركاته ولسانه »(٢٦). ويقول مونتسكيو « كانت نفسه أعظم من ذهنه »(٢٧) وقد وهب قوة انتباه وإرادة عوضت إبان عزه عن قصور أفكاره . أما علمنا بعيوبه فيأتينا من فترة حكمه الثانية على الأخص (١٦٨٣ — ١٧١٥) ، حين ضيق التعصب أفقه ، وأفسده النجاح والتملق . هنا نجده مغرورا غرور الممثلين متكبرا كبرياء الآثار الضخمة . وإن كان بعض كبريائه ربما أضفاه عليه الرسامون ممن صوروه ، وبعضه راجعاً إلى فكرته عن منصبه . فإذا كان قد مثل دور « الملك العظيم » فلعل عذره أنه خال هذا ضرورة لا يستغني عنها أسلوب الحكم ودعم النظام ، إذ لا بد من وجود مركز للسلطة ، ولا بد من أن تدعم الأبهة والمراسم هذه السلطة . قال لولده مرة « يبدو لي أن من واجبنا أن نكون متواضعين من أجل ذواتنا ، متكبرين من أجل المركز الذي نشغله »(٢٨) ولكنه قل أن تواضع — ربما مرة واحدة ، حين لم يجد غضاضة في أن يصحح بوالوله غلطه في أمر يتصل بالذوق الأدبي . وتقرأ مذكراته فتراه يتأمل فضائله في اتزان كثير . وعنده أن خير سجاياه حبه للمجد . قال إنه « يؤثر الصيت البعيد على كل الأشياء ، بل على الحياة نفسها »(٢٩) ولكن ولعه هذا بالمجد خدم أعداءه لأنه غالى فيه . كتب يقول « أن تحمسنا للمجد la gloire ليس شهوة من هذه الشهوات الهزيلة التي تنطفىء بمجرد تملك النفس لما تشتهيه ، فإن عطاياه التي لا تنال إلا بالجهد لا تورث السأم أبدا ، ومن كف عن اشتهاء المزيد منها لا يستحق كل ما ناله من عطاء(٣٠) .

بيد أنه أوتي حظاً من الفضائل الجليلة ، إلى أن جر ولعه بالعظمة والمجد الدمار على خلقه وعلى بلده . فلقد أعجب بلاطه بعدالته ، وتسامحه ، وكرمه ، وضبطه لنفسه . قالت مدام موتفيل التي كانت تراه كل يوم تقريبا خلال هذه الفترة « في هذا يجب أن تعترف كل العهود الملكية السابقة . . لهذا العهد بتقدمه عليها في استهلاله السعيد »(٣١) وقد لاحظ القريبون منه ذلك الوفاء الذي كان يحمله على زيارة جناح أمه مراراً كل يوم على كثرة

شواغله ، ثم شهدوا بعد ذلك حنانه على أبنائه ، وحرصه على صحتهم وتربيتهم — أياً كانت أمهم . كان أكثر عطفا على الأفراد منه على الأمم ، فى وسعه أن يشن الحرب على الهولنديين الذين لم يؤذوه ، وأن يأمر بتدمير البالاتينات ، ولكنه يحزن لموت رويتر أمير البحر الهولندى ، الذى أوقع الهزائم بالبحرية الفرنسية ، وقد كلفته الشفقة على الملكة المخلوعة ، زوج جيمس الثانى ، وعلى ولده ، حربا كانت أسوأ حروبه .

ويلوح أنه آمن حقيقة بأنه مبعوث العناية لحكم فرنسا ، ولحكمها بسلطان مطلق . وكان فى استطاعته بالطبع أن يستشهد بآيات من الكتاب المقدس سنداً لهدفه هذا ، وأسعد بوسويه أن يريه أن العهدين القديم والجديد يدعمان حق الملوك الإلهى . وقد أخبر ولده فى مذكراته(*) التى أعدها لإرشاده أن « الله يجعل من الملوك الحفاظ الوحيدين للصالح العام » وأنهم « خلفاء الله على هذه الأرض » . ولا بد لهم ، لكى يمارسوا وظائفهم المقدسة على الوجه الصحيح ، من سلطة لا حدود لها ، ومن ثم وجب أن يكون لهم « الحرية الكاملة المطلقة فى التصرف فى جميع الممتلكات سواء ممتلكات رجال الدين أو العلمانيين »(٣٢). أنه لم يقل (أنا الدولة) L'état, c'est moi ولكنه آمن بهذا القول ببساطة مطلقة . أما الشعب فيلوح أنه لم تسؤه هذه الدعاوى ، التى حببها هنرى الرابع إليه انتقاضا على الفوضى الاجتماعية ، لا بل إن أفراده تطلعوا إلى هذا الملك الفتى فى ولاء دينى ، واستشعروا عزة الجماعة فى أبهته وجبروته ، فما من بديل عرفوه لهما غير ما رافق الاقطاع من تفتت وغطرسة . وبعد طغيان ريشليو ، وفوضى الفروند ، واختلاسات

(*) واصل لويس على فترات كتابة « ملاحظات يستعان بها فى المذكرات » التى بدأها فى ١٦٦١ و حتى ١٦٧٩ حين أضاف إليها « تأملات فى حرفة الملك » وفيها الكثير مما يتسم بسلامة الادراك على الرغم من إيمانها بنظرية الحكم المطلق ، وقد تبدو أمامها بحوث الفلاسفة فى هذا الموضوع قاصرة . والظاهر أنه أملاهـا على سكرتيرين كسوها ثوبا أدبيا قشيبا . وهى لا تقل جدارة بالقراءة عن أى أدب فى العصر الذى نحن بصدده .

مازاران ، رحبت الطبقتان الوسطى والدنيا بالسلطة والزعامة المركزتين في حاكم « شرعي » بدا لهم واعداً بالنظام ، والأمن ، والسلام .

وقد أفصح عن مذهبه في الحكم المطلق حين أراد برلمان باريس عام ١٦٦٥ أن يناقش بعض مراسيمه . ركب من فالنسين في ثياب الصيد ، ودخل قاعة البرلمان في حذائه العالي وسوطه بيده ، ثم قال : « إن الكوارث التي جرتها مجالسكم معروفة مشهورة . لذلك آمركم بأن تفضوا هذا المجلس الذي اجتمع ليناقش مراسيمي . سيدي الرئيس الأول ، إني أمنعك من السماح بهذه الاجتماعات ، وأمنع أي فرد منكم بالمطالبة بها.(٣٣) » ثم نقلت وظيفة البرلمان بوصفه محكمة عليا إلى « مجلس خاص » ملكي ، خاضع للملك على الدوام .

وأدخل لويس على مركز النبلاء في الحكومة تغييراً جذرياً . لقد زودوا البلاط والجيش بأبهة المظهر وبريقه ، ولكن ندر أن شغلوا الوظائف الإدارية ذلك أن كبار النبلاء دعوا إلى مغادرة ضياعهم معظم العام والإقامة في البلاط — أكثرهم في « أوتيلاتهم » أو قصورهم الباريسية ، وعظماؤهم في القصور الملكية ضيوفاً على الملك ، ومن هنا هذه الأجنحة الشاسعة التي خصصت لهم في فرساي . فإذا رفضوا قبول الدعوة فليس لهم أن يتوقعوا أي فضل يؤثرهم به الملك . وأعفى النبلاء من الضرائب ، ولكن فرض عليهم في الأزمات أن يرجعوا إلى قصورهم الريفية ، وينظموا ويجهزوا أتباعهم ، ويقودوهم للانضمام إلى الجيش . وقد استطابوا الحرب تخففاً من سأم الحياة في البلاط . حقاً كانوا عاطلين كثيري النفقة ، ولكن بسالتهم في ساحة القتال أصبحت فرضاً ملزماً لطبقتهم . ومنعهم العرف والإتيكيت من الاشتغال بالتجارة أو بشئون المال — وأن جبوا الرسوم على التجارة المارة بأملاكهم ، واقترضوا في غير تحرج من أصحاب المصارف . وكانت ضياعهم يزرعها محاصصون (métayers) يدفعون لهم جزءاً من المحصول ويؤدون لهم مختلف الخدمات والمكوس الإقطاعية . ويفترض

فى السيد الاقطاعى أن يحافظ فى اقليمه على النظام والعدالة ويرعى أعمال البر . وكان فى بعض الأقاليم يؤدى هذه المهمة أداء لا بأس به ، فيكون محل احترام الفلاحين ، وفى بعضها الآخر لايبذل لقاء امتيازاته إلا عطاء تافها ، فضلا عن أن فترات غيابه الطويلة فى البلاط كانت تقوض تلك الألفة المهذبة بين السيد وتابعه . وقد حظر لويس الحروب الخاصة التى كانت تنشب بين الأحزاب الإقطاعية ، وأنهى — إلى أجل — عادة المبارزة التى انتعشت خلال حرب الفروند ، وتفاقم خطرها لأن شهود المبارزين ، لا المبارزين الأصليين فحسب ، كانوا يقتتلون ، ويقتـــلون ، ويحرمون مارس إله الحرب من فرائسه . وقد أحصى جرامون عـــدد من أودت المبارزات بهم فى تسع سنوات (١٦٤٣–٥٢) فكانوا تسعمائة(٣٤). ولعل احد أسباب الحروب المتـــكررة تلك الرغبة فى ايجاد منفذ لولع الفرنسيين بالقتال ، ولـــكبريائهم داخل وطنهم ، على حساب الأجانب .

أما الإدارة الفعلية لشئون الحـــكومة فقد آثر لويس لها كبار رجال الطبقة الوسطى ممن أثبتوا كفايتهم بالارتقاء إلى مراكزهم وممن كان فى وسعه أن يركن إليهم فى دعم سلطة الملك المطلقة(٣٥) . واختصت ثلاثة مجالس كبرى بتصريف شئون الحـــكم ، يجتمع كل منها برئاسة الملك ، ويعمل فى إعداد المعلومات والتوصيات التى يبني عليها الملك قراراته . فـــكان « مجلس الدولة » المؤلف من أربعة رجال أو خمسة يجتمع ثلاث مرات فى الأسبوع ليعالج أهم مسائل العمل أو السياسة ، وكان « مجلس الرسائل » يصرف شئون الأقاليم ، و « مجلس المالية » ينظر فى الضرائب والإيراد والمنصرف . واضطلعت مجالس اضافية أخرى بشئون الحرب ، والتجارة ، والدين ، وانتزع الحـــكم المحلى من أيدى النبلاء المستهترين ونيط به النظار الملـــكيون ، وسخرت الانتخابات البلدية لتأتى بعمد يرضى عنهم الملك . ولو أننا سئلنا اليوم رأينا فى حـــكومة شديدة التمركز كهذه لقلنا إنها ظالمة ، وكذلك كانت ، ولـــكن أغلب الظن أنها أقل ظلما مما سبقها من حكم الأوليجاركيات البلدية أو النبلاء

الإقطاعيين . وآية ذلك أنه حين دخلت لجنة ملكية اقليم أوفرن (١٦٦٥) للتحقيق فى استغلال السادة لسلطتهم الإقطاعية فى الإقليم ، رحب الناس بهذا الاستجواب العظيم Lesgrands Jours d, Auvergne محرراً لهم من الظلم ، وأثلج صدورهم أن يروا « إقطاعيا كبيرا » يضرب عنقه لأنه قتل فلاحا ، وأشرافا ، أقل منه شأنا يلقون جزاءهم على ما اقترفوا من أعمال محظورة أو قاسية (٣٦). ويمثل هذه الاجراءات حل القانون الملكى محل القانون الإقطاعى .

ثم نقحت القوانين لتبلغ من النظام والمنطق قصارى مايتفق والارستقراطية ، فحكم « قانون لويس » الذى تكون على هذا النحو (١٦٦٧—١٦٧٣) فرنسا إلى أن جاء « قانون نابليون » (١٨٠٤ ١٨١٠) وكان القانون الجديد أرقى من كل قانون سبقه منذ عهد جستنيان ، وقد « أسهم بقوة فى تقدم الحضارة الفرنسية (٣٧) » وأنشىء جهاز شرطة ليكبح إجرام باريس وقذارتها . فترى مارك رينيه ، مركيز فوابيه دارجنسون ، الذى خدم الدولة إحدى وعشرين سنة قائدا عاما للشرطة ، يترك سجلا مشرفا من الأداء العادل الدؤوب لوظيفة عسيرة . وبإشرافه رصفت شوارع باريس ، ونظفت تنظيفا معتدلا ، وأضيئت بخمسة آلاف مصباح ، وأمنت تأمينا لابأس به للمواطنين ، وأصبحت باريس الآن فى هذا كله متقدمة جداً على أى مدينة أخرى فى أوربا . ولكن القانون أباح الكثير من أعمال الهمجية والطغيان . ونشرت شبكة من المخبرين فى أرجاء فرنسا ، يتجسسون على الكلام كما يتجسسون على الأفعال . وأبيح اعتقال الأشخاص اعتقالا تعسفيا بمقتضى الأوامر السرية Lettres de cachet التى يصدرها الملك أو وزراؤه ، وسجنهم سنين دون محاكمة ، ودون أن يحاطوا علما بجريرتهم . وحظر القانون الاتهامات بالسحر ، وأبطل حكم الإعدام عقابا للتجديف ، ولكنه احتفظ باستخدام التعذيب أداة لانتزاع الاعترافات من المتهمين . وأجاز القانون عقاب عدد كبير من الذنوب بالحكم

على مرتكبيها بتشغيلهم فى سفن أسرى الحرب - وكانت سفننا كبيرة وطيئة يسيرها بالمجاذيف المذنبون موثقين بالسلاسل إلى المقاعد . وخصص ستة رجال لكل مجذاف طوله خمسة عشر قدما . وكانت صفارة المشرف تلزمهم الاحتفاظ بالسرعة التى يحددها ، وأجسادهم عارية إلا من وزرة ، وشعورهم ولحاهم وحواجبهم محلوقة ، وأحكامهم طويلة الأمد ، ومن الجائز مدها تعسفا إذا لم يذعنوا للأوامر إذعانا تاما ، فيفرض عليهم رقهم أعواما بعد أن يقضوا مدة عقوبتهم . ولم يخف عنهم عذابهم إلا ما سمح لهم به إذا بلغوا الميناء من بيع التوافه أو استجداء الصدقات وهم يسيرون أزواجاً فى أغلالهم .

أما لويس نفسه فوضع فوق القانون ، حراً فى أن يأمر بأى عقوبة لأى ذنب . ففى ١٦٧٤ قضى بأن تجدع أنوف جميع البغايا وتصلم آذانهن إذا ضبطن مع الجنود فى نطاق خمسة أميال من فرساى . وكثيراً ما كان رحيما ولكنه كثيراً ما كان صارما قال لولده : « إن مقداراً محدوداً من الصرامة كان أعظم ما استطعته من ترفق بشعبى ؛ ولو اننى اتبعت سياسة عكس هذه السياسة لجرت شروراً متعاقبة لا نهاية لها . ذلك أنه ما إن يضعف الملك فى إنفاذ ما أمر به ، حتى ينهار السلطان وينهار معه السلام العام ... فيقع كل العبء على كواهل الطبقات الدنيا ، التى يظلمها عندئذ ألوف من صغار الطغاة بدلا من الملك الشرعى »(٣٩) .

وكان دائم العكوف على ما سماه « حرفة الملك le métier de roi » . يطلب إلى وزرائه أن يوافوه بالتقارير الكثيرة المفصلة ، ولا يدانيه رجل فى مملكته اطلاعاً على أحوالها . ولم يسؤه أن يشير عليه وزراؤه بما يناقض آراءه ، وقد نزل أحيانا على رأى مستشاريه . ثم أنه احتفظ بأوثق العلاقات الودية مع مساعديه ، شريطة ألا يغيب عنهم أنه الملك - قال مرة لفوبان : « ثابر على أن تكتب إلى بكل ما يعن لك ولا تفتر لك همة ولو لم أفعل دائماً ما تشير به »(٤٠) . وكانت عينه على كل شىء - الجيش والبحرية ، والمحاكم ، وبيته ، والمالية ، والكنيسة ، والدراما ، والأدب ، والفنون ، ومع أنه فى

النصف الأول من حكمه كان يسنده وزراء أكفاء مخلصون ، فإن السياسات والقرارات الخطيرة ، والجمع بين شتى نواحى الحكم المعقد فى وحدة متسقة — كل هذا كان من صنعه هو . لقد كان ملكا كل ساعة من ساعات يومه .

ولقد كلفه هذا من أمره عنتاً . كان هناك من يقوم على خدمته فى كل خطوة يخطوها ، ولكنه دفع ثمن هذا برقابة الغير له فى كل حركة وسكنة فكانت مبارحته لفراشه وذهابه إليه (إذا كان منفردا) بعض وظائف الدولة . فإذا تم هذا الاستيقاظ الرسمى (lever) استمع إلى القداس ثم أفطر ، ثم مضى إلى قاعة المداولة ، وخرج منها حوالى الواحدة ، فتناول وجبة كبيرة ، يأكلها عادة على مائدة صغيرة لشخص واحد ، تحيط به بطانته وخدمه . فإذا فرغ من طعامه تمشى عادة فى الحديقة ، أو خرج للصيد ، يرافقه أثراؤه فى ذلك اليوم . فإذا عاد أنفق ثلاث ساعات أو أربعا فى اجتماعات مجلسه ، ثم لحق بحاشيته فى ملاهيهم من السابعة إلى العاشرة حيث الموسيقى ، ولعب الورق ، والبليارد ، والغزل ، والرقص ، والاستقبالات ، وحفلات الرقص ، وفى فترات من هذا الروتين اليومى « يتحدث إليه من شاء »(٤١) وإن لم يجرؤ على هذا إلا القليلون . « لقد أعطيت رعاياى كلهم ، دون تفرقة ، حرية مخاطبتى فى جميع الساعات ، سواء بأشخاصهم أو بملتمساتهم »(٤٢) وحوالى الساعة العاشرة مساء ، كان الملك يتناول العشاء رسميا مع أبنائه وحفدته ، وأحيانا مع الملكة .

ولقد كان من أسباب التهذيب والتثقيف لفرنسا أن نلاحظ كيف يفرغ مليكها لمهام الحكم مواظبا عليها ساعات سبعاً أو ثمانى طوال ستة أيام فى الأسبوع . كتب السفير الهولندى يقول : (لا يصدق المرء أى سرعة ، وأى وضوح ، أى قدرة على التمييز ، وأى ذكاء يصرف به هذا الملك الشاب أعماله ويفرغ منها ، وذلك فى تلطف كثير مع جميع من يتعامل معهم ، وفى طول أناة وهو يستمع إلى ما يريد مخاطبه أن يقول ، الأمر الذى حبب فيه كل القلوب)(٤٣) ولقد ثابر على هذا التفانى فى تصريف شئون

الحكم طوال أربعة وخمسين عاما ، لا يكف عنه حتى وهو يلازم فراش المرض . وكان يحضر المجالس والمؤتمرات وقد أعد نفسه لها إعدادا وافيا .
« فما كان ليحسم فى أمر عفو الساعة، ولا دون مشورة»(٤٥) ثم أنه يختار مساعديه بفطنة عجيبة ، ولقد ورث بعضهم - ككولبير - من مازاران ، ولكنه كان له من سلامة الذوق ما جعله يحتفظ بهم ، حتى موتهم عادة .
وكان يبذل لهم كل لطف ومجاملة ، وكل ثقة معقولة ، ثم لا تغفل عينه عن مراقبتهم » .
كنت بعد أن اختار وزرائى لا يفوتنى أن أدخل مكاتبهم على غير توقع منهم ..
وهكذا أحطت بآلاف الأشياء التى أفادتنى فى تحديد طريقى(٤٦) »

وحكمت فرنسا ، فى أيام شمسها الصاعدة تلك ، خيرا مما حكمت فى أى عهد مضى ، برغم تركيز السلطة والإدارة ، أو بفضل هذا التركيز ، وبرغم تحكم يد واحدة فى خيوط الحكم كلها ، أو بفضل هذا التحكم .

٣ - نيقــــولا فوكيه : ١٦١٥ - ٨٠

كان هم الملك الأول أن يعيد تنظيم مالية الدولة بعد أن استنزفتها الاختلاسات فى عهد مازاران . وكان نيقولا فوكيه ، الذى شغل منصب « ناظر المالية » منذ ١٦٥٣ ، يدير شئون الضرائب والمصروفات بأصابع حريصة ويد قديرة . فقد قلل من عوائق التجارة الداخلية ، ونشط نمو التجارة الفرنسية فيما وراء البحار ، واقتسم فى احساس بالواجب غنائم منصبه مع ملتزمى الضرائب ومع مازاران . وكان هؤلاء الملتزمون العموميون من كبار الرأسماليين الذين أقرضوا الدولة مبالغ كبيرة لقاء تخويلهم حق جباية الضرائب نظير أدائهم مبلغاً محددا . وقد جبوها بكثير من الجشع الفعال الذى جعلهم أبغض الأشخاص إلى الناس فى المملكة ، وقد أعدم من أمثالهم أربعة وعشرون ملتزما خلال الثورة الفرنسية . وجمع فوكيه بالتواطؤ مع الملتزمين العموميين أضخم ثروة اقتناها فرد فى جيله .

وفى سنه ١٦٥٧ كلف المعمارى لوى لفو ، والمصور شارل لبرون ،

ورسام المناظر الطبيعية أندريه لنوتر ، بأن يصمموا، ويبنوا ، ويزخرفوا له قصر فو — لو — فيكونت الريفى الفخم المترامى الأطراف ، وأن يخططوا حدائقه ، ويزينوها بالتماثيل . وقد استخدم المشروع مرة ثمانية عشر ألف رجل(٤٠) ، وكلف ثمانية عشر مليون من الجنيهات الفرنسية ، وغطى مساحة ثلاث قرى . هنالك جمع فوكيه الصور والتماثيل والتحف ، ومكتبة قوامها ٢٧٫٠٠٠ مجلد حوت فيما حوت عدة نسخ من الكتاب المقدس والتلمود والقرآن دون تفريق . وروى أن هذه القاعات الأنيقة « كانت تتسلل إليها نساء من أنبل الأسر ليؤنسنه بثمن غال »(٤٩) . وبمثل هذا الذوق ، ولكن بثمن أقل ، جلب فوكيه الشعراء أمثال كورنى ، وموليير ، ولافونتين ، ليجمل بهم صالونه .

ونظر لويس بعين الحسد إلى هذه الأبهة وخامرته الظنون فى مصدرها . فطلب إلى كولبير أن يفحص أساليب ناظر المالية وحساباته ، وأنهى كولبير إلى الملك أن الأساليب والحسابات فاسدة إلى حد لا يصدق . وفى ١٧ أغسطس ١٦٦١ دعا فوكيه الملك الشاب إلى مهرجان أقامه فى فو . وقدم الطعام لضيوفه الستة الآلاف فى ستة آلاف طبق من الفضة أو الذهب . ومثل موليير فى حدائق القصر ملهاته (Les Fâcheux) (الثقلاء) وقد كلفت السهرة فوكيه ١٢٠٫٠٠٠ جنيه وكلفته إلى ذلك حريته . ذلك أن لويس أحس أن الرجل « يسرق فوق ما يسمح له به مركزه » ولم يعجبه شعار (Quo non ascendam ?) (إلام لا يجوز لى أن أرق ؟) — الذى شفعه بصورة سنجاب يصعد شجرة ، وخيل إلى لويس أن إحدى اللوحات التى رسمها لبرون تشمل صورة للآنسة دلافالبير ، وكانت إذ ذاك محظية الملك . وكاد يأمر باعتقال فوكيه للتو والساعة ، لولا أن أقنعته أمه بأن فى ذلك إفسادا لسهرة رائعة .

وتربص الملك بالوزير حتى تكاثرت الأدلة على اختلاساته . وفى ٥ سبتمبر أمر قائد مشاته حملة البنادق بالقبض عليه (وهذا القائد

ورسام المناظر الطبيعية « اندريه لنوتر » ، بأن يصمموا ، ويبنوا ، ويزخرفوا له قصر فو — لو — فيكونت الريفي الفخم المترامي الأطراف ، وأن يخططوا حدائقه ، ويزينوها بالتماثيل . وقد استخدم المشروع مرة ثمانية عشر ألف رجل ، وكلف ثمانية عشر مليونا من الجنيهات الفرنسية ، وغطى مساحة ثلاث قرى . هنالك جمع فوكيه الصور والتماثيل والتحف ، ومكتبة قوامها ٢٧٫٠٠٠ مجلد حوت فيما حوت عدة نسخ من الكتاب المقدس والتلمود والقرآن دون تفريق . وروى أن هذه القاعات الأنيقة « كانت تتسلل إليها نساء من أنبل الأسر ليؤنسنه بثمن غال » . وبمثل هذا الذوق ، ولكن بثمن أقل ، جلب فوكيه الشعراء أمثال كورنيي ، وموليير ، ولافونتين ، ليجمل بهم صالونه .

ونظر لويس بعين الحسد إلى هذه الأبهة وخامرته الظنون في مصدرها . فطلب إلى كولبير أن يفحص أساليب ناظر المالية وحساباته ، وأنهى كولبير إلى الملك أن الأساليب والحسابات فاسدة إلى حد لا يصدق . وفي ١٧ أغسطس ١٦٦١ دعا فوكيه الملك الشاب إلى مهرجان أقامه في فو . وقدم الطعام لضيوفه الستة الآلاف في ستة آلاف طبق من الفضة أو الذهب ، ومثل موليير في حدائق القصر ملهاته « Les Facheux » (الثقلاء) وقد كلفت السهرة فوكيه ١٢٠٫٠٠٠ جنيه وكلفته إلى ذلك حريته . ذلك أن لويس أحس أن الرجل « يسرق فوق ما يسمح له به مركزه » ولم يعجبه شعار « Quo non ascendam ? » (إلام لا يجوز لي أن أرقى ؟) — الذي شفعه بصورة سنجاب يصعد شجرة ، وخيل إلى لويس أن احدى اللوحات التي رسمها لبرون تشمل صورة للانسة دلافاليير ، وكانت إذ ذاك محظية للملك . وكاد يأمر باعتقال فوكيه للتو والساعة ، لولا أن أقنعته أمه بأن في ذلك إفسادا لسهرة رائعة .

وتربص الملك بالوزير حتى تكاثرت الأدلة على اختلاساته . وفي ٥ سبتمبر أمر قائد مشاته حملة البنادق بالقبض عليه (وهذا القائد « mousquetaire » هو شارل دباتز ، السيد دارتنيان ، بطل قصة ديماس الأب) . وأصبحت

المحاكمة التى اتصلت ثلاث سنين أشهر القضايا فى تاريخ العهد . وكافحت مدام دسفينيه ، ولافونتين ، وغيرهما من أصدقاء فوكيه ، وتوسلوا إلى الملك ليبرئ ساحته ، غير أن الأوراق التى عثر عليها فى قصره الريفى أدانته . فحكمت عليه المحكمة بالنفى ومصادرة أملاكه ، وعدل الملك الحكم إلى السجن مدى الحياة . وظل الوزير الذى كان من قبل رجلا مرحا ، ستة عشر عاما ، يذوى فى سجنه بقلعة بنيرول بييدمونت ، ولا يسرى عنه إلا صحبة زوجه الوفية . لقد كان حكما قاسيا ، ولكنه قلم أظفار الفساد السياسى ، وأنذر الناس بأن الاستيلاء على الأموال العامة للمتعة الخاصة امتياز لا يختص به غير الملك .

٤ ـ كولبير يعيد بناء فرنسا

كتب لويس يقول : « لقد أشركت كولبير .. مفتشا مع فوكيه لكى أراقبه .. وهو رجل منحته ما استطعت من ثقة ، لأننى كنت عليما بذكائه وجده وأمانته(٥٠) » وظن أصحاب فوكيه أن كولبير تعقبه مدفوعا بالرغبة فى الانتقام منه ، ولعل كولبير استشعر شيئاً من الحسد للرجل ، ولكن فرنسا ذلك العهد لم تنجب ضريباً لكولبير فى تفانيه الدءوب فى خدمة الصالح العام . روى أن مازاران قال للملك وهو على فراش الموت « مولاى ، إنى مدين لك بكل شىء ، ولكنى أدفع دينى .. بإعطائك كولبير(٥١) » .

كان جان باتيست كولبير ابن قماش فى رامس ، وابن أخى تاجر غنى ، وإذ كان بورجوازيا بدمه ، اقتصاديا بمحيطه ، فقد درب على كراهية الفوضى والعجز ، وأعد بفطرته وبطول المرانة لتغيير اقتصاد فرنسا من جمود الفلاحة والتفتت الاقطاعى إلى نظام موحــد قومياً ، يشتمل الزراعة والصناعة والتجارة والمال ، يواكب ملكية ممركزة ، ويهيىء لها الأساس المادى لعظمتها وسطوتها

دخل كولبير ديوان الحربية سكرتيراً صغيراً فى العشرين (١٦٣٩) ومالبث أن شق طريقه بجهده إلى حيث استرعى نظر رؤسائه ، فنقل إلى خدمة مازاران ، وأصبح المدير الناجح لثروة الكردينال . فلما سقط فوكيه ، وكل إلى كولبير مهمة خطيرة هي إعادة تنظيم مالية الأمة . وفى ١٦٦٤ أضيفت إليه مهمة الإشراف على المبانى ، والمصانع الملكية ، والتجارة ، والفنون الجميلة ؛ وفى ١٦٦٥ عين مراقبا عاما للمالية ، وفى ١٦٦٩ عين وزيراً للبحرية ، ثم وزيراً للخاصة الملكية . ولم يرق رجل آخر فى عهد لويس الرابع عشر بمثل هذه السرعة ، ولا اشتغل بمثل هذه الهمة ، ولا حقق مثل ماحققه من أعمال . بيد أنه لوث ارتقاءه بمحاباته أقرباءه ، إذ أغدق الوظائف والأموال على الكثيرين من آل كولبير ، وغالى فى مكافأة نفسه مكافأة كادت تعدل ثروته . وكان نهبا للغرور ، يتشبث بانحداره المزعوم من ملوك اسكتلنده ، وقد يعبث عبثاً منكراً بالقوانين القائمة تعجلا لقضاء المصالح ، ويتغلب على المعارضة بالرشا يبذلها فى الجهات العليا . فلما استفحل سلطانه غدا مستبداً ، وأحفظ عليه النبلاء إذ داس على أقدام تنزف الدم الأزرق . وقد استخدم فى إعادة تشكيل الاقتصاد الفرنسى نفس الأساليب الدكتاتورية التى استخدمها ريشليو من قبل فى إعادة تشكيل الدولة الفرنسية . وهكذا لم يكن خيراً من هؤلاء الكرادلة .

بدأ بفحص أساليب الماليين الذين يجبون الضرائب ، ويزودون الجيش بالسلاح ، والملابس ، والطعام ، ويقدمون القروض للاقطاعيين أو لخزانة الدولة . وكان بعض هؤلاء المصرفيين يعدلون الملك ثراء . فبلغت ثروة صموئيل برنار مثلا ٣٣،٠٠٠،٠٠٠ جنيه(٥٢) . وقد أثار الكثيرون منهم حنق النبلاء بالزواج من طبقتهم ، وبشراء ألقاب الشرف أو اكتسابها ، وبالعيش فى ترف لايقوى عليه من لايملكون غير عراقة النسب . وكانوا يتقاضون فائدة على قروضهم تصل إلى ١٨٪ حسب درجة الشك فى الوفاء بالقروض . وبناء على طلب كولبير شكل الملك « غرفة عدالة » للتحقيق

فى جميع المخالفات المالية التى ارتكبت منذ ١٦٣٥، والتى اقترفها« أى شخص أيا كانت صفته أو حالته(٥٣) » وطلب إلى جميع موظفى الخزانة ، وجباة الضرائب ، وأصحاب الدخول أن يقدموا سجلاتهم ويبينوا شرعية مكاسبهم ، وفرض على كل منهم أن يثبت نظافة يده وإلا كان جزاؤه المصادرة وغيرها من العقوبات . وبثت الغرفة موظفيها فى طول فرنسا وعرضها وشجعت المخبرين . وأودع السجن عدة رجال أغنياء ، وأرسل البعض إلى مراكب تشغيل الأسرى ، وشنق البعض الآخر . وصعقت الطبقات العليا لهـذا « الأرهاب الكولبيرى » ، أما الطبقات الدنيا فصفقت له استحسانا . ونظم رجال المال فى برجنديا حركة تمرد على الوزير ، ولكن جماهير الشعب شهروا السلاح فى وجوههم ، ولقيت الحكومة عنتا فى إنقاذهم من غضب الشعب . ورد للخزانة نحو ٠٠٠ر٠٠٠ر١٥٠ من الفرنكات ؛ وخفف خوف العقاب فساد المالية جيلا كاملا(٥٤) .

ومضى كولبير يعمل منجل الوفر فى خزانة الدولة . فرفت نصف الموظفين فى وزارة المالية وأغلب الظن أنه هو الذى اقترح على لويس ما قام به من إلغاء جميع مناصب الخاصة الملكية التى تدفع عنها الرواتب دون أن يؤدى أصحابها واجبات . فطرد عشرون من « سكرتيرى الملك » ليكسبوا قوتهم بطريق آخر . وخفض تخفيضا قاسيا عدد المحامين العامين ، وضباط النظام ، والمستقبلين ، وغيرهم من صغار الموظفين فى البلاط الملكى . وأمر كل موظفى الخزانة بأن يمسكوا حسابات دقيقة واضحة ويقدموها للفحص . وحول كولبير جميع الديون الحكومية القديمة إلى ديون جديدة بسعر فائدة أقل . ثم بسط جباية الضرائب . ولما تبين صعوبة جمع المتأخرات أقنع الملك بالغاء كل الضرائب التى لم تسدد عن المدة ١٦٤٧ — ٥٨ . ثم خفض معدل الضريبة فى ١٦٦١ ، وحزن حين اضطر إلى رفعه ثانية فى ١٦٦٧ لكى يمول « حرب الأيلولة » وإسراف فرساى .

بيد أن أسوأ ما منى به من إخفاق كان فى احتفاظه بنظام الضرائب

القديم . ولعله لو قلبه من أساسه لأحدث من الاخلال بالنظام ما يهدد تدفق إيراد الدولة . ذلك أن الدولة كانت تمولها أساساً ضريبتان ـ التاى (الرءوس) والجابيل (الملح) . وكانت ضريبة التاى تقدر فى أقاليم من واقع الأملاك الحقيقية ، وفى غيرها على أساس الدخل . وقد أعفى منها الأشراف والكهنة ، فوقعت كلها على كواهل « الطبقة الثالثة » ـ التى تنتظم باقى السكان وكان يطالب إلى كل إقليم أن يجبى مبلغا محدداً ، ويسأل كبار المواطنين عن جباية المبلغ المقرر . أما الجابيل فضريبة على الملح . فقد احتكرت الدولة بيعه ، وألزمت جميع الرعايا أن يشتروا دوريا كمية مقررة بأسعار تحددها الحكومة . وإلى هاتين الضريبتين الأساسيتين أضيفت مختلف الرسوم الصغيرة ، وعشر محصول الفلاح الذى يجب أداؤه للكنيسة . على أن هذه الضريبة كانت عادة دون العشر بكثير (٥٥) ، وكانت تراعى الرأفة فى جبايتها .

وكانت الزراعة أقل المرافق تأثرا باصلاحات كولبير . إذ بقيت طرق الفلاحة بدائية جداً بحيث عجزت عن إعاشة عشرين مليونا من الأنفس يتكاثرون بغير حساب . وكان لكثير من الأزواج عشرون ولدا . ولولا الحرب ، والمجاعة ، والمرض ، وارتفاع نسبة الوفيات فى الأطفال ، لتضاعف السكان مرة كل عشرين سنة (٥٦) . ومع ذلك منح كولبير الاعفاءات الضريبية للزواج المبكر ، والمكافآت للأسر الكبيرة (ألف جنيه فرنسى للاباء إذا كان لهم أبناء عشرة ، وألفين إذا كانوا اثنى عشر ولدا (٥٧) . وذلك بدلا من أن يعمل على زيادة خصوبة التربة . وقد احتج على تكاثر الأديار لأنه يهدد القوى البشرية لفرنسا (٥٨) . على أن نسبة المواليد فى فرنسا انخفضت رغم ذلك خلال حكم لويس ، لأن الحرب زادت الضرائب وعمقت الفقر . ولم يكن حتى فى هذه الحال ، لم تقتل الحرب ما يكفى لحفظ التوازن بين المواليد والطعام ، وكان على الطاعون أن يتعاون مع الحرب . وكان نقص المحصول سنتين متعاقبتين كفيلا بإحداث المجاعة ، لأن وسائل النقل لم ترق بحيث تستطيع بكفاية سد العجز فى إقليم من الفائض فى آخر . ولم تخل سنة من مجاعة فى

مكان ما بفرنسا(٥٩) وكانت السنوات ١٦٤٨ ـ ٥١ ، ١٦٦٠ ـ ٦٢ ، ١٦٩٣ ـ ٩٤ ، و ١٧٠٩ ـ ١٠) فترات انتشر فيها الرعب من الموت جوعا ، حين بلغت نسبة الموتى من السكان فى بعض الأقاليم ثلاثين فى المائة . وفى ١٦٦٢ استورد الملك القمح وباعه للفقراء بثمن بخس أو وهبه لهم وأعفاهم من ثلاثة ملايين فرنك من الضرائب المستحقة (٦٠) .

وخفف التشريع بعض مآسى الريف ، إذ حظر الاستيلاء على بهائم الفلاح أو عرباته أو أدواته وفاء للدين ولو كان دينا للتاج . وأنشئت مزارع للاستيلاد تتعهد أفراس الفلاح مجانا ، ومنع الصيادون من اختراق الحقول المبذورة بالحب ، وقدمت الاعفاءات الضريبية لمن يصلحون الأراضى المهجورة ويزرعونها . ولكن هذه الملطفات ما كانت لتنفذ إلى صميم المشكلة — مشكلة اختلال التوازن بين خصوبة الإنسان وخصوبة التربة ، والافتقار إلى الاختراعات الآلية . على أن فلاحى أوربا على بكرة أبيهم كانوا يلقون مثل هذا العنت ، ولعل الفلاحين الفرنسيين كانوا أيسر حالا من نظرائهم فى انجلترا أو ألمانيا (٦١).

لقد ضحى كولبير بالزراعة قربانا للصناعة ولكى يطعم سكان المدن المتكاثرين ، وجيوش الملك المتعاظمة ، حظر رفع سعر الغلال بما يتناسب وغيرها من الخامات . وكان من الأوليات عنده أن على الحكومة التى تبتغى القوة أن تملك موارد كافية وجيشا من الجند الأشداء المجهزين تجهيزا حسنا ، فطبقة الفلاحين المتمرسة بالمشاق تزود البلاد بعشاة أقوياء ، والصناعة والتجارة الناميتان لا بد أن توفرا الثروة والأدوات . ومن هنا كان هدف كولبير الذى لم ينثن دونه هو أن يشجع الصناعة ، لا بل إن التجارة يجب إخضاعها لهذا الهدف ، فلا بد أن تحمى الصناعات الوطنية بالرسوم الجمركية التى تبعد المنافسة الخطرة من خارج البلاد . وجريا على السياسات الاقتصادية التى انتهجها صلى وريشليو ، أخضع كولبير جميع الصناعات الفرنسية — إلا أقلها شأنا — لسيطرة الدولة النقابية : فكانت كل صناعة ، بطوائفها ، وماليتها

ومعلميها ، وصبيتها ، وعمالها اليوميين ، تؤلف نقابة تنظمها الحكومة من حيث المعاملات ، والأسعار ، والأجور والبيوع . وأرسى المعايير الرفيعة لكل صناعة أملا فى كسب الأسواق الأجنبيه بجودة التصميم والصقل فى المنتجات الفرنسية . وقد آمن هو ولويس بأن التذوق الأرستقراطى للاناقة يدعم الحرف الكمالية ويحسنها ، ومن ثم وجد الصاغة ، والنقاشون ، وتجارو الأثاث ، ونساجو الأقمشة المرسومة ، كلهم وجدوا العمل والحافز والصيت البعيد .

وأمم كولبير مصنع جوبلان فى باريس تأميما تاما ، وجعله نموذجا فى الأسلوب والتنظيم . وشجع المشروعات الجديدة بالاعفاءات الضريبية ، والقروض التى تمنحها الدولة ، وخفض سعر الفائدة إلى ٥٪ ، وسمح باحتكار الصناعات الجديدة إلى أن ترسخ أقدامها . وقدم الحوافز لمهرة الصناع الأجانب حتى يجلبوا مهاراتهم إلى فرنسا ، فاستوطن صناع الزجاج البنادقة فى سان ـ جوبان ؛ وجلب صناع المشغولات الحديدية من السويد ؛ وأنشأ بروتستانتى هولندى فى أبفيل صناعة القماش الرفيع بعد أن كفل له حرية العبادة ورأس المال الذى اقرضته إياه الدولة . فما وافى عام ١٦٦٩ حتى بلغ عدد الأنوال فى فرنسا ٤٤,٠٠٠ ، وكان فى تور وحدها ٢٠,٠٠٠ نساج . وقد زرعت فرنسا أشجار توتها ، وكانت آنئذ مشهورة بأقمشتها الحريرية . وتضاعفت مصانع النسيج لتلبى حاجة جيوش لويس الرابع عشر المتزايدة . وهكذا اتسعت الصناعات الفرنسية سريعا بفضل هذه الحوافز . وأنتج الكثير منها لسوق قومية أو دولية ، وبلغ بعضها مرحلة رأسمالية فى الاستثمار ، والتجهيز ، والإدارة . وصادفت رسالة التصنيع التى آمن بها كولبير هوى فى نفس الملك ، فتفقد الورش ، وسمح بأن تختم المنتجات الفاخرة بخاتم السلاح الملكى ، ورفع من قدر رجال الأعمال الاجتماعى ، وخلع ألقاب الشرف على كبار المقاولين .

وشجعت الدولة التعليم العلمى والتقنى أو وفرته للشعب . وغدت الورش

فى اللوفر ، والتويلرى ، ومصانع الجوبلان ، وأحواض سفن البحرية ، مدارس يتتلمذ فيها الصبية من الصناع . وسبق كولبير موسوعة ديدرو ، إذ احتضن موسوعة للفنون والحرف ، ووصفا مصوراً لكل الآلات المعروفة(٦٢). ونشرت أكاديمية العلوم بحوثاً عن الآلات والفنون الميكانيكية ، وسجلت « صحيفة العلماء » تقنيات صناعية جديدة . وقد أخذ العجب بيرو – وهو يبني الواجهة الشرقية للوفر – حين رأى آلة ترفع كتلة من الحجر تزن ١٠٠٫٠٠٠ كيلو (١٠٠٫٩ طن) (٦٣). على أن كولبير عارض إدخال الآلات التي ينجم عنها تعطل العمال (٦٤).

وإذ كان شديد الولع بالنظام والكفاية ، فقد أمم تنظيم الصناعة بوساطة الكومونات أو الطوائف الصناعية . وتوسع فى هذا التنظيم توسعاً أوشك أن يكون خانقاً . وراحت مئات من الأوامر تصف أساليب الصناعة ، وحجم المنتجات ولونها ونوعها ، وساعات العمل وظروفه ؛ وأنشئت اللجان فى جميع قاعات المدن لفحص العيوب فى إنتاج الحرف والمصانع المحلية . وعرضت علانية عينات من الصنعة المعيبة وإلى جوارها اسم الصانع أو المدير . فإذا عاد المخالف إلى مخالفته وبخ فى اجتماع للطائفة فإن عاد ثالثة شد إلى عمود تشهيراً به وتنكيلا(٦٥). وشغل كل ذكر قادر على العمل ، وجند الأيتام من ملاجئهم ليخدموا فى المصانع ، وأخذ المتسولون من الشوارع إلى المصانع ، وقال كولبير للملك فى اغتباط إنه حتى الأطفال يستطيعون الآن كسب بعض المال فى المصانع .

وأخضع العمال لنظام يقرب من النظام العسكرى . فالكسل وعدم الكفاية ، والشتم ، والأحاديث النابية ، والعصيان ، والسكر ، والاختلاف إلى الحانات ، ومعاشرة الخليلات ، وعدم الخشوع فى الكنيسة – كل أولئك يجب أن يعاقبه رب العمل ، وبالجلد أحياناً . أما ساعات العمل فطويلة – وقد تبلغ اثنتى عشرة أو أكثر تتخللها فترات من ثلاثين أو أربعين دقيقة لتناول الطعام . وأما الأجور فضئيلة ، يدفع جزء منها أحياناً سلماً يحدد

رب العمل أسعارها . وقد حسب فوبان متوسط الأجر اليومى الذى يتقاضاه مهرة الصناع فى المدن الكبيرة فكان اثنى عشر سوا (ثلاثين سنتا) فى اليوم ، ولكن السو الواحد كان يشترى رطلا من الخبز(٦٦) . واختزلت الحكومة عدد أيام الأعياد الدينية التى تعفى العمال من العمل ، وبقى من هذه العطلات ثمانية وثلاثون يوما ، فكان مجموع أيام الراحة فى السنة تسعين(٦٧) . وحرمت الاضرابات ، وحظرت اجتماعات العمال لتحسين أحوالهم ، وقد سجن بعض العمال فى روشفور لأنهم شكوا ضآلة أجورهم . ونمت ثروة طبقة رجال الأعمال ، وارتفعت موارد الدولة ، ولكن لعل حال العمال كانت على عهد لويس الرابع عشر أسوأ منها فى العصور الوسطى(٦٨) . لقد أخضعت فرنسا للنظام الصارم فى الصناعة كما أخضعت فى الحرب .

أما فى مجال التجارة ، فقد آمن كولبير كما آمن معظم رجال الدولة فى جيله بأن اقتصاد الأمة ينبغى أن ينتج أقصى ما يمكن من ثروة واكتفاء ذاتى داخل الأمة ، وأنه ما دام الذهب والفضة عظيمى القيمة بوصفهما وسيطين فى المبادلة ، فلا بد من تنظيم التجارة بحيث تكفل للامة « توازنا تجاريا فى صالحها » أى زيادة فى الصادرات على الواردات ، ومن ثم تدفقا للفضة والذهب إلى البلاد . وبهذه الطريقة وحدها استطاعت فرنسا ، وانجلترا ، والأقاليم المتحدة — وكلها لم تكن تربتها تحوى ذهبا ، أن تحصل على حاجاتها ، وأن تمون جيوشها من الحرب . وهذه هى « المركنتلية » mercantilism ومع أن بعض الاقتصاديين سخروا منها ، فقد كان وسوف يكون هناك الكثير من المبررات لها فى عصر كثير الحروب . ولقد طبقت على الأمة نظام التعريفات والترتيبات الحامية التى كانت فى العصور الوسطى تطبق على الكومون . ونمت وحدة الحماية حين حلت الدولة محل الكومون وحدة للانتاج والحكم . إذن فبمقتضى نظرية كولبير يجب أن تكون أجور العمال منخفضة تمكينا لمنتجاتهم من أن تنافس نظيرها فى الأسواق الأجنبية وبذلك تجلب الذهب إلى البلاد ، ويجب أن يكون جزاء أرباب العمل وفيرا

حفزا لهم على الاضطلاع بالمشروعات الصناعية لصنع السلع ، لاسيما الكماليات ، التى لا نفع لها فى الحرب ولكن يمكن تصديرها بتكلفة قليلة لقاء عائد كبير ، ثم يجب أن تكون أسعار الفائدة منخفضة إغراء للمقاولين باقتراض رأس المال . وهكذا نرى طبيعة التنافس التى فطر عليها الإنسان ، فى تلك الغابة التى لا تخضع لقانون والتى تصطرع فيها الدول ، قد كيفت اقتصادها الوطنى وفق فرص الحرب وحاجاتها . فالسلام ليس إلا حربا بوسائل أخرى .

إذن فوظيفة التجارة فى رأى كولبير (بل فى رأى صلى وريشليو وكر وموبل أيضاً) تصدير السلع المصنوعة نظير المعدن النفيس أو الخامات . ومن ثم نراه فى ١٦٦٤ ، ثم فى ١٦٦٧ ، يرفع الرسوم على الواردات التى هددت بأن تنافس فى فرنسا منتجات الصناعات الوطنية المعتبرة ضرورية فى الحرب ، فلما استمر جلب هذه الواردات حظرها بتاتا . وفرض رسوم تصدير باهظة على المواد الضرورية ، ولكنه خفض الضريبة على تصدير الكماليات .

ثم حاول تحرير التجارة الوطنية من المكوس الداخلية . وقد وجد أن التجارة الفرنسية تعترض سيرها المعوقات من الحواجز والتعريفات الاقليمية والبلدية والعزبية . من ذلك أن السلع المنقولة من باريس إلى المانش ، أو من سويسرة إلى باريس ، كانت تدفع عنها مكوس عند ست عشرة نقطة ، ومن أورليان إلى نانت عند ثمان وعشرين . وربما كان هناك مبرر لهذه المكوس يوم كان كل إقليم يطمح إلى الاكتفاء الذاتى ويجاهد فى حماية صناعاته ، وذلك بسبب صعوبات النقل واحتمالات الصراع الإقطاعى أو تنازع الكومونات . أما وقد توحدت فرنسا سياسياً الآن ، فقد غدت هذه المكوس الداخلية عقبة كؤودا فى طريق الاقتصاد القومى وحاول كولبير بمرسوم أصدره فى ١٦٦٤ أن يلغى جميع المكوس الداخلية . ولكن المقاومة كانت عنيدة ، ففى نصف فرنسا استمرت المكوس ، وظل بعضها إلى عهد الثورة الفرنسية وكان أحد أسبابها الصغيرة . وكاد كولبير أن يقضى على

الجهد الذي بذله للتوسع التجاري بإصداره اللوائح المعقدة التي استهدفت إصلاح مافسد ولكنها عرقلت التجارة إلى حد تعطيلها أحيانا . قال (هو أو أحد نقاده) « أن الحرية روح التجارة ، فعلينا أن نترك الناس ليختاروا أنسب الطرق لهم » .

(Il faut Laisser faire les hommes) (٦٩) ،هنا عبارة قدر لها أن تصنع التاريخ .

وقد جاهد ليفتح مسالك جديدة للنقل الداخلي . فبدأ مجموعة من الطرق الرئيسية الملكية ، وكانت حربية في هدفها الأول ؛ ولكنها كانت إلى ذلك نعمة على التجارة عامة . كان السفر بالبر لا يزال شاقا بطيئا . مثال ذلك أن مدام دسفينيه استغرقت ثمانية أيام في رحلة بالمركبة من باريس إلى ضيعتها في فيتريه ببريتاني وبناء على اقتراح من بيير بول دريكيه، استخدم كولبير اثني عشر ألف رجل في حفر قناة لانجدوك الكبرى ، التي بلغ طولها ١٦٢ ميلا ، وارتفعت أحيانا إلى ٨٣٠ قدما فوق سطح البحر ، ولم يحل عام ١٦٨١ إلا وقد اتصل البحر المتوسط بخليج بسكاي عن طريق الرون والقناة والجارون ، واستطاعت تجارة فرنسا أن تتجنب المرور بالبرتغال وأسبانيا .

وكان كولبير ينظر بين الحسد إلى الهولنديين الذين ملكوا خمسة عشر ألف سفينة تجارية من بين الآلاف العشرين التي تمخر العباب ، على حين لم تملك فرنسا منها سوى ستمائة . ومن ثم بني شيئا فشيئا البحرية الفرنسية حتى بلغت سفنها ٢٧٠ بعد أن كانت لا تتجاوز العشرين ، وأصلح المرافيء وأحواض السفن ، وألزم الرجال في غير هوادة بالانخراط في سلك البحرية ، ونظم أو أصلح الشركات التجارية بجزر الهند الغربية ، والشرقية ، وبحر المشرق ، والبحار الشمالية . ومنح هذه الشركات امتيازات الحماية ، ولكن هنا أيضاً عطلتها اللوائح التي فرضها عليها تعطيلا مدمرا . ومع ذلك نمت التجارة الخارجية ، ونافست البضائع الفرنسية للمنتجات الهولندية أو الإنجليزية في البحر الكاريبي ، والشرق الأدنى ، والأوسط ، والأقصى . وغدت مارسيليا

أكبر ثغور البحر المتوسط بعد ما أصابها من اضمحلال لقلة السفن الفرنسية. وبعد عشر سنين من الخبرة والتشاور والعمل الشاق أصدر كولبير (١٦٨١) قانونا بحريا للسفن والتجارة الفرنسيتين، ما لبثت الأمم الأخرى أن طبقته. ثم نظم التأمين على الرحلات التجارية الخطرة وراء البحار. وبارك اشتراك فرنسا فى تجارة الرقيق، ولكنه جاهـــد ليلطف من قسوتها باللوائح الرحيمة(٧٠).

وقد شجع الارتياد الجغرافى وإنشاء المستعمرات، أملا فى أن يبيعها السلع المصنوعة نظير خاماتها، ويستخدمها روافد لبحرية تجارية قد تكون ذات نفع فى الحرب. وكان المستعمرون الفرنسيون منتشرين فعلا فى كندا، وغرب أفريقيا، وجزر الهند الغربية، وفى طريقهم إلى داخل مدغشقر، والهنـــد، وسيلان. وارتاد كورسيل وفونتناك البحيرات العظمى (١٦٧١ — ٧٣). وأسس كادياك مستعمرة فرنسية كبيرة فيما هو الآن ديترويت. واستكشف لاسال المسسبى فى ١٦٧٢ (بعد أن منح احتكار تجارة الرقيق فى الأقاليم التى يفتحها)، وهبط فيه فى مركب هزيل، فوصل إلى خليج المكسيك بعد شهرين من رحلة حافلة بالمغامرات. واستولى على الدلتا وأطلق عليها اسم الملك. فسيطرت فرنسا على واديى السانت لورنس والمسسبى فى قلب أمريكا الشمالية.

جملة القول — ونحن لم نسجل غير جزء من نشاط كولبير، وقد أغفلنا الحديث عن جهوده فى سبيل العلم والأدب والفن — أن حياة هذا الرجل كانت من أعظم ما سجله التاريخ تفانيا فى العمل وسعة فى الإنتشار. فلم يعرف الناس منذ شارلمان ذهنا واحدا مثل ذهنه صنع من جديد على هذا النحو دولة بهذه العظمة فى نواح بهذه الكثرة. صحيح أن هذه اللوائح والنظم كانت مزعجة، وقد نفرت الناس من كولبير، ولكنها شكلت القالب الاقتصادى لفرنسا الحديثة. ولم يفعل نابليون أكثر من مواصلة جهود

كولبير ومهاجمتها سواء فى الحكم أو القانون . وعرفت فرنسا طوال عشر سنوات من الثراء مالم تعرفه من قبل . ثم انحسر هذا الثراء لعيوب النظام، وأخطاء الملك . وقد احتج كولبير على أسراف الملك والبلاط ، وعلى آفة الحرب التى كانت تنحر فى جسد فرنسا فى شيخوخته ، ولكن التعاريف العالية التى فرضها ، شأنها فى هذا شأن ولع لويس بالسطوة والمجد — هى التى التى أفضت إلى بعض هذه الحروب . وندد غرماء فرنسا البحريون بإقفال موانيها فى وجه بضائعهم . ووقع على كواهل الفلاحين ومهرة الصناع عبء اصلاحات كولبير ، بل أن رجال الأعمال الذين أثرتهم هذه الاصلاحات اتهموه بأن لوائحه عوقت التطور . قال أحدهم للوزير « لقد وجدت العربة مقلوبة على أحد جنبيها ، فقلبتها على الآخر » (٧١) فلما مات (فى سبتمبر ١٦٨٣) رجلا محطما مهزوما ، اضطر ذووه إلى دفن جثمانه ليلا مخافة أن يسبه الناس فى الشوارع(٧٢) .

٥ - الآداب والأخلاق

كان العهد عهد الآداب الصارمة والأخلاق المنحلة . وكان اللباس شعيرة للمركز الاجتماعى . فهو فى أوساط القوم غاية فى البساطة — سترة سوداء تغطى فى تواضع القميص والسراويل والسيقان . أما فى الصفوة فهو بهى فاخر ، وهو فى الرجال أبهى وأفخر منه فى النساء . فكانت القبعات كبيرة لينة ، لها حاشية عريضة مزركشة بجديلة من ذهب ، تمال إلى أعلى فى جانب أو ثلاثة جوانب ، وتختال بحزمة من الريش يضمها مشبك معدنى . وحين ارتقى لويس العرش نبذ — ونبذ من بعده البلاط — تلك الباروكات التى أشاع زيها أبوه الأصلع ، فقد كانت تلافيف شعر للملك الشاب الكستنائى أروع وأبهى من أن تخبأ ، ولكن حين بدأ شعره ينحل بعد ١٦٧٠ ، اتخذ الشعر المستعار ، وما لبث أن توج كل رأس - أيا كان طموح حامله - وسواء فى فرنسا أو انجلتره أو ألمانيا ، بعقوص مستعارة مبدرة تنسدل

إلى الكتفين أو ما تحتهما، وتجعل كل الرجال يبدون سواسية إلا لضخامتهم. أما اللحى فحلقت، وأما الشوارب فاحتفل بها، ومدت القفازات إلى مافوق الرسغ وزينت، وارتدى الجنسان فراء اليدين في الجو البارد. واستعيض عن طوق الرقبة المكشكش العالي بلفاع حريري يعقد هينا حول العنق. وأخذ يحل محل الصدرة ثوب طويل مزخرف، وزين الفخذان بسراويل «كيلوت» تمتد إلى الركبتين وتقفل بعشابك أو تعقد بأشرطة عندهما، ثم تغطى هذه الثياب — إلا من أمام — بسترة ملتفة تنتهي أكمامها بأساور واسعة تحف بها حاشية من الدنتللا. واختص القانون النبلاء بتحلية ثيابهم بوشي من الذهب أو بالأحجار الكريمة، ولكن ذوي اليسار من أي طبقة تجاهلوا هذا القانون. أما الجوارب الطويلة فكانت مادة من الحرير، وكان الذكور يلبسون الأحذية الطويلة الرقبة حتى لحفلات الرقص.

أما النساء المهذبات فكانت ثيابهن فضفاضة منسدلة تتفق وفضائلهن. وكانت صدارتهن ذات أربطة ولكن من أمام كما ناشدهن بانورج في كتاب رابليه، فكانت النهود البارزة تثب للعيون البصاصة. وأما التنورة المطوقة والأكمام المنفوخة فولت مع ريشليو. وحفلت الأرواب بالتطريز والألوان المشرقة، وكست الأحذية العالية المبهجة الأقدام المتعبة، وربط الشعر بالأشرطة، ورصع، وعطر، وجعد، في تأنق. . وظهرت أولى مجلات الأزياء في ١٦٧٢.

أما آداب السلوك فكان طابعها الجلال والفخامة، وإن بقيت جلافات كثيرة تحت أبهة القبعة المرفوعة للتحية والثوب الجرار. فكان الرجال يبصقون على أرض الحجرة، ويبولون على سلم اللوفر(٧٣)، وقد ينقلب المزاح وحشيا أو بذيئا. ولكن الحديث كان رشيقا مهذبا، ولو دار حول الفسيولوجيا والجنس. وكان الرجال يأخذون عن النساء آداب السلوك

والحديث ، فيتكلمون فى عبارة واضحة سليمة ، ويتنكبون الحشو والحذلقة ، ويتناولون جميع الموضوعات مهما اشتد عمقها بمرح خفيف روحا وعبارة . وكان الاحتداد فى الجدل من سوء الأدب . وأما آداب المائدة فأخذت تتحسن . كان الملك يأكل بأصابعه طوال حياته ، ولكن استعمال الشوك كان قد راج . وشاع استعمال نحو ١٦٦٠ فوطة للمائدة . ولم يعد من المستساغ أن يمسح الضيوف أصابعهم فى غطاء المائدة .

أما الفضائل الإجتماعية فلم تكن ممتازة فى هذا العصر — عصر الاتيكيت والبروتوكول . وتضاءل الإحسان بازدياد ثراء الطبقات العليا . وكانت الأخلاق أسلم ما تكون فى الطبقات الوسطى حيث يسر الشعور بالأمن حسن السلوك ، وحفزته الرغبة فى الارتقاء . وكان المثل الأعلى عند جميع الطبقات هو L'honnête homme وليس المقصود بالعبارة الرجل الأمين ، بل الرجل الشريف ، الذى يجمع بين كرم النشأة والعادات وبين حسن السلوك . أما الأمانة فقلما كان يتوقعها القوم من إنسان . فقد استشرت الرشوة فى المناصب على الرغم من لوائح كولبير ونظام الجاسوسيه الملكى ، وشجع عليها بيع الوظائف الحكومية مصدرا من مصادر إيراد الدولة . وانبعثت الجريمة من جشع الأغنياء ، وفقر الفقراء ، والتفجرات الغاضبة فى جميع الطبقات . وآية ذلك أن من السيدات العريقات النسب من أفدن من خدمات كاترين مونفوازان أو المركيزة برانفلييه ، وكلتاهما حذقت تحضير السموم الطويلة المفعول ، وشاع القتل بالسم شيوعا اقتضى إنشاء محاكم خاصة لتفصل فى قضاياه(٧٤) . أما كاترين مونفوازان فقد مارست الطب ، والتوليد ، والسحر ، وساعدت كاهنا مرتداً فى ترتيل « القداس الأسود » التماسا لمعونة الشيطان ، وكانت تدبر اجهاض النساء وتبيع السموم وأشربة الغرام . ومن زبائنها أوليمب مانتشيني ، ابنة أخت مازاران ، والكونتيسة جرامون ، ومدام دمونتيسبان خليلة الملك وفى ١٦٧٩ فحصت لجنة نشاط «لافوازان» ووجدت الأدلة على اشتراك العدد العديد من كبار أفراد الحاشية ، الأمر

الذى حدا بلويس إلى حظر إذاعة التحقيق[٧٥] . وأحرقت لافوازان حية (١٦٨٠) .

ويدخل فى أخلاق الأفراد انحرافاتهم العادية . وقد نص القانون على عقاب اللواط بالإعدام ، وما كانت أمة تتخذ أهبتها للحرب ، وتدفع الإعانات على الأطفال ، لتسمح بانحراف الغرائز الجنسية عن جادة الإنسال ، ولكن مطاردة أمثال هؤلاء المنحرفين كانت عسيرة فى وقت كان فيه شقيق الملك لوطيا يشار إليه بالبنان ، يأنف القوم من ازدرائه ولكنهم يرونه فوق القانون . أما الحب بين الجنسين فقد تقبلوه على أنه تخفف رومانسى من أعباء الزواج ، لامبرر يدعو للزواج . وقد رأوا أن اقتناء الثروة ، أو حمايتها ، أو نقلها ، أهم فى الزواج من محاولة الإبقاء على عواطف الساعة العابرة طوال العمر ولما كانت معظم زيجات الطبقة الارستقراطية لاتعدو أن تكون ترتيبات لتنظيم الملكية ، فان المجتمع الفرنسى أغضى عن التسرى ، فكان لكل قادر تقريبا خليلة ، وكاد الرجال يفاخرون بغرامياتهم مفاخرتهم بمعاركهم الحربية . أما المرأة فتشعر أنها مهجورة منبوذة إذا لم يلاحقها من الرجال سوى زوجها ، وكان بعض الخائنين من الأزواج يغضون عن خيانات زوجاتهن . يقول شخص فى مسرحية لموليير : « أفى الدنيا كلها بلد آخر يبلغ فيه صبر الأزواج مبلغه فى هذا البلد[٧٦] ؟ » فى هذا المناخ الكلبى نشأت أمثال لاروشفوكو وكان القوم يحتقرون البغاء إذا تجرد من الكياسة ، ولكن امرأة كنينون دلانكلو ، جملته بالأدب والظرف ، استطاعت أن تحظى بشهرة تدانى شهرة الملك .

كان أبوها نبيلا حر الفكر ، ومبارزا بارعا . وكانت أمها شديدة الحرص على الفضيلة ، ولكنها (إذا صدقنا ابنتها) « مجردة من مشاعر الحس .... وقد ولدت ثلاثة أطفال وهى لاتكاد تلحظ الأمر[٧٧] » . ومع أن نينون لم يتح لها التعليم المنهجى ، فإنها التقطت من المعارف قدرا

لايستهان به ، فتعلمت الكلام بالإيطالية والأسبانية ، وربما لتستمتع بهما في هذه التجارة الدوليه ، وقرأت مونتيني وشارون ، بل قرأت ديكارت ، وأخذت عن أبيها تشككه . وقد جملت مناقشتها حول الدين في فترة لاحقة مدام دسفينييه ترتعد(٧٨) . قالت نينون « إذا احتاج إنسان إلى دين ليسلك في هذه الدنيا كما ينبغي ، فتلك علامة إما على ضيق عقله ، أو على فساد قلبه» (٧٩) . وكان من الجائز أن تخلص من ذلك إلى ضرورة الدين لجميع الناس تقريبا ، ولكنها بدلا من هذا انزلقت إلى البغاء وهي لاتتجاوز الخامسة عشرة (١٦٣٥) . وقالت في استهتار « إن الحب عاطفة لاتنطوي على أي التزام خلقي(٨٠) » فلما خلعت العذار وجهرت بفوضاها الجنسية ، أمرت آن النمساوية بحبسها في دير للنساء . وروى أنها فتنت راهبات الدير بظرفها وحيويتها ، واستمتعت بحبسها كأنها فرصة للاستجمام . وفي ١٦٥٧ أفرج عنها بأمر الملك .

لقد كان فيها ما هو أكثر كثيراً من مجرد الحظية ، حتى إنها سرعان ما ضمت إلى لفيف المعجبين بها عدداً كبيراً من أبرز الرجال في فرنسا ، ومنهم نفر من الحاشية(٨١) ، من الملحن لولي إلى كونديه العظيم ذاته . وكانت تجيد العزف على الهاربسيكورد ، وتحسن الغناء ، يقصدها لولي ليجرب ألحانه الجديدة . وقد حوت قائمتها ثلاثة أجيال من آل سفينييه — زوج كاتبة الرسائل اللطيفة ، وابنها ، وحفيدها(٨٢) . وأقبل الرجال من خارج فرنسا يلتمسون ودها . قالت « لم يتشاجر على عشاق قط ، فقد كانوا يثقون في قلبي ، وكان كل منهم ينتظر دوره(٨٣) » .

وفي ١٦٥٧ افتتحت صالونا ، ودعت إليه رجال الأدب والموسيقى والفن والسياسة والحرب ، وأحيانا زوجاتهم ، وأذهلت باريس بما أبدت من ذكاء لا يقل عن ذكاء أي امرأة في جيلها أو ذكاء أكثر الرجال ، فلقد طالعهم فيها عقل مينيرفا من خلف وجه فينوس . يقول فيها قاض صارم هو سيان — سيمون :

« كان من المفيد لإنسان أن تستقبله في صالونها نظراً إلى الاتصالات التي يكونها من هذا الطريق . ولم يدر في صالونها أي لعب للقمار ، ولا ضحك عال ، ولا مجادلات ، ولا حديث في الدين أو السياسة ، بل دار الكثير من الحديث الذكي الرشيق .. وأنباء الغرام ، ولكن دون فضح أو تشهير . كان كله حديثا مهذبا خفيفا محسوبا ، وكانت هي نفسها تغذو الحديث بذكائها وعلمها الغزير(٨٤) » .

وأخيراً أثارت فضول الملك نفسه ، فطلب إلى مدام دمانتينون أن تدعوها إلى القصر ، واستمع إليها من وراء ستار ، فافتتن بها ، وكشف لها عن وجوده وقدم نفسه إليها . وكانت في هذه الفترة (١٦٧٧ ؟) قد كسبت ما يشبه الاحترام ، وخلعت عليها أمانتها البسيطة وأياديها الكثيرة سمعة أشرف ، فكان الرجال يودعون لديها المبالغ الكبيرة مطمئنين ، واثقين دائما من إمكان استردادها حين يشاءون ، ولاحظت باريس كيف كانت نينون تزور الشاعر سكارون كل يوم تقريبا حين أقعده الشلل ، وكيف كانت تأتيه بأطايب الطعام التي يعجز عن دفع ثمنها .

ولقد عمرت بعد أصدقائها كلهم تقريباً ، حتى سانت إفريمون التسعيني ، الذي كانت رسائله التي يبعث بها من انجلترا عزاء لشيخوختها . كتبت له تقول : أحياناً أضيق بعمل نفس الأشياء دائما ، ويعجبني السويسريون الذين يلقون بأنفسهم في النهر لهذا السبب(٨٥) . » وكانت تضيق بالتجاعيد . « إذا كان لزاما أن يبتلي الله المرأة بالغضون ، فأولى به على الأقل أن يضعها على باطن قدمها(٨٦) » . فلما دنت منيتها ، تنافس اليسوعيون والجانسنيون على شرف هدايتها للإيمان ، فاستسلمت لهم في لطف ، وماتت في أحضان الكنيسة (١٧٠٥) (٨٧) . ولم تترك في وصيتها سوى عشرة إيكوات لجنازتها ، حتى تكون أبسط ما يستطاع ، ولكن « أطلب في تواضع إلى المسيو آرويه » — وهو وكيلها — « أن يسمح لي بأن أترك لابنه ، الذي

يتلقى العلم عند اليسوعيين ، ألف فرنك ليشترى بها كتبا(٨٨) » . واشترى الابن الكتب ، وقرأها ، وأصبح فولتير .

إن أروع السحر الذى توج هامة المجتمع الفرنسى هو أن حافز الجنس امتد إلى الذهن ، وأن النساء تنبهن ليضفن الذكاء إلى الجمال . وأن الرجال روضهن النساء على السلوك المؤدب ، والذوق السليم ، والحديث المهذب ، وفى هذا كان القرن (الممتد من ١٦٦٠ إلى ١٧٦٠) فى فرنسا أوج الحضارة . فى ذلك المجتمع كثرت النساء الذكيات كثرة لم تعهد من قبل ، فإذا جمعن إلى الذكاء فتنة الوجه أو الجسد ، أو سحر الاهتمام الناشىء عن الرقة واللطف ، أصبحن قوة تهذيب عارمة . وكانت الصالونات تدرب الرجال على الحساسية لرقة الأنثى ، والنساء على التجاوب مع عقل الذكر . وفى هذه اللقاءات طور فن الحديث حتى بلغ شأوا لم يبلغه من قبل ولا من بعد — فن تبادل الأفكار دون مغالاة أو خصومة ، بل فى مجاملة ، وتسامح ، ووضوح ، وخفة ، ورشاقة . ولعل هذا الفن كان أقرب إلى الكمال فى عهد لويس الرابع عشر منه فى أيام فولتير — أقل ألمعية وظرفا ، ولكن أكثر مادة ومودة . كتبت مدام دسفينيه إلى ابنتها تقول « بعد الغداء مضينا إلى السمر فى ألطف غابات الدنيا ، وظللنا هناك إلى السادسة ، مشتغلين بمختلف ألوان الحديث ، البالغ العطف ، والرقة ، واللطف ، والكرم ، مما مس شغاف قلبي(٨٩) » وقد عزا كثير من الرجال الفضل فى تسعة أعشار تعليمهم إلى مثل هذا التبادل والاتصال الاجتماعى بين الجنسين (٩٠) .

وفى الغرفة الزرقاء بالأوتيل درامبوييه كان أول الصالونات يسطع ببهائه الأخير . أمه كونديه وإن لم يلمع فيه ، وأمه كورنيى ، ولاروشفوكو ، والسيدتان لافاييت ودسفينيه ، ودوقة لونجفيل ، والجراند مدموازيل . هناك أرست النساء المتحذلقات les femmes précieuses قواعد السلوك الدقيق والحديث المصقول . ولكن حرب الفروند قطعت هذه اللقاءات ، ورحلت مدام درامبوييه إلى الريف ، ومع أن « أوتيلها » (قصرها) فتح بعد

ذلك أبوابه ثانية لعبقرى فرنسا (موليير) ، فإن باكورة تمثيلياته Les Précieuses ridicules (المتحذلقات المضحكات) (١٦٥٩) كانت ضربة قاضية عليه . وطوى أول الصالونات المشهورة بموت مؤسسته فى ١٦٦٥ .

وواصلت هذا التقليد صالونات أخرى ، فى بيوت السيدات دلا سابليير ، ودلامبير ، ودسكوديرى — وآخرهن أشهر كتاب الرواية فى هذا العصر ، وأولاهن امرأة جذبت الرجال بحسنها رغم حبها للفيزياء ، والفلك ، والرياضة ، والفلسفة . فى صالونات كهذه زكت النساء العالمات femmes savantes اللائى أثرن سخرية موليير فى ١٦٧٢ . ولـكن كل هجاء ليس إلا نصف الحقيقة ، ولعل موليير فى لحظاته الفلسفية كان يقر بحق النساء فى أن يشاركن فى حياة جيلهن الفـكرية . فنساء فرنسا ، أكثر حتى من كتابها وفنانيها ، هن تاج حضارتها ، والمفخرة العظمى لتاريخها .

٦ - بلاط الملك

لقد عاون الملك وبلاطه على تحضير فرنسا . وفى ١٦٦٤ كان البلاط يضم نحو ستمائة شخص : الأسرة المالـكة ، وكبار النبلاء ، والمبعوثين الأجانب ، والخدم والحشم . وقد زاد العدد فى أوج اكتمال فرساى إلى عشرة آلاف من الأنفس (٩١) ، ولـكن هذا العدد شمل الأعيان الذين اختلفوا إلى القصر بين الحين والحين ، وجميع المرفهين والأتباع ، والفنانين والمؤلفين الذين وقع عليهم اختيار الملك ليـكافئهم . وأصبحت الدعوة إلى البلاط شهوة لا تفوقها غير شهوة الطعام والجنس ، لا بل إن قضاء يوم واحد فيه كان نشوة لا تنسى ، جديرة بأن يبذل فى سبيلها نصف مدخرات العمر .

وبعض السر فى بهاء البلاط كان فى الأثاث المترف الذى ازدانت به الغرف ، وبعضه فى لباس الحاشية ، وبعضه فى حفلات الترفيه البالغة الفخامة ، وبعضه فى جمال النساء وصيت الرجال الذين اجتذبهم بريق المال ، والشهرة ، والسلطان . ومن النساء الشهيرات — كالسيدتين دسفينيه ودلافاييت — من لم يختلفن

إلى البلاط إلا نادرا لانحيازهن إلى قضية الفروند ، ولـكن بقى منهن عندد يكفى لإبهاج ملك بالغ الحساسية لمفاتن المرأة . وتبدو المرأة فى اللوحات التى وصلت إلينا من هذا العصر على شىء من البدانة ، يبرز لحمها من صدارها ، ولـكن من الواضح أن الرجال كان يعجبهم دفء الشحم واللحم فيمن يعشقون من النساء .

أما أخلاقيات البلاط فـكانت الزنا المحتشم ، والإسراف فى اللباس والقمار ، والدسائس العنيفة جريا وراء الصيت والمنصب ، وهذا كله يخطو على إيقاع من السلوك الخارجى الدمث ، والآداب الرشيقة ، والمرح الإزامى . وضرب الملك المثل فى بدعة اللباس الغالى ، لا سيما فى استقبالات السفراء ، فتراه وهو يستقبل مبعوثى سيام يرتدى عباءة موشاة بالذهب ومرصعة الأطراف بالماس ، بلغت تـكاليفها ١٢٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه فرنسى (٩٢) ، ومثل هـذا المظهر كان جزءا من سيكولوجية الحـكم . وأفنى الأشراف ونساؤهم نصف دخل ضياعهم فى الثياب والخدم والأثاث ، وكان على أقلهم شأنا أن يستخدم أحد عشر خادما ومركبتين ، أما الأثرياء فـكان لهم من الاتباع خمسة وسبعون فى بيوتهم ، ومن الخيل أربعون فى مرابطهم (٩٣) . وفقد الزنا سحره بعد أن لم يعد محظورا ، فغدا لعب الورق للمقامرة أهم ضروب الترفيه فى البلاط . وهنا أيضاً كان لويس القدوة لحاشيته ، فقامر بمبالغ كبيرة ، تستحثه إلى ذلك خليلته مونتسبان ، التى خسرت وكسبت أربعة ملايين من الفرنـكات فى لعب ليلة واحدة (٩٤) . وسرى هـذا الهوس من البلاط إلى الشعب . كتب لابروبير يقول : « إن الألوف يخربون بيوتهم بالقمار ، وهو لعبة رهيبة ... ينوى لاعبها القضاء المبرم على غريمه ، وينتشى بشهوة الـكسب (٩٥) » .

وقد أفضى التنافس على الحظوة عند الملك ، أو على وظيفة مجزية ، أو على مكان فى الفراش الملـكى ، إلى جـو من الشبهات ، والافتراءات ، وتبادل الخصومات الحادة . قال لويس « فى كل مرة أعين إنسانا فى وظيفة

شافرة ، أسخط مائة شخص ، وأجعل شخصاً ناكراً للجميل(٩٦) ». وكان القوم يتشاحنون على أمكنة الصدارة فى المائدة ، أو على القيام على خدمة الملك ، وحتى سان — سيمون أقلقه الخوف من أن يتقدمه دوق لكسمبور خمس خطوات فى أحد المواكب ، وقد اضطر لويس إلى نفى ثلاثة أدواق من البلاط لأنهم أبوا أن يقدموا على أنفسهم أمراء أجانب . وكان الملك شديد الاحتفال بالبروتوكول ، وقد عبس مرة حين وجد على مائدة الغداء سيدة عاطلا من اللقب تتقدم دوقة فى مجلسها(٩٧) . ولا ريب فى أن ضربا من الترتيب المقرر كان ضروريا لمنع ستمائة من الأنفس المغرورة المزهوة بأسباب التشريف من أن يدوس بعضها على أقدام بعض ، وقد أثنى الزوار على ذلك المظهر المتسق الذى بدت فيه الحاشية الضخمة . ومن قصور الملك ، واستقبالاته ، وحفلات ترفيهه ، سرى دستور الإتيكيت ، ومعايير السلوك والذوق ، إلى الطبقتين العليا والوسطى ، وأصبحت هذه كلها جزءا من التراث الأوربى .

وأراد الملك أن يمنع الملل من أن يتطرق إلى نفوس هؤلاء النبلاء والنبيلات ، ذلك الملل الذى قد يحمل البعض على قتل الملك ، فناط الفنانين على مختلف أنواعهم بإعداد ألوان الترفيه — من مباريات بين الفرسان ، ورحلات صيد ، ومباريات تنس وبلياردو ، وجماعات سباحة أو نزهة فى الزوارق ، وحفلات غداء أو عشاء ، ورقص وحفلات راقصة ، وحفلات تنكرية ، ومراقص باليه ، وأوبرات ، وحفلات موسيقية ، وتمثيليات . وبدت فرساى وكأنها جنة الله فى أرضه حين كان الملك يتقدم حاشيته إلى الزوارق الراسية فى القناة ، والأصوات والآلات تشدو بالموسيقى ، والمشاعل تعين القمر والنجوم على إضاءة المشهد . وهل فى الدنيا أفخم ولا أكتم للأنفاس من حفلات الرقص الرسمية ، حين تعكس قاعة المرايا فى مراياها الهائلة رشاقة الرجال والنساء وخفتهم وهم يخطرون فى رقصات فخمة تحت آلاف الأضواء ؟ لقد أراد الملك أن يحتفل بمولد ابنه البكر ، الدوفان ،

(١٦٦٢) فأقام حفلة باليه فى الميدان المنبسط أمام التويلرى ، حضرها خمسة عشر ألف شخص . وقد دمر كومون ١٨٧١ القصر ، ولـكن موقع هذا المهرجان الأشهر ما زال يسمى قصر كاروزل Carrousel (أى ساحة الرقص الدائرى السريع) .

لقد أحب لويس الرقص ، وأشاد به « واحداً من أفضل وأهم الرياضات لتدريب الجسم(٩٨) » ، وأسس فى باريس (١٦٦١) الأكاديمية الملكية للرقص . وكان يشارك بشخصه فى رقصات الباليه ويحذو النبلاء حذوه . وشغل الملحنون فى بلاطه بإعداد الموسيقى لحفلات الرقص والباليه ، وهناك تطورت المتتالية التى حذق استخدامها بيرسيل فى إنجلتره وآل باخ فى ألمانيا . ولم يبلغ الرقص صورا رشيقة متسقة كهذه منذ أيام روما الإمبراطورية .

وفى ١٦٤٥ استقدم مازاران المغنين الإيطاليين ليرسوا أساس الأوبرا فى باريس . وقطع موت الـكردينال هذا الاستهلال ، ولـكن حين شب الملك أنشأ أكاديمية الأوبرا (١٦٦٩) ، وكلف بيير بيران بتقديم أوبرات فى عدة مدن فرنسية ، ابتداء من باريس فى ١٦٧١ . فلما أفلس بيران من جراء إنفاقه المسرف على المناظر والآلات ، نقل لويس « امتياز أكاديميات الموسيقى » إلى جان باتيست لولى Lully ، فما لبث هذا الرجل أن رقص البلاط بأسره على أنغامه .

وكان هو أيضا هبة من هبات ايطاليا . فقد أتى به الشفاليه جيز صبيا فلاحا فى السابعة من فلورنسة إلى فرنسا فى ١٦٤٦ ، « هدية » لابنة أخته ، الجراند مدموازيل ، التى استخـــدمته فى مطبخها مساعداً صغيراً (Soumarmiton) . وهناك ضايق زملاءه الخـدم بالتمرين على الـكمان ، ولـكن المدموازيل تبينت موهبته وأتته بمعلم . وما لبث أن عزف فى فرقة الموسيقى الملـكية ذات الأربع والعشرين كمانا . واستلطفه لويس ، فأعطاه

مجموعة صغيرة من الموسيقيين يقودها . وبفضل هذا الأوركسترا الوترى الصغير تعلم القيادة والتلحين — لموسيقى الرقص ، والأغانى ، والكمان المنفرد والكنتاتات ، والموسيقى الكنسية ، ولثلاثين لحنا أوركستريا للباليه ، وعشرين أوبرا . وقد صادق موليير ، وتعاون معه فى عدة باليهات ، ولحن فواصل موسيقية قصيرة لبعض تمثيليات موليير .

وكان نجاحه رجل بلاط يضارع انتصاراته موسيقيا . ففى ١٦٧٢ ، وفق بنفوذ مدام دمونتسبان فى الحصول على احتكار الأوبرا فى باريس . وقد وجد فى فيليب كينو Outnault مؤلفا لكلمات الأوبرا وشاعرا أيضا . فأخرجا معا سلسلة من الأوبرات كانت ثورة فى الموسيقى الفرنسية . ولم يقتصر نجاح هذه الحفلات على الترفيه على البلاط فى فرساى ، بل إنها اجتذبت صفوة الباريسيين إلى المسرح الذى بنى من قبل المولى فى شارع سانت — أونوريه ، واجتذبتهم فى كثرة جعلت الشوارع تختنق بالمركبات ، فاضطر الرواد فى كثير من الأحيان إلى الخروج منها والسير على الأقدام ، وفى الوحل غالبا ، خشية أن يفوتهم الفصل الأول ، وقد استهجن بوالو الأوبرا زاعما أنها ضرب من التخنث المضعف(٩٩) ، ولكن الملك منح أكاديمية الموسيقى مرسوما (١٦٧٢) ، وأذن لـ « سادة والسيدات بالغناء فى عروض الأكاديمية المذكورة دون أن يكون فى ذلك غض » من أقدارهم(١٠٠) . ورفع لويس لولى إلى مقام النبالة سكرتيراً للملك ، وشكا سكرتيرون آخرون من أن الوظيفة أرفع من أن تخلع على موسيقى ، ولكن لويس قال للولى ، « لقد شرفتهم ولا أنت بوضعى عبقريا بين زمرتهم(١٠١) » . وحالف التوفيق لولى فى كل شىء حتى ١٦٨٧ ، حين ضرب قدمه صدفة — وهو يقود فرقته — بعصا القيادة ، وأساء طبيب دجال علاج جرحه ، فتعفن ، ومات المؤلف الفوار فى الثامنة والأربعين . ومازالت الأوبرا الفرنسية تشعر بتأثيره إلى اليوم .

بقى اسم آخر خلفته موسيقى ذلك العهـــد الفخم ، وهو اسم أسرة كوبران ، التي كانت مثلا آخر على الوراثة في الفن ، والتي أنجبت مؤلفين لفرنسا طوال قرنين من الزمان ، واحتكرت من ١٦٥٠ إلى ١٨٢٦ الأرغن العظيم فى كنيسة سان جرفيه ، وقد شغل فرنسوا كوبران « الكبير » ذلك المنصب ثمانية وعشرين عاماً ، كذلك كان « عازف أرغن الملك » فى كنيسة الملك الصغيرة بفرساى ، وكان أشهر عازفى الهاربسيكورد فى ذلك « القرن العظيم » . وقد درس يوهان سبستيان باخ ألحانه التي وضعها لهذه الآلة دراسة دقيقة ، وأثر البحث الذي وضعه باسم L,art de toucher le clavecin (وهو الاسم الفرنسى لمقابله الانجليزى Clavichord) فى بحث ذلك الألمانى العظيم المسمى « الكلافير المعتدل » ... ترى ؛ أ كانت للموسيقى فى دم آل كوبران ، أم فى بيتهم فقط ، لعل الوراثة الاجتماعية ، لا البيولوجية ، هى التي تصنع الحضارة .

٧ — نساء الملك

لم يكن لويس بالرجل الخليع الفاجر ، وعلينا أن نذكر دائماً ونحن فى معرض الحديث عن الملوك حتى إلى قرننا هـذا ، أن العرف اقتضاهم أن يضحوا بميولهم الشخصية ليعقدوا زيجات تجلب منفعة سياسية للدولة ، ومن ثم كان المجتمع — والكنيسة أحيانا كثيرة — يغضيان إذا التمس الملك متعة الجنس وشاعرية الغرام بعيـداً عن الرباط الزوجى . ولو كان الأمر بيد لويس لبدأ حياته بزواج حب ، فقد استهواه جمال مارى مانشينى ابنة أخت مازاران ، وظرفها ، فرجا أمه والكردينال أن يسمحا له بالزواج منها (١٦٥٨) ، ولكن آن النمساوية وبختته لأنه سمح للعاطفة بأن تتدخل فى شئون السياسة ، أما مازاران فقد أبعد مارى آسفا لتتزوج رجلا من آل كولونا ، ثم راح الوزير الداهية يستخدم نفوذه الخفى ليحصل على

عروس للويس هى ماريا تريزا ، ابنة فيليب الرابع . أفليس من الجائز ، إذ انقطع نسل الذكور فى الملوك الأسبان ، أن تأتى هذه الأميرة بأسبانيا كلها مهراً لملك فرنسا ؟ وهكذا زف لويس إلى ماريا فى ١٦٦٠ ، وكلاهما فى الثانية والعشرين ، فى كل البهاء والبذخ الذى سحر دافعى الضرائب .

أما مارى تريز فكانت امرأة متكبرة ، ورعة فاضلة ، وقد أعانت قدوتها ونفوذها على إصلاح أخلاقيات البلاط ، على الأقل بين حاشيتها ، ولكن النظام الصارم الذى نشئت عليه جعلها مكتئبة متبلدة ، وكانت شهيتها القوية تزيدها حجما فى الوقت الذى ترمق فيه حسناوات باريس زوجها الوسيم بنظرات الغرام وقد أنجبت له ستة أطفال ، لم يتجاوز الطفولة منهم غير واحد هو الدوفن ، وكان من سوء طالعها أن يكتشف لويس ، فى نفس سنة زواجهما ، فى زوجة أخيه هنريبتا آن ، جميع المفاتن التى تجمل الأنوثة الغضة .

أما هنرييتا هذه فهى ابنه تشارلز الأول ملك انجلتره ، وكانت أمها هنريتا ماريا « ابنة هنرى الرابع ملك فرنسا » قد قاسمت زوجها مأساة الحرب الأهلية ، فلما دنا جيش البرلمان من مقر قيادة تشارلز فى أكسفورد ، فرت ملكة إنجلتره إلى أكستر ، وهناك ، حين اشتد بها المرض حتى أشرفت على الموت ، ولدت (١٦٤٤) « أميرة صغيرة جميلة » . وراح أعوان البرلمان يتعقبون الأم المريضة ، ففرت ثانيـــة ، وتسللت إلى ساحل البحر ، حيث استقلت سفينة هولندية إلى فرنسا بعد أن أفلتت بالجهد من المدافع الانجليزية . أما الطفلة التى تركتها أمها فى رعاية الليدى آن دولكيت ، فقد عاشت عامين فى مخبئها بانجلتره قبل أن تهرب هى أيضاً عبر المانش فى

(١) روت مدام دمونتسبان . التى لم تخل من تحيز فى مذكراتها ، كيف أهدى أمير أفريقى قزماً زنجياً لمارى ، وكيف ولدت مارى « بنتاً جميلة صحيحة الجسم ، سوداء من قمة رأسها إلى أخمص قدمها » وعزت الملكة هذا اللون إلى خوفها من القزم خلال حملها ، وأذاعت « هاريته » بباريس أن الفتاة ماتت عقب ولادتها ، ولكن يبدو أنها عاشت ، وربتها أسرة ملونه ، وأصبحت راهبة .(١٠٢)

أمان ، وما لبثت أن أكرهتها الظروف على معاناة التقلبات التى جاءت بها حرب الفروند . ففى يناير ١٦٤٠ شاركت أمها وآن النمساوية فى هروبهما من باريس المملوءة بالمتاريس إلى سان — جرمان ، وفى ذلك الشهر جاء نبأ — أخفى عنها ولا ريب حيناً — بأن أباها ضرب عنقه أنصار كرومويل « ذوو الرءوس المستديرة » المنتصرون فلما خفت حدة الفروند ، قامت أم الأميرة هنريتا على تربيتها فى جو من الدعة والتقوى ، وعاشت كلتاهما حتى رأتا تشارلزالثانى يرد إلى العرش الإنجليزى (١٦٦٠) ، وبعد عام حين بلغت السادسة عشرة ، تزوجت شقيق لويس الرابع عشر ، « مسيو » فيليب دوق أورليان ، وأصبحت تلقب بالـ « مدام » .

أما « المسيو » فكان رجلا قصيراً مكور البطن ، يلبس حذاءاً عالياً ، ولوعاً بحلى الأثاث ، وأجساد الذكور ، شجاعا كأى فارس فى ساحة الوغى ولكنه مزوق ، معطر ، موشح ، مرصع بالجواهر كأشد النساء غروراً ، فى هذا البلد الذى كان أكثر بلاد الله غروراً . وقد أحزن هنريتا وأخجلها أن ترى زوجها يؤثر على صحبتها صحبة شفالييه اللورين ، وشفالييه شاتيون . ووقع فى غرامها كل إنسان تقريباً ، لا لجمالها الهش فحسب — مع أنها عدت أجمل مخلوق فى البلاط[١٠٣] — ، بل لما هو أكثر من ذلك ، لروحها الرقيقة اللطيفة ، وحيويتها ومرحها الشبيهين بحيوية الأطفال ومرحهم . وللنسيم النضر المنعش الذى حملته أينما ذهبت ، وقد وصفها راسين بـ « الحكم فى كل جميل[١٠٤] » — وكان واحداً من كثيرين ممن ألهمتهم ومدت لهم يد المعونة .

ووجدها لويس الرابع عشر لأول وهلة أضعف وأنحف من أن تستغها فتوته وذوقه ، ولكنه حين أحس آخر الأمر بما فى خلقها من « حلاوة وضياء »[١٠٥] استشعر المتعة المتزايدة فى وجودها ، وأبهجه أن يراقصها ويمازحها ، ويدبر الألعاب معها ، ويصاحبها فى المشى فى البستان فى فونتنبلو

أو ركوب الزورق فى القناة ، حتى زعمت باريس كلها أنها غدت خليلته ، ورأت فى هذا انتقاما عادلا من « ملك سدوم » (١٠٦) ولكن أغلب الظن أن باريس أخطأت الحكم . فلقد أحبها لويس واشتهاها من جانبه ، أما هى ، التى بذلت إخلاصها فى الحب لأخويها تشارلز وجيمس ، فقد قبلت الملك أخاً آخر ، واتخذت من ربط الثلاثة جميعاً برباط التحالف أو المودة رسالة لها فى الحياة .

ففى سنة ١٦٧٠ ، وبنــاء على طلب لويس ، عبرت المانش إلى انجلترة لتقنع تشارلز بالانضمام إلى فرنسا ضد هولندة ، لا بل لتحضه على الجهر بكثلكته . وقد وعد بهذا فى معاهدة دوفر السرية (١ يونيو ١٦٧٠) ، وعادت هنرييتا إلى فرنسا محملة بالهدايا مكللة بالنصر ، ولكن مامضت أيام على وصولها إلى قصرها فى سان — كلو حتى أصابها مرض شديد ، فظنت أنها سممت ، وكذلك اعتقدت باريس كلها ، وهرع الملك والملكة إلى فراشها . وكذلك فعل « المسيو » النادم ، وكونديه ، وتورين ، ومدام دى لافاييت ، ومدموازيل دمونبانسييه ، وأتى بوسويه ليصلى معها ، وأخيراً فى ٣٠ يونيو ، انتهى عذابها ، وكشف فحص جثتها عن أن موتها لم يكن بالسم بل بالالتهاب البريتونى (١٠٧) ، وشيعها لويس بمشهد لا يشيع بمثله غير أصحاب الرءوس المتوجة ، وألقى بوسويه فوق جثمانها فى كنيسة سان — دنى عظة جنائزية رجعت أصداءها القرون .

وهنرييتا هى التى أعطت للملك أولى خليلاته الأكثر علانية . وقد ولدت هذه المرأة ، واسمها لويز دى لا فاليير ، فى مدينة تور عام ١٦٤٤ ، وتلقت فى إيمان مستسلم ذلك التعليم الدينى الذى قامت عليه أمها وخالها الكاهن ، الذى أصبح فيما بعد أسقفا لنانت ، وما أن بلغت سن التناول الأول حتى مات أبوها ، فتزوجت أمها من جديد ، وكان الزوج رئيساً لخدم جاستون دوق أورليان ، فحصل للويز على وظيفه وصيفة لبنات الدوق ، فلما

مات جاستون ، وتزوج ابن أخيه وخليفته فيليب ، أخذ لويز معه وصيفة شرف لهنريبتا (١٦٦١) . وبهذا الوصف كانت ترى الملك مراراً كثيرة . وبهرها بهاؤه وسلطانه وسحر شخصيته ، فوقعت في غرامه كما وقعت عشرات النساء ، ولكنها لم تحلم بالتحدث إليه يوماً .

كان جمالها جمال الخلق أكثر منه جمال الجسد ، كانت رقيقة الصحة وبها عرج خفيف ، « وليس لها صدر يؤبه به » على حد قول أحد ناقديها ، وكانت نحيفة إلى حد مخيف ، ولكن ضعفها هذا كان في ذاته فتنة ، لأنه أورثها تواضعاً ودماثة في الطبع أسر الجميع حتى النساء ، ولفتت هنريبتا نظر الملك إلى لويز لتصرف الناس عن الشائعات التي أرجفت بأنها هي ذاتها خليلته ، وأفلحت الخطة فوق ما أرادت ، فقد جذبت لويس هذه الفتاة الخجول ذات السبعة عشر ربيعاً ، التي كان البون شاسعاً بينها وبين النبيلات المتغطرسات العدوانيات اللائي يحطن به في بلاطه . وذات يوم وجدها وحيدة في حدائق فونتنبلو ، فقدم نفسه إليها ، مضمراً نيات ليست بالشريفة جداً . وفاجأته بالاعتراف بأنها تحبه ، ولكنها قاومت إلحافه طويلا ، وناشدته ألا يحملها على خيانة هنريبتا والملكة ، ولكن ما وافى شهر أغسطس ١٦٦١ حتى كانت قد غدت خليلته ، لقد كان كل شيء يبدو حسناً مادام يرضى مشيئة الملك .

ثم وقع الملك بدوره في غرامها ، فما كان يستشعر السعادة كما يستشعرها مع هذا الفرخ الخجول ، وخرجا في نزهات خلوية كالأطفال ، ورقصا في المراقص ، وطفرا مرحا في حفلات الباليه ، وكانت إذا خرجت إلى جواره في الصيد تنسى ما في طبعها من إحجام وتردد ، وتركب في تهور واندفاع « فيعجز حتى الرجال عن اللحاق بها »(١٠٨) على حد قول الدوق دانجيان . على أنها لم تستغل انتصارها ، فأبت قبول الهدايا أو الاشتراك في الدسائس ، وظلت متواضعة رغم زناها ، وكانت تخجل من وضعها ، وقد تعذبت حين

قدمها الملك إلى الملكة ، وولدت له عدة أطفال ، مات اثنان منهم فى تاريخ مبكر ، أما الطفلان الثالث والرابع ، اللذان تقررت شرعيتهما بمرسوم ملكى ، فقد أصبحا الكونت دفيرماندوا ، والمدموازيل دبلوا الرائعة الجمال . وخلال أزمات الولادة هذه كانت ترى وجوهاً أجمل من وجهها تجتذب الملك ، ولم تحل سنة ١٦٦٧ حتى تعلق قلبه بمدام دمونتسبان ، وبدأت لويز تفكر فى التكفير عن آثامها بقضاء ما بقى من عمرها فى دير للراهبات .

وآنس لويس هذا الميل فيها ، فبذل لها الكثير من علامات حبه الباقى ، وفكر فى الحفاظ عليها فى دنياه بخلع لقب الدوقية عليها ، ولكنه بين اشتغاله بحب مونتسبان ، واستغراقه فى الحرب ، قل شيئاً فشيئاً ما منحها من وقته ، أما هى فلم تأبه فى البلاط بإنسان غيره . وفى ١٦٧١ تخلت عن ثروتها ، وارتدت أبسط ما وجدت من ثياب ، وتسللت من القصر صباح يوم من أيام الشتاء ، وهربت إلى دير القديسة مارى — د — شايو ، وأرسل لويس من يبحث عنها مؤكداً حبه وعذابه ، وإذ كانت لا تزال عذراء غريرة بعقلها ، فقد ارتضت أن تعود إلى البلاط . وظلت هناك ثلاث سنين أخرى ، ممزقة بين حبها للملك وشوقها للتطهر والسلام الدينيين ، وكانت تمارس فى القصر تقشف الحياة الديرية ، وأخيراً أقنعت الملك بأن يفرج عنها ، ودخلت ديراً للراهبات الكرمليات الحافيات فى شارع دانفير (١٦٧٤) ، وتسمت الأخت لويز دلا ميزيريكورد ، وعاشت هناك فى توبة الزهاد ما بقى لها من عمر طوال ستة وثلاثين عاماً ، قالت : « إن نفسى شديدة القناعة ، بالغة السكينة ، لأننى أعبد جود الإله » (١٠٩) .

أما خليفتها فى الحظوة لدى الملك فلا تظفر من الناس بمثل هذا الغفران العام . فقد قدمت فرنسواز أتينايس روشنوار البلاط فى ١٦٦١ ، وخدمت للملكة وصيفة شرف ، وتزوجت المركيز دمونتسبان (١٦٦٣) . ويزعم

فولتير أنها إحدى ثلاث كن أجمل نساء فرنسا ، أما الأخريان فاختاها (١١٠). وكان لها غدائر مجعدة شقراء مرصعة باللآلىء ، وعينان أبيتان ناعستان ، وشفتان شهوانيتان ، وثغر ضاحك ، ويدان ملاطفتان ، وبشرة فى لون الزنبق ونسيجه — كذلك وصفها معاصروها وهم مبهورون ، وكذلك صورها هنرى جاسكار فى لوحة مشهورة . وكانت تقية ، تحفظ أيام الصوم دون تهاون ، وتختلف إلى الكنيسة فى تعبد وتكرار ، لها طبع حاد وذكاء بتار ، ولكن هذا كان أول الأمر من قبيل التحدى .

روى عنها ميشليه قولها إنها قدمت باريس مصممة على اقتناص الملك (١١١) . ولكن سان ـ سيمون يذكر أنها حين رأت أنها أخذت تزيد من سرعة نبض الملك رجت زوجها فى أن يعود بها فورا إلى بواتو (١١٢) . ولكنه أبى ، واثقا من سلطانه عليها ، متعلقاً بعبير البلاط . وذات ليلة فى كومبيين ، ذهبت لتنام فى حجرة مخصصة عادة للملك . وحاول برهة أن ينام فى حجرة مجاورة ، ولكنه وجدفى هذا مشقة ، وأخيراً استولى على حجرته وعليها (١٦٦٧) . أما المركيز فحين بلغه الأمر لبس ثوب الترمل ، وجلل مركبته بالسواد ، وزين أركانها بالقرون . وكتب لويس بيده وثيقة الطلاق بين المركيز والمركيزة ، وأرسل إليه ١٠٠٫٠٠٠ ايكو ، وأمره بالرحيل عن باريس ، وابتسم البلاط الذى تجرد تماما من الخلق الكريم .

وظلت مدام دمونتسبان محظية للملك سبعة عشر عاما . وقد أعطت لويس مالم تستطعه لافاليير ـ أعطته الحديث الذكى والحيوية المثيرة . وكانت تفاخر بأنها هى وتبلد الحس لا يمكن أن يجتمعا فى مكان واحد وزمان واحد ، وهو قول صحيح . وقد أنجبت للملك ستة أطفال — أحبهم وشكر لماصنيمها ، ولكنه لم يستطع أن يقاوم إغراء النوم من حين إلى حين مع مدام دسوبيز أو مع الآنسة الشابة دسكوراى دروسيل ، التى خلع عليها لقب دوقة فونتانج . وقد حدت هذه الانحرافات بمدام دمونتسبان إلى

الماس نصيحة للشموذات فى أمر الأشربة السحريه أو غيرها من الوسائل للاحتفاظ بحب الملك ، ولكن القصة التى زعمت أنها دبرت تسميمه أو تسميم غريماتها هى فى أغلب الظن أسطورة روجها أعداؤها (١١٣) .

وقد جنى عليها أطفالها . ذلك أنها احتاجت إلى شخص يرعاهم ، وزكى لها بعضهم مدام سكارون ، فاستخدمتها ، ولاحظ لويس حسن المربية وهو يختلف لرؤيه أطفاله . أما مدام سكارون هذه ، واسمها قبل الزواج فرنسواز دوبينيه ، فكانت حفيدة تيودور أجريبا دوبينيه ، المساعد الهيجونوتى لهنرى الرابع ، وقد ولدت بسجن بنيور فى بواتو ، حيث كان أبوها يقضى فترة من فترات سجنه الكثيرة عقابا له على جرائم مختلفة ، وعمدت كاثوليكية ، وربيت بين الفوضى والفقر المخيمين على أسرة منقسمة . وعطف عليها بعض البروتستنت وأطعموها وثبتوها فى العقيدة البروتستنتية تثبيتا جعلها تولى ظهرها للمذبح الكاثوليكى . فلما بلغت التاسعة أخذها أبواها إلى المارتنيك حيث أشرفت على الموت لصرامة التأديب الذى أدبتها به أمها . ومات الأب بعد عام (١٦٤٥) ، فعادت الأرملة وأطفالها الثلاثة إلى فرنسا . وفى ١٦٤٩ أودعت فرنسواز ديرا للراهبات بعد أن عادت إلى الكاثوليكية ، وكانت تناهزت الرابعة عشرة آنئذ ، وتكسب قوتها بأداء الأعمال الحقيرة . ولعلنا ما كنا لنسمع بها قط لولا أنها تزوجت بول سكارون .

وأما بول هذا فكان كاتبا مشهوراً ، وظريفاً لامعا ، مشلولا شللا كاد يكون تاما ، مشوها تشويها بشعا . وإذ كان ابنا لمحام نابه ، فقد توقع النجاح فى حياته العملية ، ولكن أباه الأرمل تزوج ثانية ، ونبذت الزوجة الجديدة بول ، فلم يظفر من أبيه إلا بمعاش ضئيل لا يكفيه إلا للترفيه ليلة عن ماريون ديلورم وغيرها من النبيلات . ثم أصيب بالزهرى ، وأسلم نفسه لأحد الدجالين ، وتعاطى العقاقير القوية التى أتلفت جهازه العصبى . وأخيرا اشتد به الشلل حتى كاد يعجزه إلا عن تحريك يديه . وقد وصف نفسه فى هذه

العبارات : « سأصف لك نفسي أيها القارئ على قدر استطاعتي . لقد كان جسمي حسن التكوين رغم قصر قامتي . ولكن العلة قصرتني بقدم كامل . ورأسي أكبر قليلا مما يناسب جسمي . ووجهي ممتلئ ، أما جسدي فهيكل عظمي . وبصري لا بأس به ، ولكن عيني بارزتان ، وإحداهما منخفضة عن الأخرى . وقد كونت ساقاي وفخذاي أول الأمر زاوية منفرجة ، ثم قائمة ، وأخيرا حادة ، وتكون فخذاي وجسمي زاوية حادة أخرى ، وانحناء رأسي فوق معدتي يجعلني أقرب إلى حرف Z . وقد انكمش ذراعاي كما انكمش ساقاي ، وكذلك فعلت أصابعي . جملة القول أنني خلاصة للتعاسة البشرية(١٤٤) » .

وقد نمزى عن تعاسته تلك بتأليفه « رواية مضحكة » عن متشرد (١٦٤٩) لقيت نجاحا كبيرا ، وبعرضه هزليات ساخرة صاخبة الفكاهة ، فاضحة النكتة . وأكرمته باريس لأنه احتفظ بمرحه وسط آلامه ، وأجرى عليه مازاران وآن النمساوية معاشين فقد الحق فيهما لتأييده للفروند . كسب كثيرا ، وأنفق أكثر ، وتورط غير مرة في الدين . وكان — وهو مسنود داخل صندوق يطل منه رأسه وذراعاه — يرأس في حيوية وعلم غزير صالونا من أشهر صالونات باريس . فلما تكاثرت ديونه ، كان يتقاضى ضيوفه ثمن طعامهم ، ومع ذلك كانوا يأتون .

ترى من يتزوج رجلا كهذا ؟ في سنة ١٦٥٢ ، كانت فرنسواز دوبينيه التي بلغت السادسة عشرة من عمرها تعيش مع قريبة بخيلة ضنت بالإنفاق عليها حتى لقد اعتزمت أن ترد فرنسواز إلى أحد أديار الراهبات . وقدم صديق هذه الفتاة إلى سكارون ، فاستقبلها في كرم مؤلم ، وعرض أن يدفع نفقات طعامها وسكناها في الدير ، لكي يعفيها من نذر الرهبنة ، ولكنها أبت . وأخيراً عرض أن يتزوجها ، وأوضح لها بجلاء أنه لا يستطيع أن يطالبها بحقوق الزوج . فقبلته ، وخدمته ممرضة وسكرتيرة ، وقامت بدور المضيفة

فى صالونه ، وتظاهرت بأنها لا تسمع توريات الضيوف . وكان ذكاؤها يدهشهم حين تشترك فى الحديث . وقد خلعت على اجتماعات سكارون درجة من الاحترام كفت لجذب الآنسة دسكودرى ، ومدام دسفينيه بين آن وآخر ، وكان من زوار الصالون قبل ذلك نينون ، وجرامون ، وسانت — إفرمون . وفى رسائل نينون الماع إلى أن مدام سكارون لطفت من عذاب هذا الزواج البرىء من الجنس بعلاقة غرام ، ولكن نينون ذكرت أيضاً أنها « كانت فاضلة لضعف عقلها . لقد أردت شفاءها ، ولكنها كانت تخاف الله أكثر مما يجب(١١٥) » وكان وفاؤها لسكارون حديث باريس ، المتعطشة دون وعى منها لأمثلة للسلوك الكريم . ولما اشتد عليه شلله تيبست حتى أصابعه وامتنعت حركتها ، فعجز عن أن يقلب صفحة أو يمسك قلماً . فكانت تقرأ له ، وتكتب ما يمليه عليها ، وتقوم على كل حاجاته . وقبل أن يموت (١٦٦٠) كتب قبريته التى قال فيها :

« إن الراقد الآن هنا قد أثار من الشفقة أكثر مما أثار من الحسد ، وعانى ألف مرة عذاب الموت قبل أن يفقد الحياة . فيا أيها العابر لا تحدث ضجيجاً ، وإياك إياك أن توقظه ، فهذه أول ليلة ينام فيها سكارون المسكين » .

ولم يخلف لزوجته غير الدائنين . وألفيت « الأرملة سكارون » فى خضم الفقر مرة أخرى وهى بعد شابة فى الخامسة والعشرين . والتمست من الملكة الأم أن تجدد معاشها الذى ألغى ، فرتبت لها آن ألف جنيه فى العام . واتخذت فرانسواز حجرة فى دير ، وتواضعت فى عيشها وملبسها ، وارتضت القيام بشتى المهام الصغيرة فى البيوت الميسورة(١١٧) . وفى ١٦٦٧ أرسلت إليها مدام دمونتسبان وهى على وشك الوضع رسولا يطلب إليها أن تتلقى الوليد المنتظر وتربيه . ورفضت فرنسواز ، ولكنها قبلت حين أيد لويس الطلب . وظلت سنوات عديدة بعد ذلك تتلقى أطفال الملك وهم يخرجون إلى النور .

وتعلمت أن تحبهم ، وكانوا يرون فيها أما لهم ؛ أما الملك الذى ضحك منها أول الأمر لفرط احتشامها ، فقد انتهى إلى الإعجاب بها ، وأثر فيه مابدا من حزنها حين مات أحد الأطفال رغم حدبها المتصل عليه . وقال إنها تعرف كيف تحب ، وإنها لمتعة أن يكون إنسان موضع حبها(١١٨)» . وفى ١٦٧٣ قررت شرعية الأطفال ، ولم يعد فرضا على مدام سكارون أن تتستر ، فقبلت فى البلاط وصيفة لمدام دمونتسبان . ووهبها الملك ٢٠٠٫٠٠٠ جنيه دعما لمركزها الجديد . فاشترت بالمال ضيعة فى مانتنون قرب شارتر . ولم تعش فيها قط ، ولكن الضيعة أعطتها لقبا جديدا ، وهو المركيزة دمانتنون .

وكانت طفرة عنيفة لمن كانت تشكو الإملاق منذ عهد قريب جداً ، ولعلها أدارت رأسها حينا . وآلت على نفسها أن تنصح مدام دمونتسبان بأن تكف عن حياة الإثم التى تحياها . وساءت النصيحة مونتسبان ، وظنت أن مانتنون تكيد لها للحلول محلها ، والحق أن لويس كان آنئذ ، فى ١٦٥٧، قد أخذ يضيق بغضبات مونتسبان ، ويجد لذة فى التحدث إلى المركيزة الجديدة ولعل الأسقف بوسويه ، بالتواطؤ مع الملك ، أنذره بأنه سيحرم من تناول قربان القيامة مالم يطرد محظيته . فأمرها بأن تبرح القصر ، ففعلت ، وتناول لويس القربان ، وتعفف حينا واستحسنت مدام دمانتنون مسلكه، دون أن يكون لها قصد أنانى فيما يبدو(١١٩) ، لأنها رحلت بعد قليل مع صبى عليل (من أبناء مونتسبان) هو الدوق دمين تلتمس له الشفاء فى حمامات باريج الكبريتية بإقليم البرانس . وانطلق لويس إلى حروبه ، ثم عاد وقد اشتد به الجوع ، وضرب بإنذار بوسويه عرض الحائط ، ودعا مونتسبان لتعود إلى جناحها فى فرساى . وهناك ارتمى بين ذراعيها المشتاقتين ، فحبلت ثانية .

أما مانتنون فقد رحب بها الملك ومحظيته عند عودتها من البرانس مع الدوق الذى شفى مما ألم به ، ولكن راعها أن تراه غارقا فى عدة علاقات

آنية فى وقت واحد . وفى ١٦٧٩ اختتم آثامه مع مونتسبان بتعيينها مشرفة على بيت الملكة — وكانت تلك أحدى الفظاظات الكثيرة التى جرح بها شعور مارى تريز . وثارت مونتسبان وبكت ، ولكنه عزاها بالهبات السخية . وبعد عام تسلمت مانتنون وظيفة مماثلة — هى الوصيفة لخدع زوجة ابنه البكر (الدوفينه) ، وكان الوحيد الباقى على قيد الحياة من أبنائه الشرعيين . وكثر تردد الملك الآن على الدوفينة للتحدث إلى مانتنون . وما من شك فى أنه أراد أن يجعل المركيزة خليلة له ، وأنها ردته عن نفسها — لا بل إنها ناشدته أن يكف عن جنوحه ويعود تائباً إلى الملكة(١٢٠) . فأذعن لها ولبوسويه ، وفى ١٦٨١ ، وبعد عشرين عاما من مغازلة النساء ، أصبح زوجاً مثالياً . أما الملكة التى وطنت نفسها منذ أمد بعيد على تقبل خياناته ، بل على تقبل خليلاته ، فقد حظيت برضاء الملك ولكن لعامين فقط ، لأنها ماتت عام ١٦٨٣ .

وظن لويس أن مانتنون سترضى الآن بأن تكون خليلته ، ولكنها قابلته بصد لبق ، فهو الزواج وإلا فلا(١٢١). وفى تاريخ لا يعرف على التحديد ، ولكنه على الأرجح فى ١٦٨٤ ، تزوجها ، وكان فى السابعة والأربعين ، وهى فى الخمسين . وكان ارتباطا غير متكافئ ، لا يصيب الطرف الأدنى فيه أى رتبة جديدة ولا حقوق وراثية . ولقى مستشارو الملك عنتا فى ثنيه عن إعطاء زوجه الحقوق الكاملة وتتويجها ملكة ، وذكروا له ما سيكون من تذمر الأسرة المالكة والحاشية إذا وجدوا أنهم ينحنون احتراماً لمربية . وعليه لم يعلن نبأ الزواج ، وهناك من يظنون أن الزواج لم يتم قط . أما سان — سيمون ، المتشبث أبدا بالنظام الطبقى ، فرأى أنه زواج مخيف(١٢٢) ، ولكنه كان خير رباط وأسعده للملك ، والوحيد الذى رعى عهوده فيما يبدو . ولقد اقتضاه نصف قرن تقريباً أن يكتشف أن فى حب المرأة لزوجها ما يكفيه عن غيرها من النساء .

٨ - الملك يمضى إلى الحرب

كانت انتصارات ريشليوه ومازاران قد خلفت فرنسا أقوى دولة فى أوربا . فالأمبراطورية أوهنها ما أصاب المانيا من إعياء وانقسام فضلا عن الخطر المتجدد عليها من العثمانيين . وأسبانيا أضعفها نضوب ذهبها ورجالها فى ثمانين عاما من الحرب العقيم التى خاضتها فى الأراضى المخفضة . وانجلترة، بعد ١٦٦٠ ، ربطتها بعجلة فرنسا المعونات السرية لملكها. كذلك كانت فرنسا فيما مضى بلداً منقسما أصابه الضعف ، ولـكن ما أتت سنة ١٦٦٧ حتى كانت جراح الفروند قد برئت ، وغدت فرنسا أمة موحدة . وقام أثناء ذلك رجال أفذاذ اضطلعوا بإعادة بناء الجيوش الفرنسية ، كلوفوا ، عبقرى التنظيم والضبط العسكريين ، وفوبان عبقرى التحصين وحرب الخنادق والحصار ، وكالقائدين المغوارين كونديه وتورين . وبدا للملك الشاب الذى يتملقه رجاله أن قد آن الأوان لتبلغ فرنسا حدودها الجغرافية الطبيعية — وهى الراين ، والألب ، والبرانس ، والبحر .

فليبدأ بالراين إذن . لقد كان الهولنديون يتسلطون عليه ، فلا بد إذن من إخضاعهم ، ثم ردهم بعد قليـــل إلى العقيدة التى كانت حليفا للملوك طوال ألف عام . فإذا بسطت فرنسا سلطانها على مصاب النهر العظيم الـكثيرة دانت لها كل أرض الراين ، وبسطت سلطانها على نصف التجارة الألمانية . ولـكن الأراضى المنخفضة الأسبانية (بلجيكا) تقف عقبة فى الطريق ، فلا بد إذن من فتحها . وكان فيليب الرابع عند موته فى ١٦٦٥ قد خلف الأراضى المنخفضة الأسبانية لشارل الثانى ، ولده من زواجه الثانى . ورأى لويس ثغرة دبلوماسية ينفذ منها إلى هدفه . فاستند إلى عرف قديم أخذت به أينو وبرابانت ، يقضى بتفضيل أبناء الزوجة الأولى فى الميراث على أبناء الثانية . وكانت زوجة لويس بنت فيليب الرابع من زوجته الأولى ، وبمقتضى حق الأيلولة أو الوراثة هذا — Ius devolutionis — ترث مارى تريز الأراضى

المنخفضة الأسبانية . صحيح ان مارى نزلت عند زواجها عن حقها فى الوراثة ، ولكن هذا التخلى كان مشروطاً بأداء أسبانيا صداقها لفرنسا ، وهو ٥٠٠,٠٠٠ كراون ذهبى(١٢٣) . وهذا الصداق لم يؤد ، إذن . . . ورفضت أسبانيا هذا القياس المنطقى ، وعلى ذلك أعلن لويس حرب الأيلولة (الوراثة الأسبانية) . فلنترك مذكرات الملك لاعب الشطرنج هذا يميط اللثام عن دوافعه :

« لقد أتاح لى موت ملك أسبانيا وحرب الأنجليز مع الهولنديين (١٦٦٥) فى وقت واحد فرصتين هامتين لخوض الحرب : محاربة أسبانيا سعياً وراء حقوق آلت الى ، ومحاربة انجلترة دفاعاً عن الهولنديين . . . وسرنى أن أرى فى خطة هاتين الحربين ميداناً فسيحاً قد يتيح لى فرصاً عظيمة للتفوق . وكان الكثيرون من الرجال البواسل ، الذين آنست فيهم التفانى فى خدمتى ، يتوسلون إلى على الدوام أن أهيىء لهم الفرصة لإظهار بسالتهم . . . يضاف إلى هذا أننى مادمت مضطرا على أية حال للاحتفاظ بجيش كبير ، فإنه انفع لى ان القى به فى الأراضى المنخفضة من أن أطعمه على حسابى . . وتحت ستار الحرب مع إنجلترة أستطيع ترتيب قواتى وهيئة مخابراتى (أى جهاز الجاسوسية) لأبدأ مغامرتى فى هولندة بنجاح أعظم(١٢٤) » .

تلك هى النظرة الملكية إلى الحرب ، فقد تجعل الحرب بلد الملك أعظم مساحة أو أكثر أمنا أو أوفر دخلا ، وقد تفتح طرق الشهرة والمنعة ، وقد تتيح منصرفات للغرائز المتصارعة ، وقد تيسر للجيش الغالى النفقة أن يطعم على غذاء بلد أجنبى ، وقد تحسن موقف الدولة فى الحرب القادمة . أما عن أرواح البشر التى ستحصدها الحرب ، فإن الناس لابد أن يموتوا على أية حال وما أسخف أن يموت الرجل حتف أنفه ، ويقضى بعلة بطيئة طويلة ، وأى ميتة أفضل للرجال من الموت فى خدار المعركة على ساحة المجد ، وفى سبيل الوطن ؟

وعليه ففى ٢٤ مايو ١٦٦٧ عبرت الجيوش الفرنسية إلى الأراضى المنخفضة الأسبانية . فلم تصادف مقاومة فعالة ، وكان عدد الفرنسيين ٥٥,٠٠٠

مقاتل ، والأسبان ٨٠٠٠٠ وما لبث الملك أن دخل شارلروا ، وتورنيه ، وكورتريه ، ودويه ، وليل ، وكأنه يدخلها فى موكب نصر ؛ وحصن فوبان المدن المفتوحة ، أما لوفوا فقد جهز المؤن فى كل خطوة ؛ حتى الصحاف الفضية للضباط فى معسكراتهم أو خنادقهم . وضمت إلى فرنسا أرتوا ، وإينو ، وفلاندر الولونية ، واستغاثت أسبانيا بالامبراطور ليوبولد الأول، فعرض لويس على ليوبولد قسمة الامبراطورية الأسبانية فيما بينهما ، ووافق ليوبولد ، فأمسك أى معونة عن أسبانيا . وبلغ من سهولة فتح فلاندر أن لويس هرع للاستيلاء على فرانش — كونتيه أيضاً ، وهو الإقليم الواقع حول بزانسون ، بين برجندية وسويسرا . وكان ولاية تتبع أسبانيا ، ولكنه شوكة فى جنب فرنسا . وفى فبراير ١٦٦٨ هبط جيش فرنسى عدته عشرون ألف مقاتل على فرانش — كونتيه بقيادة كونديه ، وحالفه النصر فى كل مكان ، لأن الرشا الفرنسية كانت قد ألانت القواد المحليين . وقاد لويس بنفسه حصار دول ، فسقطت بعد أربعة أيام . ولم تنقض ثلاثة أسابيع حتى استسلمت فرانش - كونتيه كلها . فقفل إلى باريس مكللا بالغار .

ولكنه كان قد أفسد على نفسه الأمر بتجاوزه الحدود ، ذلك أن « الأقاليم المتحدة » أقنعت السويد وانجلترة بالانضمام إليها فى حلف ثلاثى ضد فرنسا (يوليو ١٦٦٨) وتبينت الدول الثلاث أن حريتها السياسية أو التجارية ستذوى إذا امتد سلطان فرنسا إلى الراين . ورأى لويس أنه تعجل السير إلى هدفه ؛ ذلك أن الاتفاق السرى الذى أبرمه مع ليوبولد كان ينص على أن تؤول إلى فرنسا كل الأراضى المنخفضة وفرانش — كونتيه عند موت شارل الثانى ملك أسبانيا ، وبدا أنه لن ينقضى عام أو نحوه حتى يموت شارل العليل ، فلعله كان خيراً لفرنسا أن تتريث حتى تقع الثمرة فى حجرها بهدوء . وعرض لويس شروط الصلح على الحلف وأقنع دبلوماسيوه المحنكون انجلترة والسويد ، فأنهيت حرب الوراثة الأسبانية بمقتضى معاهدة إكس — لا — شابل (٢ مايو ١٦٦٨) وردت فرنسا فرانش — كونتيه إلى أسبانيا ، ولكنها احتفظت بشارلروا ، ودويه ، وتورنيه ،

وأودينارد ، وليل ، وآرمانتيير ؛ وكورتريه . وهكذا استبق لويس لنفسه نصف الغنيمة .

ولكنه فى ١٦٧٢ عاود زحفه على الراين ، وتكشف الآن هدفه الحقيقى — وهو هولندة لا فلاندر . وسنلقى بنظرة على هذه المأساة فى فصل لاحق من زاوية الهولنديين ، وحسبنا القول بأن الهجوم كاد يصل إلى أمستردام ولا هاى قبل أن يقفه فتح سدود البحر . ولكن أوربا ثارت مرة أخرى على هذا التهديد الجديد لتوازن القوى . ففى أكتوبر ١٦٧٢ انضم الامبراطور ليوبولد إلى الأقاليم المتحدة وبراندنبورج فى « حلف عظيم » ، وانضمت إليه أسبانيا واللورين فى ١٦٧٣ ، ثم الدنمرك والبالاتينات ودوقية برنزويك — لونيبورج فى ١٦٧٤ ؛ وفى ذلك العام أكره البرلمان الانجليزى ملكه الموالى لفرنسا على إبرام الصلح مع الهولنديين .

وواجه لويس ببسالة هذا الانتقام الذى عوقبت به كبرياؤه . فجبى المزيد من الضرائب برغم شكاوى كولبير من أنه يفقر بذلك فرنسا ، وبنى أسطولا ، وزاد جيوشه إلى ١٨٠,٠٠٠ مقاتل . وفى يونيو ١٦٧٤ وجه قوة منها لمحاصرة بزانسون ثانية ، وما مضت ستة أسابيع حتى فتحت فرانش — كونتيه من جديد . وخلال ذلك قاد تورين فى حملة من أروع حملاته وأقساها عشرين ألفاً من جنوده إلى النصر على سبعين ألفاً من جنود الامبراطورية . ودمر البالاتينات واللورين وجزءاً من الإلزاس ليحول بين العدو وبين إطعام جنده ، وتكرر على طوال الراين ذلك الخراب الذى أحدثته من قبل حرب الثلاثين . وفى ٢٧ يوليو قتل تورين وهو يستطلع الأرض قرب سولزباخ فى بادن ، ودفن بأمر لويس فى كنيسة سان — دنى باحتفال أشبه بالاحتفال بدفن الملوك ، وهو عليم بأن تلك الميتة الواحدة تعدل عشر هزائم . وحل « كونديه العظيم » محل تورين بعد ماحقق من انتصارات دامية فى الأراضى المنخفضة ، فطرد جيوش الامبراطورية من الالزاس ، ثم اعتكف ذلك « الأمير » بعد أن دوخته سنون من الشهوات والحرب ، مؤثراً حياة الفلسفة

والحكم فى شانتى . واضطلع لويس الآن بالحملة فى الأراضى المنخفضة ، فحاصر فالنسيين ، وكامبرى ، وسانتومير ، وغنت ، وإيبر ، واستولى عليها كلها (١٦٧٧ — ٧٨) . وهللت فرنسا لملكها قائداً مظفراً .

ولكن العبء الذى أثقل به كاهل شعبه لم يعد محتملا . فنشبت الثورات فى بوردو وبرتنى ، وكان الفلاحون فى جنوب فرنسا يتضورون جوعاً ، والشعب فى الدوفينيه يقتات على الخبز المصنوع من ثمر البلوط والجذور(١٢٥) فلما عرض الهولنديون على لويس الصلح وقع معهم معاهدة (١١ أغسطس ١٦٧٨) ردت بمقتضاها للأقاليم المتحدة جميع الأراضى التى استولت عليها فرنسا منها ، وخفضت الرسوم التى أقصت المنتجات الهولندية عن فرنسا . وقد عوض عن هذه التنازلات بإلزام أسبانيا ، التى تفككت الآن أوصالها ، بأن تتخلى له عن فرانش — كونتيه ، واثنتى عشرة مدينة دفعت بحدود فرنسا الشمالية الشرقية إلى داخل الأراضى المنخفضة الأسبانية . واحتفظت فرنسا بمقتضى معاهدة مع الامبراطور بمدينتين استراتيجيتين هما برايزاخ وفرايبورج — ايم — برايسجاو ، وبقيت الالزاس واللورين فى قبضتها . وكانت هاتان المعاهدتان — نيميجن (١٦٧٨ — ٧٩) وسان — جرمان — آن — ليه (١٦٧٩) نصراً للأقاليم المتحدة ، ولكنهما لم تكونا هزيمة للويس ، فلقد فاز على الامبراطورية وأسبانيا ، ووصل فى أماكن — هنا وهناك — إلى الراين الذى طالما اشتهى الوصول إليه .

على أنه احتفظ بجيشه الضخم رغم هذا الصلح ، موقناً أن الجيش القائم قوة تعزز الدبلوماسية . واستناداً إلى تلك القوة من ورائه ، واستغلالا مخزياً لانصراف الامبراطور إلى قتال العثمانيين الزاحفين ، أنشأ فى الالزاس ، وفرانش — كونتيه ، وبرايسجاو « غرفاً لإعادة الاتحاد » ، تطالب ببعض مناطق الحدود التى كانت تمتلكها فيما مضى ، واحتل الجنود الفرنسيون هذه المناطق ، وأغريت مدينة ستراسبورج العظيمة ، التى لين موظفيها إغداق الرشا عليهم ، بأن تعترف بلويس ملكا عليها (١٦٨١) . وفى نفس

العام ، وبوسائل مماثلة ، أغرى دوق ميلانو بأن ينزل لفرنسا عن مدينة كازالى وحصنها ، وكانت تتحكم فى الطريق بين سافوا وميلانو (*). فلما تلكأت أسبانيا فى تسليم مدن الأراضى المنخفضة ، أرسل لويس جيوشه من جديد إلى فلاندر وبرابانت ، وتغلب على المقاومة بقذفه البلاد بالمدافع دون تمييز ، وابتلع فى طريقه دوقية لكسمبورج (يونيو ١٦٨٤) . واعترفت أسبانيا والامبراطور مؤقتاً بهذه الفتوح بمقتضى هدنة ريجنسبورج (١٥ أغسطس) ، لأن العثمانيين كانوا يحاصرون فيينا آنئذ . وبفضل تحالفه مع ناخب كولونيا مد لويس فى الواقع سلطته إلى الراين . فتحقق بهذا جزء من طموح فرنسا للوصول إلى حدودها الطبيعية .

ذلك كان الأوج الذى بلغه « الملك الشمس » فلم يحدث أن ظفرت فرنسا بمثل هذا الاتساع فى الرقعة ولا بمثل هذه السطوة منذ عهد شارلمان . وأقيمت المهرجانات الضخمة الغالية احتفالا بانتصارات الملك . ولقبه مجلس باريس رسمياً بلويس المعظم . (١٦٨٠) ورسمه لبرون فى صورة إله على أقبية فرساى ، وزعم لاهوتى أن انتصارات لويس أثبتت وجود الله (١٢٧) . أما جماهير الشعب فقد مجدت حاكمها وسط فقرها المدقع ، وتاهت فخراً بعظمته الواضحة ، وأطراه حتى الأجانب ، لأنهم رأوا فى حملاته شيئاً من المنطق الجغرافى ، وحياه الفيلسوف لايبنتز « ذلك الأمير المعظم الذى هو مفخرة زماننا غـــير منازع ، والذى ستتوق الأجيال القادمة إلى نظيره عبثاً(١٢٨) » ، وإلى الشمال من جبال الألب والبرانس ، وإلى الغرب من الفستولا ، بدأت كل أوربا المثقفة تتحدث بلغته وتقلد بلاطه وفنونه وأساليبه . لقد بلغت الشمس الأوج .

(*) لعل « الرجل ذا القناع الحديدى » هو الكونت ماتيولى الذى باع لأسبانيا (١٦٢٩) سر المفاوضات بين لويس ودوق ميلانو . وقد تكهن البعض بأنه هو ذاته ماركيولى ، السجين الغامض الذى أخفى وجهه خلف قناع من المخمل (لا الحـــديد) ، والذى مات فى الباستيل فى ١٧٠٣ (١٢٦)

الفصل الثاني

بوتقة الإيمان

١٦٤٣ — ١٧١٥

١ — الملك والكنيسة

ينزع المؤرخ — كما ينزع الصحفي — إلى فقدان الخلفية العادية للعصر وسط الواجهة المثيرة للصورة التي يرسمها ، لأنه يعلم أن قراءه سيستطيبون الشاذ ويحبون تجسيد العمليات والأحداث . ولكن وراء حكام فرنسا ، ووزرائها ، وحاشيتها ، ومحظياتها ، ومقاتليها ، كان هناك رجال ونساء يتنافسون على الرزق والرفقاء ، يزجرون أبناءهم ويحبونهم ، يأثمون ويعترفون بإثمهم ، يلهون ويتشاجرون ، يذهبون إلى أعمالهم متثاقلين وإلى المواخير متسترين ، وإلى الصلاة متواضعين متذللين. وكان طلب الخلاص الأبدي يقطع بين الحين والحين كفاح البقاء اليومي ، والحلم بالجنة ينتعش كلما ذبلت شهوة الحياة ، وصحن الكنيسة الظليل يريح هنيهة من وطيس الصراع . وكانت أساطير المعجزات شعر الجماهير ، والقداس مسرحية خلاصهم المعزية ، وسمت الرسالة التي يحملها الكاهن بقلوب الفقراء المهزومين ولو كان هو ذاته رجلا دنيويا جشعا . وظلت الكنيسة المنافس للدولة ركيزة للمجتمع والسلطة ، لأنه بالرجاء أذعن الناس في صبر للعمل الشاق ، والقانون ، والحرب .

وعرف كبار الأكليروس الكاثوليك أهميتهم في معجزة النظام، وشاركوا النبلاء والملك موارد الأمة وبهاء البلاط . وخالط الأساقفة ورؤساء الأساقفة في ألفة مهذبة أعلام القوم من طراز كونديه ، ومونبنسييه ،

وسفينييه ، وداعب المثات من الآباء — أنصاف المكرسين ، أنصاف المتزوجين — داعبوا النساء والأفكار . على أنه يمكن القول بوجه عام أن عقلية رجال الأكليروس الكاثوليك وأخلاقهم كانت خيراً مما عهدناه خلال قرون قبل ذلك ، ربما بحافز من منافسة القساوسة الهيجونوت[1] .

لم تكن أديار الراهبات « مراتع الرذيلة » التى صورها جنون خلق الأساطير ، المنبعث من الكراهية للدين . فالكثير منها كان صوامع للورع الصادق ، الزاهد أحياناً ، كدير الكرمليات الذى اعتكفت فيه لويزدلافاليير ، وبعضها الآخر كان ملاذا لشابات الأسر الكريمة اللاتى لم يجد آباؤهن لهن أزواجاً أو مهوراً ، أو اللاتى اقترفن إثما ، أو أسأن إلى حاكم أو ملك . فى أديار كهذه لم ير نزيلاتها حرجا فى استقبال زائر من العالم الخارجى ، أو فى مراقصة بعضهن البعض ، أو فى قراءة الأدب الدنيوى ، أو فى تخفيف سأمهن بلعب البليارد أو الورق . وباصلاح دير من هذه جعلت جاكلين آرنو دير البور — رويال أشهر دير فى تاريخ فرنسا .

على أننا لا نستطيع مثل هذا الحديث المترفق عن الطرق الديرية ، فالكثير منها أرخى نظمه ، وعاش حياة التبطل ، والعبادة الصورية ، والالحاف فى التسول . وقد أصلح « أرمان جان درانسيه » دير نوتردام دلا تراب بنورمنديا ، وأسس الطريقة الترابية الصارمة التى مازالت حية فى صمت . ودخل اليسوعيون دخولا أنشط فى حياة فرنسا وتاريخها . كانوا فى بداية القرن السابع عشر موضع توجس وريبة باعتبارهم مدافعين عن قتل الملك ، أما فى نهاية القرن فقد كانوا كهنة اعتراف ومرشدين للملك — ثم أنهم كانوا خبراء فى علم النفس . فحين أسست الراهبة مارجريت مارى ألاكوك بوحى من رؤيا صوفية تراءت لها (١٦٧٥) جمعية منقطعة للعبادة العلنية لـ « قلب يسوع المقدس » ، شجع اليسوعيون الحركة باعتبارها منفذاً وحافزا لتقوى الجماهير . وفى الوقت نفسه يسروا الدين للخطاة إذسلموا بأن

الخطيئة فى طبيعة البشر ، ووضعوا علم « الإفتاء » سبيلا للتخفيف من عسر الوصايا العشر والتلطيف من عصاب تأنيب الضمير ، وما لبث أن اشتد الطلب عليهم آباء اعتراف للخطاة ، واكتسبوا سلطة «مرشدى الضمائر» ، لاسيما بين النساء اللاتى سدن المجتمع الفرنسى ، واللاتى أثرن أحيانا فى السياسة القومية للبلاد .

ولم يكن لكلمة « الافتاء » فى القرن السابع عشر ذلك المدلول المهين الذى الصقته بها رسائل بسكال الأقليمية . فقد كان يفترض فى كل قسيس ، بوصفه أب اعتراف أو مرشدا روحياً ، أن يعرف بالضبط ما الذى يجب أن يعتبر خطيئة مميتة ، أو خطيئة هينة ، أو لا خطيئة على الأطلاق ، وكان عليه أن يستعد لتطبيق علمه ، والملاءمة بين حكمه ، ونصحه ، والعقوبة الكنسية التى يشير بها ، وبين الحالة الماثلة أمامه (Casus) . وكان معلمو الناموس اليهود قد طوروا هذا الفن ، فى التمييزات الخلقية ، بتفصيل مستفيض فى الأجزاء القانونية من التلمود ، وحذا حذوهم التشريع والطب النفسى المصريان . وقبل أن تنشأ جماعة اليسوعيون بزمن مديد ، وضع اللاهوتيون الكاثوليك الأبحاث الضخمة فى الافتاء لإرشاد الكاهن فى أمر المبدأ الخلق والتطبيق الاعترافى . ففى أى الحالات مثلا يجوز أن يبدى على حرفية القانون الخلق روحه أو قصده ؟ ومتى يجوز للإنسان أن يكذب أو يسرق أو يقتل ، أو يحنث بوعد حنثا معقولا ، أو ينتهك يمينا ، أو حتى ينكر العقيدة ؟

وطالب بعض المفتين بتفسير القانون الخلق تفسيراً صارما ، ورأوا أن الصرامة أجدى فى المدى الطويل من التساهل . ولكن غير هؤلاء — ولا سيما اليسوعيين مولينا ، وإسكوبار ، وتوليدو ، وبوزنباوم — حبذوا دستورا أخلاقيا متسامحا ، وحضوا على ضرورة التماس العذر للطبيعة البشرية ، ومؤثرات البيئة ، والجهل بالقانون ، والمشقة البالغة فى الامتثال الحرفى للقانون ، وعنف سورات العاطفة عنفا شبيها بالجنون ، وسائر الظروف

التى تعطل حرية الإرادة. وتيسيرا لهذه الأخلاقيات الهينة، وضع اليسوعيون مبدأ الترجيح — ومؤداه أنه إذا استحسن حجة معروف فى اللاهوت الخلقى رأيا بعينه، جاز لكاهن الاعتراف أن يحكم طبقا لهذا الرأى إذا استصوب ذلك، ولو عارضته كثرة الخبراء. (وكانت كلمة Probabilis تعني فى ذلك الوقت المستحسن، أو الذى يسمح بالاستحسان(٢)). يضاف إلى هذا، فى رأى بعض المفتين اليسوعيين، أنه من المباح أحيانا أن يكذب الإنسان، أو يمسك عن قول الحق بـ « تحفظ عقلى »؛ مثال ذلك أن للمسيحى الأسير، إذا أكره على الخيار بين الإسلام والموت، أن يتظاهر بقبول الإسلام دون أن يحسب ذلك خطيئة عليه. ثم إن أخلاقية عمل ما، فى رأى إسكوبار، ليست فى الفعل نفسه، الذى ليس فى ذاته أخلاقيا أولا أخلاق، بل فى نية الفاعل الخلقية، فليس هناك خطيئة مالم يكن هناك خروج واع، مختار، عن القانون الخلقى.

والكثير من إفتاء اليسوعيين كان توفيقا معقولا رحيما بين القواعد التى يغلب عليها زهد العصر الوسيط، وبين مجتمع اكتشف مشروعية اللذة. ولكن اليسوعيين فى فرنسا بصفة خاصة، وفى إيطاليا بدرجة أقل، طوروا الافتاء حتى بلغوا به من التسامح مع ضعف الطبيعة البشرية مبلغا حمل رجالا جادين كبسكال فى باريس، وساربى فى البندقية، وكثيراً من اللاهوتيين الكاثوليك، ومنهم عدة يسوعيين(٣) — حمل هؤلاء جميعا على الاحتجاج على ما رأوا فيه استسلاما من المسيحية للخطيئة. وصدم هذا التراخى اليسوعى مع العالم والجسد مشاعر هيجونوت فرنسا الذين ورثوا دستور كالفن الخلقى الصارم. وقامت حركة قوية داخل الكاثوليكية ذاتها — وهى الجانسنية — فرفعت فى دير البور — رويال لواء أخلاقية شبه كالفنية، فى حرب مناهضة لليسوعيين أهاجت فرنسا والأدب الفرنسى قرنا كاملا. وجرت هذه الحرب لويس الرابع عشر إلى المعركة، لأن كهنة اعترافه كانوا يسوعيين وتطبيقه للدين لم يكن متزمتا. وفى ١٦٧٤ اضطلع الأب لاشيز بالأشراف

على ضمير الملك ، وقد وصفه فولتير بأنه « رجل هادئ الطبع يسهل عنده التوفيق دائما . »[٤] وقد شغل المركز اثنين وثلاثين سنة ، غنم خلالها كل شىء وحظى بمحبة كل إنسان . وقد قال لويس عنه « بلغ من طيبته أننى كنت أحيانا ألومه عليها[٥] » . ولكنه بطريقته الهادئة الصابرة كان له تأثير بالغ على الملك ، وأعان على توجيهه إلى الاقتصار على امرأة واحدة آخر المطاف ، وإلى طاعة البابا .

ذلك أن لويس لم يكن دائما « بابويا » صادقا . كان متدينا على طريقته الرسمية ، وندر أن قصر فى حضور القداس اليومى[٦] . قال لولده فى مذكراته :

« . . . واصلت تدريبات التقوى التى نشأتنى عليها أمى ، من جهة لأشكر الله على كل الحظ الطيب الذى نلته ، ومن جهة لأكسب محبة شعبى . . . والحق يابنى أننا لا نفتقر إلى عرفان الجميل والأنصاف فحسب ، بل إلى الحكمة والفطنة أيضا ، حين نقصر فى عبادته تعالى ، الذى لسنا إلا نوابا له . وما خضوعنا له إلا القاعدة والمثل للخضوع الذى نستحقه[٧] » .

على أن هذا لم يشمل الخضوع للبابوية . ذلك أن لويس ورث التقليد « الغالى » بمقتضى تفويض بورج البرجماتى (١٤٨٣) وكونكوردا فرنسوا الأول (١٥١٦) — ذلك التقليد الذى أقر حق ملوك فرنسا فى تعيين أساقفه فرنسا ورؤساء أديارها ، وتحديد دخولهم ، والتعيين فى جميع الوظائف الكنسية ذات الدخول فى الفترة بين موت الأسقف وتنصيب خلفه . وقد آمن لويس أنه خليفة لله أو ممثله فى فرنسا ، وأن خضوعه للبابا (بوصفه هو أيضا خليفة لله) يجب أن يقصر على شئون العقيدة والأخلاق ، وأن على رجال الأكليروس الفرنسيين أن يطيعوا الملك فى كل أمر يتصل بالدولة الفرنسية .

واستنكر فريق من الأكليروس هذه الدعوى — وهم المناصرون للسيادة

البابوية المطلقة — وأيدوا سلطان البابوات المطلق على الملوك والمجامع وتعيين الأساقفة ، ولكن الغالبية — وهم الحزب الغالى — دافعوا عن استقلال الملك الكامل فى الأمور الزمنية ، وأنكروا عصمة البابا إلا إذا وافق عليها مجمع مسكونى ، ورأوا فى الروغان من سيطرة روما منفعة للاكليروس الفرنسى . وصرح أمير كونديه أن من رأيه أنه لو طاب للملك أن يتحول إلى المذهب البروتستنتى لكان رجال الأكليروس الفرنسى أول من يتبعه(٨). وفى ١٦٦٣ أصدرت السوربون — وهى كلية اللاهوت فى جامعة باريس — ست مواد تؤكد الموقف الغالى . واتخذت « البرلمانات » الفرنسية ذات الموقف ، وأيدت لويس فى دعواه بحقه فى أن يقرر أى المراسيم البابوية ينبغى نشره وقبوله فى فرنسا . وفى ١٦٧٨ احتج البابا أنوسنت السادس على هذه النزعة الغالية ، وحرم رئيس أساقفة تولوز لأنه عزل أسقفا قاوم هذه النزعة . ودعا الملك مجمعا من الأكليروس ، كلهم تقريبا من اختياره . وفى مارس ١٦٨٢ أعاد المجمع تأكيد مواد السوربون الست ، ووضع لنفسه المواد الأربع الشهيرة ، التى كادت تفصل الكنيسة الفرنسية عن روما :

١ — للبابا سلطان فى الأمور الروحية ، وليس له سلطان عزل الأمراء أو حل رعاياهم من طاعتهم .

٢ — للمجامع المسكونية سلطان فوق سلطان البابا .

٣ — الحريات التقليدية للكنيسة الفرنسية لا يجوز انتهاكها .

٤ — لا عصمة للبابا إلا بموافقة مجمع الأساقفة .

وأعلن أنوسنت بطلان قرارات المجمع ، ورفض التنصيب القانونى لجميع الأساقفة الجدد الذين وافقوا على المواد . وإذ كان لويس لا يعين إلا أمثال هؤلاء المرشحين ، فقد شغرت فى ١٦٨٨ نحو خمس وثلاثين أسقفية من أساقفتها القانونيين . على أن الشيخوخة ومدام دمانتنون كانا قد الانا جانب الملك ، ثم أراحه الموت من ذلك البابا العنيد . وفى ١٦٩٣ سمح لويس

لمرشحيه إن ينكروا المواد ، وأقر البابا أنوسنت الثانى عشر حق الملك فى التعيينات الأسقفية ، وأصبح لويس من جديد « للملك المسيحى جداً » Rex Christianissimus .

٢ - البور - رويال : ١٢٠٤ - ١٦٢٦

كانت الحرب القديمة بين الكنيسة والدولة أهون الدرامات الدينية الثلاث التى اضطرم بها حكم لويس . فقد فاقها عمقا ذلك الصراع الذى احتدم بين الكاثوليكية السنية التى دانت بها الدولة والأكليروس ، وكاثوليكية الجانسنيين والبور — رويال القريبة من البروتستنتية ، وكان أعمق هذه المسرحيات وأشدها فجيعة هو القضاء على الهيجونوت فى فرنسا . ولكن ما هو البور — رويال هذا ، ولم هذا الضجيج الكثير من حوله فى التاريخ الفرنسى ؟ لقد كان ديراً لراهبات الطريقة السسترسية Cistercian على نحو ستة عشر ميلا من باريس وستة أميال من فرساى ، فى مكان وطىء تكتنفه المستنقعات ، وصفته مدام دسفينييه بأنه « واد رهيب ، هو بالضبط المكان الذى يجد فيه الإنسان خلاصه(٩) » . أسس حوالى ١٢٠٤ ، ونجا بشق الانفس من التقلبات الكثيرة التى تعرض لها فى حرب مائة العام والحروب الدينية . وقد اضمحل نظامه وتناقصت راهباته ، ولعل الدير كان يختفى عن الانظار لولا أنه خضع لرآسة جاكلين آرنو ، وجرد للدفاع عنه قلم بليز بسكال .

لقد صنع أنطوان آرنو الأول (١٥٦٠ — ١٦١٩) التاريخ ببلاغته ووفرة ذريته . ففى ١٥٩٣ ، بعد أن حاول باريير اغتيال هنرى الرابع ، وجه آرنو إلى برلمان باريس خطابا غاضبا طالب فيه بطرد اليسوعيين من فرنسا . ولم يصفحوا عنه بعدها ، وكانوا ينظرون بعين نقادة منذرة بالشر إلى مائة وم به أسرته فى البور — رويال . وكان لأربعة على الأقل من بين أبنائه — البالغين نيفا وعشرين — دور فى قصة ذلك الدير . فقد عينت جاكلين آرنو

مساعدة لرئيسة دير البور — رويال وهي في السابعة (١٥٩٨) وبعد عام أصبحت شقيقتها جان ، البالغة ستة أعوام ، رئيسة لدير سان — سير . وكان التعيينان بأمر هنري الرابع ، وثبتهما مرسومان بابويان أمكن الحصول عليهما بتزييف عمر الفتاتين(١٠) . ولعل أباهما التمس لابنتيه هاتين الوظيفتين بديلا عن العثور على زوجين ومهرين لهما .

فلما أصبحت جاكلين ، بوصفها الأم آنجليك ، رئيسة إسمية لدير البور — رويال (١٦٠٢) لم تجد غير أرخى النظم بين راهباته الثلاث عشرة ، فقد كانت كل منهن تحتفظ بثروتها ، وتكشف شعرها ، وتستعمل مستحضرات التجميل ، وتتبع أحدث الأزياء . وقل أن تناولن الأسرار المقدسة ، ولم يستمعن لأكثر من سبع عظات خلال ثلاثين عاما(١١) . فلما ازداد وعي الرئيسة الشابة بالحياة التي ألزمها إياها أبواها ، سخطت ونوت الهروب (١٦٠٧) . « فكرت في مغادرة البور — رويال والعودة إلى العالم — دون إحاطة أبي أو أمي بنيتي ، لأهرب من هذا النير الذي لا يطاق ، ولأتزوج » . (١٢) ومرضت ، فحملت إلى بيتها ، وهناك مرضتها أمها بكثير من الرعاية الحانية حتى عادت إلى البور — رويال عقب إبلالها وهي مصممة على الوفاء بنذورها الديرية حبا في أمها . على أنها أوصت بمشد من عظم الحوت لتحفظ لقوامها نحافته(١٣) . وظلت تخفي نفورها من الحياة الدينية إلى أن سمعت في عيد القيامة عام ١٦٠٨ عظة ألقاها راهب كبوشي عن آلام المسيح ، وكانت يومها في ميعة الصبا . قالت تروي الحدث فيما بعد « خلال هذه العظة لمسني الله لمسة جعلتني أحس منذ تلك اللحظة بأني أسعد حالا في حياة الرهبنة ... ولا أدري أي شيء كنت أحجم من فعله لله إذا واصل تعالى هذه الحركة التي منحتني إياها نعمته(١٤) » . ذلك ، في لغتها ، كان « أول عمل للنعمة » (أي اللطف الإلهي) .

وفي أول نوفمبر من ذلك العام ملأتها عظة أخرى — هي « ثاني أعمال

النعمة » شعورا بالخزى من شدة تراخيها وتراخى راهباتها فى الوفاء بما نذرن من فقر وعزلة . وإذ كانت ممزقة بين حبها للراهبات ورغبتها فى فرض نظام الطريقة السسترسية ، فقد رانت عليها الكآبة ، ومارست ألوانا من التقشف لم يقو عليها جسدها ، فأصابتها الحمى . ولا بد أنها كانت لطيفة محببة إلى النفوس ، وآية ذلك أنه حين سألها الراهبات عن السر فى حزنها ، وصارحتهن برغبتها فى أن يرجعن إلى التزام نظام رهبتهن بحذافيره ، ارتضين حكمها ، وجمعن كل ممتلكاتهن الخاصة ، وأخذن العهد على أنفسهن بالفقر الدائم .

أما الخطوة الثانية ، وهى اعتزال العالم ، فكانت أشد إيلاما . فقد حظرت الأم أنجليك على الراهبات أن يغادرن الدير ، أو يستقبلن الزوار — حتى أقرب الأقرباء — دون إذن صريح ، فإذا استقبلنهم ففى قاعة الاستقبال دون غيرها . وشكون مما سيكلفهن هذا من عنت شديد . ولكى تعطيهن القدوة الحسنة المشددة لعزائمهن صممت ألا ترى أبويها فى زيارتهما التالية إلا من نافذة ذات شباك أو « شيش » فى الباب الفاصل بين قاعة الاستقبال وحجرات الدير . فلما حضر أبواها راعهما أنها لا تريد التحدث إليهما إلا من خلال هذا الشباك . . وأصبح « يوم الشباك » journee du guichet (٢٥ سبتمبر ١٦٠٩) يوما مشهورا فى الأدب الدائر حول البور — رويال .

وهدأ غضب الأسرة المقصاة ، وتأثر أفرادها بورع الأم انجليك (التى بلغت الآن الثامنة عشرة) تأثرا حمل الفتاة تلو الفتاة من بيت آرنو على دخول البور — رويال . ففى ١٦١٨ ، أخذت شقيقتها آن أوجنى على نفسها عهد الرهبنة . ولحقتها شقيقات أخريات بعد قليل — كاترين ، ومارى ، ومادلين . وفى ١٦٢٩ ، جثت أمهن الأرملة عند قدمى الأم أنجليك ملتمسة قبولها مبتدئة فى الرهبنة ثم أخذت العهد فى الوقت المناسب ، وعاشت فى تواضع وسعادة

تحت رئاسة ابنتها ، وراحت تدعوها منذ الآن بالأم . وقد حمدت الله وهي تحتضر (١٦٤١) لأنها قدمت ستاً من بناتها للحياة الدينية . ودخلت خمس من حفيداتها البور — رويال في فترة لاحقة . وأصبح ابنها روبير وثلاثة من حفدتها « متوحدين » هناك ، وأصبح ألمع أبنائها ، وهو انطوان آرنو الثاني ، عضو السوربون ، فيلسوف البور — رويال ولا هوتيه . وإنا ليأخذنا العجب لهذه الخصوبة ، ولا نملك غير الاحترام لمثل هذا العمق في التعبد والولاء والإيمان(*) .

وقادت الأم أنجليك قطيعها خطوة بخطوة عـــودا إلى نظام الرهبنة السترسية الكامل . حفظت الراهبات ، اللائي بلغ عددهن الآن ستا وثلاثين ، جميع الأصوام بدقة تامة ، ومارسن الصمت فترات طويلة ، واستيقظن في الثانية صباحا لترتيل تسبحة الصباح ، ووزعن الصدقات على فقراء الجيران من مالهن المشترك . وسرت الإصلاحات من البور — رويال ، وأرسلت الراهبات اللائي دربن فيه للأديار في جميع أرجاء فرنسا لحضها على العودة إلى سابق نظمها . من ذلك أن ديرا في موبويسون كان شديد الإنحلال ، وقد استعمله هنرى الرابع من قبل مكان لقاء مع خليلته جابرييل دستريه ، وكانت رئيسته حاملة ببناتها غير الشرعيات ، وكان الراهبات يغادرن ديرهن دون قيد ليلتقين ويراقصن رهبان دير مجاور(١٦) . وفي ١٦١٨ طلب رؤساء الأم انجليك إليها أن تحل محل رئيسة دير موبويسون ، ومكثت هناك خمس سنوات ، فلما عادت إلى البور — رويال تبعتها اثنتان وثلاثون راهبة إلى الدير الأم الذي انبعث منه نور الإصلاح .

وفي ١٦٢٦ ظهر وباء الملاريا في البور — رويال ، وإذ نبه بعضهم أنجليك

(*) لاحظ سانت — بيف أن « عدة شابات ممن بينهن راهبات البور — رويال كن قد أصبن بالجدري فتشوهت وجوههن في سن مبكرة » ، وأضاف في خبث « لا أريد أن أقول أننا لا نهب الله إلا مافقد قيمته في هذه الدنيا » (١٥) .

إلى مانى جوالدير الرطب من خطر ، فإنها انتقلت مع راهباتها إلى منزل بباريس . وهناك ، وتحت تأثير الجانسنية ، دخلن معركتهن التاريخية مع اليسوعيين والملك . وسرعان ما احتل « المتوحـــدون » المبانى المهجورة المتهدمة فى البور — رويال — دى — شان ، وكانوا رجالا رغبوا فى أن يحيوا حياة أقرب إلى الحياة الديرية وان لم ينذروا أنفسهم الرهبنة . ووفد على المكان نفر من آل آرنو — أنطوان الثانى ه وأخوه روبير آرنودانديى ، وابنا أختيه أنطوان لوميتر وسيمون لوميتر دسريكور ، وحفيده إسحاق لوى سامى ، وانضم إليهم بعض رجال الكنيسة ، أمثال بيير نيكول وأنطوان سانجلان ، لابل بعض النبلاء أمثال الدوق دلون والبارون ديونشاتو . وراحوا يصرفون مماميا المستنقعات ، ويحفرون الخنادق ، ويرممون المبانى ، ويعنون بالبساتين والحدائق . وكانوا — جماعة أو فرادى — يمارسون ألوانا من الفنون ، ويصومون ، ويرتلون ، ويصلون ، ويلبسون لباس الفلاحين ، ويمتنعون عن تدفئة غرفهم فى البرد القارس . وكانوا يدرسون الكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة ، وقد ألفوا كتبا فيها تعبد وتفقه ، وأحد هذه الكتب ، واسمه « فن التفكير » ، وهو من تأليف نيكول وآرنو الصغير ، ظـــل كتيبا محببا فى المنطق حتى القرن العشرين .

وفى ١٦٣٨ افتتح المتوحدون « مدارس صغيرة » دعوا إليها أطفالا اختاروهم من سن التاسعة أو العاشرة ، وعلموهم الفرنسية ، واللاتينية ، واليونانية ، والنواحى السنية فى فلسفة ديكارت . وطلب إليهم أن يجتنبوا الرقص والمسرح (وكلاهما وافق عليه اليسوعيون) ، وان يصلوا كثيراً ، ولكن ليس للقديسين ، ولم تكن هناك صور دينية فى الكنيسه الصغيرة التى يسمعون فيها القداس . وفى البور — رويال — دى — شان ، والبور — رويال — د — بارى ، أصبح اعتراض تقوى آل آرنو على فساد البلاط ،

اعتراضاً آخر من اللاهوت والأخلاق الجانسنية الصارمة على تيسير اليسوعيين للمسيحية حتى توائم الطبيعة البشرية .

٣ ـ الجانسنيون واليسوعيون

كان كورنيليس جانسن هولنديا ، ولد فى ولاية أوترخت لأبوين كاثوليكيين ، ولكنه تأثر تأثرا عميقا باللاهوت الأوغسطيني الذى دان به جيرانه الكالفنيون . فلما التحق بجامعة لوفان الكاثوليكية (١٦٠٢) وجدها مضطرمة بجدل عنيف بين الحزب اليسوعى أو السكولاستى ، وشيعة تتبع الآراء الأوغسطينية التى نادى بها ميخائيل بايوس فى الجبرية والنعمة الإلهية . وانحاز جانسن إلى الأوغسطينيين . وفى الفترة بين دراسته السابقة للتخرج وعمله أستاذا ، قبل جانسن دعوة وجهها إليه زميل يدعى جاك دوفرجييه دهوران ليعيش معه فى بايون . وقد درسا القديس بولس والقديس أوغسطين ، واتفقا على أن خير سبيل للدفاع عن الكاثوليكية ضد الكالفنيين الهولنديين والهيجونوت الفرنسيين هو الاقتداء بأوغسطين فى تشديده على النعمة الإلهية والجبرية ، وتأصيل دستور أخلاق صارم بين الاكليروس والعلمانيين الكاثوليك ، يفضح الانحلال المنتشر فى البلاط والأديار ، كما يفضح أخلاقيات اليسوعيين الهينة اللينة .

وفى ١٦١٦ ، بينما كان جانسن رئيسا لبيت للطلاب الهولنديين فى لوفان ، هاجم لاهوت اليسوعيين فى حرية الإرادة ، وبشر بيوريتانية صوفية قريبة من التقوية التى كانت بسبيل التشكل فى هولندة ، وانجلترة ، وألمانيا . ثم واصل الحرب أستاذا لتفسير الكتاب المقدس بلوفان ، وأسقفا لايبر . وترك عند موته (١٦٣٨) رسالة كبيرة — لم ينجزها تماما — عنوانها «أوغسطينوس» مالبثت بعد نشرها فى ١٦٤٠ أن أصبحت البرنامج العقائدى

للبور — رويال ، ومثار الجدل فى اللاهوت الكاثوليكى الفرنسى طوال قرن تقريبا .

ومع أن الكتاب اختتم بلفتة خضوع لكنيسة روما ، فإن كالفنيى الأراضى المنخفضة رحبوا به بوصفه لب الكالفنية وجوهرها(١٧) . فقد قبل جانسن الجبرية قبولا تاما كما قبلها أوغسطين ولوثر وكالفن من قبل . فحتى قبل أن يخلق الله العالم ، اختار تعالى أولئك الرجال والنساء الذين ينبغى أن يخلصوا ، وقرر من ينبغى أن يهلكوا ؛ وأعمال البشر الصالحة ، وإن تكن ذات قيمة ، لا يمكن أن تكسبهم الخلاص دون معونة من النعمة الإلهية ، وقليلون هم الذين سيخلصون حتى بين القلة الصالحة . أما الكنيسة الكاثوليكية فلم تكن أنكرت صراحة جبرية القديس بولس والقديس أوغسطين ، ولكنها تركتها تتوارى فى خلفية تعليمها ، لصعوبة التوفيق بينها وبين حرية الإرادة ، التى بدا أنها شرط لاغنى عنه — منطقيا — للمسئولية الخلقية ولفكرة الخطيئة . ولكن إرادة الإنسان فى رأى جانسن ليست حرة ، فقد فقدت حريتها بخطيئة آدم . وأصبحت طبيعة الإنسان الآن فاسدة فسادا يعجزه عن تخليص نفسه ، ولا يمكن أن يخلصه غير نعمة الله التى اكتسبها بموت المسيح . أما دفاع اليسوعيين عن حرية الإرادة فقد بدا لجانسن أنه يغالى فى دور الأعمال الصالحة فى نيل الخلاص ، ويجعل موت المسيح ، ذلك الموت الذى افتدى الخطاة ، أمراً لاضرورة له تقريبا . ثم نبه إلى أننا يجب ألا نأخذ المنطق مأخذ الجد الشديد ، فالعقل ملكة أدنى بكثير من الإيمان الوائق المسلم ، تماما كما أن للممارسات الطقسية ضرب من الدين أدنى من اتصال النفس المباشر بالله .

وقد وصلت هذه الأفكار إلى البور — رويال بطريق دوفرجييه ، الذى كان أثناء ذلك قد أصبح رئيسا لدير سان — سيران . وقد وفد مسيو دسان — سيران ، كما سمى الآن ، على باريس وهو يتقد غيرة وتحمسا

لاصلاح اللاهوت والأخلاق ، وليستبدل التقوى الباطنة بالتدين الظاهر وسرعان ما قبل مرشدا روحيا للراهبات فى البور — رويال — دبارى ، وللمتوحدين فى البور — رويال دى — شان (١٦٣٦) ، وغدت هذه المؤسسة المزدوجة صوت الجانسنية ونموذجها الأمثل فى فرنسا . أما ريشليو فقد رأى فى هذا المصلح رجلا متعصبا مثيرا للقلاقل ، فاعتقله فى فانسين (١٦٣٨) . وفى ١٦٤٢ أفرج عن سان — سيران ، ولكنه مات بالفالج بعد سنة .

وقد ظل يلهم الكثيرين من آل آرنو حتى وهو فى سجنه . فنشر آرنو الثانى « آرنو الكبير » فى ١٦٤٣ رسالة فى « كثرة تناول الأسرار المقدسة » واصلت حرب أبيه مع اليسوعيين . ولم يذكر اسمهم صراحة ، ولكنه ندد بفكرة أحس بأن بعض الكهنة الاعتراف يتسامحون فيها ، وهى أن فى قدرة الخاطىء أن يكفر عن خطيئته المتكررة إذا أكثر من الاعتراف وتناول القربان . وشعر اليسوعيون بأنهم المقصودون بهذا الهجوم ، فشددوا النكير على آل آرنو . وتوقع أنطوان المتاعب ، فرحل عن باريس إلى البور — رويال — دى — شان . وفى ١٦٤٨ رحلت الراهبات أيضا عن العاصمة وقد روعتهن حرب الفروند وعدن إلى مقرهن القديم . وأخلى المتوحدون المكان وانتقلوا إلى مزرعة قريبة تدعى ليجرانج .

كان البابا أوربان الثامن قد أدان (١٦٤٢) العقيدة العامة التى انطوى عليها كتاب جانسن « أوغسطينوس » . وفى ١٦٤٩ طلب أستاذ فى السوربون إلى الكلية أن تدين سبع قضايا فى الكتاب رغم أنها تحظى برواج شديد . وأحيل الأمر إلى إنوسنت العاشر ، وانتهز اليسوعيون الفرصة ليقنعوا البابا بما تنطوى عليه الجانسنية من أخطار بوصفها لاهوتا كالفنيا يتخفى فى فى ثوب كاثوليكى . وأخيرا حملوه على إصدار مرسوم Cum occasione (٣١ مايو ١٦٥٣) ، حكم بالهرطقة على خمس قضايا زعم أنها مأخوذة من كتاب « أوغسطينوس » :

١ — هناك تعاليم الهية يعجز الصالحون عن طاعتها عجزا مطلقا رغم إرادتهم .

٢ — لايستطيع إنسان أن يقاوم تأثير النعمة الإلهية .

٣ — لكى تكون أعمال البشر أهلا أو غير أهل للمكافأة والتقدير لايشترط أن تكون خلوا من الضرورة القاهرة ، بل يكفى أن تكون بلا ضغط أو كبت .

٤ — هذه الهرطقة ، الشبيهة بهرطقة بيلاجيوس ، مؤداها السماح لارادة الإنسان بأن تمنح قوة مقاومة النعمة ، أو الامتثال لتأثيرها .

٥ — كل من زعم أن المسيح مات ، أو سفك دمه ، للبشر جميعا ، هو شبيه ببيلاجيوس(١٨) .

هذه القضايا لم تؤخذ حرفيا من كتاب « أوغسطينوس » ، ولكنها صيغت بقلم أحد اليسوعيين تلخيصا لتعليم هذا الكتاب . وهى كخلاصة فيها قدر لابأس به من الانصاف(١٩) ، ولكن الجانسنيين احتجوا بأن القضايا ، بهذا الوصف ، لاتوجد عند جانسن — وإن كان آرنو قد ألمع فى خبث إلى أنه يمكن العثور عليها كلها عند القديس أوغسطين . وفى غضون ذلك لم يقرأ الكتاب أحد فيما يبدو .

وكان أنطوان آرنو مقاتلا بالفطرة . فأقر بعصمة البابا فى أمور الإيمان والأخلاق ، لافى الأمور المتصلة بالحقيقة الواقعة ؛ ومن الحقائق الواقعه أنه أنكر أن جانسن قرر هذه القضايا المحكوم بإدانتها . وفى ١٦٥٥ عاد إلى مقاتلة اليسوعيين فى عقر دارهم بنشره « رسائل إلى دوق وبيل » ، وقد هاجم فيها الأساليب التى زعم أنها أساليب اليسوعيين فى كرسى الاعتراف ورحبت السوربون باقتراح بطرده . فأعد دفاعه ، وقرأه على أصحابه فى البور — رويال . فلم يقع من نفوسهم موقعا ذا بال ، وكان أحدهم

مريدا جديدا يدعى بليز بسكال. فاتجه إليه آرنو وأهاب به قائلا : « أنت أيها الشاب ، لم لا تكتب شيئا(٢٠) ؟ » واعتكف بسكال فى حجرته ، وكتب أول « رسائله الإقليمية » وهو من عيون الأدب والفلسفة الفرنسيين. وينبغى أن نستمع إلى بسكال فى شىء من الإسهاب ، لأنه لم يكن أعظم كتاب النثر الفرنسى فحسب ، بل ألمع المدافعين عن الدين فى عصر العقل بأكمله.

٤ - بسكال : ١٦٢٣ - ٦٢

١ — بسكال الإنسان

كان أبوه إتيين بسكال رئيسا لمحكمة المعاونين بكليرمون — فيران فى وسط فرنسا الجنوبى. وماتت أمه بعد مولده بثلاث سنين ، مخلفة فضلا عنه أختا أكبر منه تدعى جلبيرت وأخرى أصغر تدعى جاكلين. وانتقلت الأسرة إلى باريس حين بلغ بليز الثامنة. وكان إتيين يدرس الهندسة والفيزياء ، وقد أتاح له تفوقه فيهما أن يصادق جاسندى ، ومرسين ، وديكارت. وكان بليز يسترق السمع لبعض لقاءاتهم ، فأصبح فى الفترة الأولى من حياته عاشقا للعلم. فلما بلغ الحادية عشرة ألف رسالة قصيرة عن أصوات الأجسام المتذبذبة. وخيل للأب أن ولع الصبى بالهندسة سيلحق الأذى بدراساته الأخرى ، فحظر عليه حينا أن يمضى فى عكوفه على الرياضيات. ولكن حدث يوما — فيما روى — أن إتيين وجده يكتب على الحائط بقطعة من الفحم البرهان على أن زوايا المثلث الثلاث تساوى زاويتين قائمتين(٢١) ، وبعدها سمح للغلام أن يدرس اقليدس. وقبل أن يبلغ السادسة عشرة كتب بحثا فى القطاعات المخروطية فقد أكثره ، ولكن إحدى نظرياته كانت مساهمة خالدة فى ذلك العلم ، وما زالت تحمل اسمه. وحين عرضت مخطوطة البحث على ديكارت أبى أن يصدق أنه من وضع الابن لا الأب.

فى ذلك العام (١٦٣٩) لعبت أخته الجميلة جاكلين دوراً مثيراً فى حياة الأسرة ، وكانت آنئذ فى الثالثة عشرة . ذلك أن الأب كان قد استثمر بعض المال فى السندات البلدية ، وخفض ريشليو نسبة الفائدة التى تؤدى عن هذه السندات ، فانتقده إتيين ، وهدد الكردينال بالقبض عليه ، فاختبأ فى أوفرن . ولكن الكردينال كان يحب التمثيليات والبنات ، وقامت بعض الفتيات — ومنهن جاكلين — بتمثيل مسرحية سكوديرى « الحب الظالم » أمامه ، فشرح تمثيلها صدره ، واغتنمت هى الفرصة وتوسلت إليه أن يصفح عن أبيها ، ففعل ، وعينه ناظراً ملكياً فى روان عاصمة نورمنديه ، وإليها انتقلت الأسرة فى ١٦٤١ .

وهناك اخترع بليز أول آلاته الحاسبة العديدة المحفوظ بعضها إلى الآن فى كونسرفتوار الفنون والصنائع بباريس ، وكان يومها فى التاسعة عشرة . أما المبدأ الذى قامت عليه فهو سلسلة من التروس ينقسم كل منها إلى تسعة أرقام وصفر ، ويحرك كل منها ليدور عشر دورة نظير كل دورة كاملة للترس الذى إلى يمينه ، ويظهر كل منها رقمه الأعلى فى ثقب عند القمة . ولم تكن الآلة تستطيع غير الجمع ، ولا كانت عملية من الناحية التجارية ، ولكنها قربت من بداية تطور يثير اليوم دهشة العالم . وأهدى بسكال إحدى آلاته الحاسبة إلى كرستينا ملكة السويد ، مشفوعة بخطاب اطراء بليغ جداً ، فدعته إلى قصرها ، ولكنه أحس بأنه أضعف من أن يحتمل ذلك المناخ الرهيب .

وكان العالم الشاب المتحمس شديد الاهتمام بالتجارب التى نشرها تورتشيللى عن وزن الهواء ، وطرأت على خاطر بسكال فكرة كان فيها مستقلا عن تورتشيللى ، ولكن ربما استوحاها من اقتراح لديكارت(٢٢) ، ومؤداها أن الزئبق فى أنبوبة تورتشيللى يرتفع إلى مستويات مختلفة فى أماكن مختلفة ، حسب اختلاف الضغط الجوى . فطلب إلى زوج أخته فى أوفرن أن يحمل أنبوبة زئبق إلى قمة جبل ، ويلاحظ أى فرق — على مختلف

المستويات — فى ارتفاع الزئبق فى الجزء المقفل من أنبوبة فتح طرفها الآخر لضغط الهواء . وفعل فلوران بيرييه كما طلب إليه ، فى ١٩ سبتمبر ١٦٤٨ ارتقى مع بعض أصحابه « بوى ددوم » ، الذى يرتفع خمسة آلاف قدم فوق مدينة كليرمون — فيران ، وهناك ارتفع الزئبق إلى ثلاث وعشرين بوصة فى الأنبوبة ، بينما ارتفع عند سفح الجبل إلى ست وعشرين ، وهللت أوربا كلها للتجربة لأنها أثبتت نهائياً مبدأ البارومتر وقيمته .

وتلقى بسكال بفضل شهرته عالماً (١٦٤٨) نداء مثيراً من مقامر طلب إليه أن يضع قانوناً لرياضيات الحظ أو الصدفة ، فقبل التحدى ، واشترك مع فيرما فى وضع حساب الاحتمالات ، الذى ينتفع به الآن كثيراً فى جداول التأمين من المرض والموت . ولم تبد عليه فى هذه المرحلة من نموه أى بادرة بأنه سينتقل يوماً ما ولاءه من العلم إلى الدين ، أو يفقد إيمانه فى المنطق والتجريب ، وواصل العمل عشر سنين فى المعضلات العلمية لاسيما الرياضية منها ، وفى تاريخ متأخر (١٦٥٨) عرض جائزة من مجهول فى تربيع الدويرى — وهو الخط المنحنى الذى تحدثه نقطة على دائرة تدحرج على خط مستقيم فوق سطح مستو . وتقدم بالحلول واليس ، وهويجنز ، ورن ، وغيرهم ، ونشر بسكال بعد ذلك حله ، تحت اسم مستعار ، وأعقب ذلك جدل سلك فيه المتنافسون ، ومنهم بسكال ، مسلكا لم يتسم بالكثير من الفلسفة .

وتسلط على حياته خلال ذلك مؤثران أساسيان ، المرض والجانسنية . ذلك أنه منذ كان فتى فى الثامنة عشرة عانى من علة عصبية قل أن تركته يوماً بغير ألم . وفى ١٦٤٧ أقعدته إصابة بالشلل لم يستطع بسببها المشى إلا إذا توكأ على عكازين . كان رأسه يصدع ، وأمعاؤه تلتهب ، وساقاه وقدماه دائمة البرودة والحاجة إلى الوسائط المرهقة لتنشيط دورته الدموية ، وكان يلبس الجوارب الطويلة المنقوعة فى البراندى التماساً لدفء قدميه .

وكان مما حمله على الانتقال إلى باريس مع جاكلين أن يجد علاجاً طبياً أفضل ، وتحسنت صحته ، ولكن جهازه العصبي كان قد لحق به أذى مستديم . فأصبح منذ ذلك الحين عرضة لأوهام ازداد عمقها على الأيام حتى أثرت فى خلقه وفلسفته ، فبات سريع الإنفعال ، فريسة لنوبات من الغضب المتكبر الماتى ، وقل أن أشرق وجهه بابتسامة(٢٢) .

وكان أبوه طيلة حياته كاثوليكياً تقياً بل صارماً وسط شواغله العلمية ، وقد علم أبناءه أن الإيمان الديني أثمن ما يملكون ، وأنه شيء بعيد كل البعد عن متناول أو عن حكم قوى التفكير الضعيفة التى يملكها البشر . وفى روان أصيب الأب بجرح خطير فعالجه طبيب جانسنى بنجاح ، ومن هذا الاتصال اتخذ إيمان الأسرة مسحة جانسنية ، فلما انتقل بليز وجاكلين إلى العاصمة كثر اختلافهما إلى القداس فى البور — رويال — د — بارى ، ورغبت جاكلين فى دخول الدير راهبة ، ولكن أباها لم يستطع أن يروض نفسه على السماح لها بالخروج من حياته اليومية ، ولكنه مات عام ١٦٥١ ، وما لبثت جاكلين أن ترهبت فى البور — رويال — دى — شان ، بعد أن حاول أخوها عبثاً أن يثنيها عن عزمها .

وتنازعا حيناً على تقسيم ميراثهما ، فلما سوى النزاع وجد بليز نفسه رجلا غنياً حراً - وتلك حال مجافية لحياة التقوى ، فاتخذ لنفسه بيتاً فاخر الأثاث ، واستكثر من الخدم ، وجاب باريس فى مركبة تجرها خيول أربعة أو ستة(٢٤) . وأعطاه شفاؤه المؤقت شعوراً خداعاً بالنشاط والخفة حرفه من التقوى إلى اللذة . وعلينا ألا ننفسه على تلك السنوات القليلة التى قضاها « فى العالم » (١٦٤٨ — ٥٤) ، يستمتع بصحبة ظرفاء باريس وألعابها وحسانها ، ويطارد فى برهة مثيرة بأوفرن سيدة ذات جمال وثقافة ، وصفها بـ — « سافو الريف(٢٥) » . وحوالى هذه الفترة كتب « أحاديث فى آلام الحب » ويلوح أنه فكر فى الزواج — الذى سيصفه فى تاريخ لاحق بأنه « أحط ظروف الحياة المباحة لمسيحى(٢٦) » . وكان بعض أصحابه

خبرة جمعوا بين الحريتين ، حرية الأخلاق وحرية الفكر ، ولعلهم هم الذين أثاروا اهتمام بسكال بمونتيني ، الذى تغلغلت الآن « مقالاته » فى حياته . وأكبر الظن أن تأثيرها الأول عطفه نحو التشكك الدينى .

وبخته جاكلين حين نمى إليها نبأ عبثه الجديد ، وصلت لأجل صلاح حاله . وكان من خصائص طبيعته العاطفية أن تستجيب لصلواتها إثر حادث وقع له . ذلك أنه بينما كان ذات يوم يركب عربته فوق البون دنوبى جسر تيللى ، جمحت الخيول واندفعت فوق الحاجز إلى نهر السين . وكادت العربة أن تتبع الخيل ، ولكن العنان انقطع لحسن الحظ ، وتعلقت المركبة بنصفها فوق الحافة . وخرج منها بسكال وأصحابه ، ولكن الفيلسوف المرهف الحس أغمى عليه لفرط خوفه من الموت الداهم ، وظل برهة غائباً عن رشده . فلما أفاق شعر بأنه رأى الله فى رؤيا . وفى نشوة من الخوف والندم وعرفان الجميل سجل رؤياه على رق راح يحمله منذ تلك اللحظة مخيطا فى بطانة سترته : « السنة ١٦٥٤ بعد الميلاد ، الأثنين ٢٣ نوفمبر . . . من نحو السادسة والنصف مساء إلى النصف بعد منتصف الليل . أن الاله القديم ، إله إبراهيم ، وإله إسحق ، وإله يعقوب ، لا إله الفلاسفة والعلماء . اليقين ، اليقين ، الوجدان ، الفرح ، السلام . إله يسوع المسيح . . . لن يجده الإنسان إلا بالطرق التى يعلمها الإنجيل . ياسمو النفس الإنسانية ، أيها الآب العادل ، أن العالم لم يعرفك قط ، ولكنى عرفتك . إنه الفرح ، الفرح ، دموع الفرح . . . يا إلهى ، هل أنت تاركى ؟ يسوع المسيح . . . لقد فصلت عنه ، وهربت منه ، وتخليت عنه ، وصلبته . ليتنى لا أفارقه أبداً ، إنها المصالحة الحلوة الكاملة(٢٧) » .

وعاود زياراته للبور — رويال ولجاكلين ، وشرح صدرها بحالته النفسية الجديدة ، حالة التواضع والتوبة . واستمع إلى عظات أنطوان سانجلان . وفى ديسمبر ١٦٥٤ أصبح عضوا فى جماعة البور — رويال(٢٨) . وفى يناير كان له هناك حديث طويل مع سامى ، الذى آلى على نفسه أن

يقنعه بسطحية العلم وعقم الفلسفة . وآنس آرنو ونيكول من العضو الجديد حماسة فى الاهتداء وبراعة فى التعبير الأدبى تبدوان وكأنهما اداة وضعتها العناية فى أيدى الجماعة للدفاع عن البور — رويال ضد اعدائه . فطلبا إليه أن يخصص قلمه للرد على اليسوعيين الذين كانوا يحاولون تصوير الجانسنية على انها خطيئة . وأستجاب للطلب فى ذكاء وقوة بلغا مبلغا جعل جماعة اليسوعيين تشكو إلى اليوم من وخز بسكال الأليم .

ب ـ الرسائل الأقليمية

فى ٢٣ و ٢٦ يناير ١٦٥٦ نشر بسكال الرسالتين الأولى والثانية مما سماه « رسائل كتبها لوى دمونتالت » (وهو اسم مستعار) « إلى صديق فى الأقاليم » وإلى الآباء اليسوعيين المبجلين » عن أخلاقياتهم وسياساتهم » . وكان إطارها ذكيا ، فقد زعم إنها تقرير من باريس إلى صديق فى الأقاليم عن المسائل الخلقية واللاهوتية التى كانت يومئذ تثير الأوساط الفكرية والدينية فى العاصمة . وقد زود آرنو ونيكول بسكال بالحقائق والمراجع . أما هو فقد أبدع ذلك الأسلوب الأدبى الذى استشرف مستوى جديداً فى النثر الفرنسى ، فقـــد توافرت لبسكال حماسة المؤمن الجديد وذكاء رجل الدنيا وتهذيبه .

أما الرسائل الأولى فقد التمست التأييد العام لآراء الجانسنيين فى النعمة الالهية والخلاص ، وهى الآراء التى دافع عنها آرنو من قبل ، وقد قصد بها أن تؤثر فى السوربون لتمارض الاقتراح بطرد آرنو . وقد فشلت فى هذا ، إذ جرد آرنو رسميا من لقبه وطرد (٣١ يناير) . وحفز الفشل بسكال وآرنو إلى الهجوم على اليسوعيين لأنهم يقوضون الفضيلة بما يعيب آباء اعترافهم من تحلل ، وما يشوب فتاواهم من ثغرات . وقد نقبا فى مؤلفات إيسكوبار وغيره عن اليسوعيين ونددا بمبادىء « الاحتمالية » و « التوجيه بالنيه » و « التحفظ العقلى » ، وحتى بتوفيق المرسلين اليسوعيين بين

اللاهوت المسيحي وعباده الصينيين لأسلافهم(٢٩) . وإن لم يتهما اليسوعيين صراحة بتبرير الوسائط لبلوغ الغايات . وكان هذا المهدى يزداد حماسة كلما توالت الرسائل وكشف له آرنو عن المزيد من فتاوى إيسكوبار . وبعد الرسالة العاشرة أقلع عن أكذوبة الباريسى كاتب الرسائل للإقليمى ، وأماط اللثام عن شخصه ، ووجه الخطاب إلى اليسوعيين رأساً فى بلاغة تضطرم سخطا ، وذكاء يفيض تهكما . وكان ينفق أحياناً عشرين يوماً فى تحرير رسالة واحدة ، ثم يسرع بها إلى المطبعة قبل أن يفتر اهتمام الجمهور . وقد اعتذر عن طول الرسالة السادسة عشرة بعذر فريد فى بابه ، إذ قال «لم يتسع لى الوقت لاختصارها(٣٠) » . وفى الرسالة الثامنة عشرة والأخيرة (٢٤ مارس ١٦٥٧) تحدى البابا نفسه . ذلك أن البابا الإسكندر السابع أصدر (١٦ أكتوبر ١٦٥٦) تنديدا آخر بالجانسنية ، فذكر بسكال قراءه بأن حكم البابا عرضة للخطأ ، كما أخطأ فى حالة جاليليو (٣١) (وذلك شعور بسكال) . وأدان البابا الرسائل (٦ سبتمبر ١٦٥٧) ولكن فرنسا المثقفة كلها قرأتها .

أكانت الرسائل منصفة لليسوعيين ؟ أنقلت المختارات عن الكتاب اليسوعيين نقـــلا أمينا ؟ قال عقلانى مثقف « صحيح ولا ريب أن بعض العبارات المعدلة حذفت أحيانا دون موجب ، وأن عبارات أخرى ترجمت ترجمة خاطئة ، وأن ضغط الفقرات الطويلة فى جمل قصيرة يشعرك فى بعض الحالات بأن فى هذا إجحافا بالمؤلف » ثم يقول « ولكن هذه الحالات قليلة وغير هامة نسبيا »(٣٢) وهناك الآن إجماع على أن المختارات دقيقة فى جوهرها (٣٣) على أنه لا بد من التسليم بأن بسكال انتزع أشد فقرات بعض المفتين إزعاجاً وشبهة من سياقها ، وقاد شطراً من الجمهور إلى رأى فيه غلو كثير ، مؤداه أن هؤلاء الفقهاء اللاهوتيين يتآمرون على هدم أخلاق العالم المسيحى . وقد أطرى فولتير براعة الرسائل بوصفها أدبا ، ولكنه رأى أن « الكتاب كله مبنى على أساس زائف . فقد نسب المؤلف فى حذق إلى الجماعة اليسوعية

كلها الآراء المتطرفة التى قال بها بعض اليسوعيين الأسبان والفلمنك(٣٤) » ، الذين خالفهم كثير من اليسوعيين . وأسف دللبير لأن بسكال لم يتهكم بالجانسنيين أيضا ، لأن « تعاليم جانسن وسان سيران المروعة كانت تتيح على الأقل مجالا للسخرية لا يقل عما أتاحته التعاليم الطيعة التى نادى بها موليا وتامبوران وفاسكويز(٣٥) » .

وكان تأثير « الرسائل » هائلا . صحيح أنها لم تخضد لتوها شوكة اليسوعيين — ومن المؤكد أنها لم تنتقص من سلطانهم على الملك — ولكنها فضحت شطط المفتين فضحاحمل الاسكندر السابع نفسه على إدانة « التحلل » ، رغم مواصلته معارضة الجانسنية ، وعلى الأمر بمراجعة نصوص الفتاوى (١٦٦٥ - - ٦٦)(٣٦) . و « الرسائل » هى التى أضفت على كلمة الافتاء الدينى « Casuistry » مدلول التشقيقات الخداعة المظهر التى تدافع عن الأفعال أو الأفكار الخاطئة . ثم إنها أضافت آية من آيات الأسلوب إلى ذخيرة الأدب الفرنسى . وكأن فولتير قد عاش قرنا قبل فولتير . فهنا ذكاء فولتير المرح ، وتهكمه البتار ، وفكاهته الشكاكة ، وقدحه العنيف ، وفى الرسائل اللاحقة ذلك الاستنكار الحار للظلم ، الذى أنقذ فولتير من أن يكون موسوعة سخرية وتهكم . وقد وصف فولتير نفسه الكتاب بأنه « خير ما كتب وظهر فى فرنسا إلى الآن »(٣٧) ، وكان رأى أنفذ النقاد قاطبة وأكثرهم رهافة وتميزا أن بسكال « ابتكر النثر الرائع فى فرنسا(٣٨) » وحين سئل بوسويه أى كتاب كان يؤثر أن يؤلف لو لم يؤلف كتابه قال ، إنه رسائل بسكال الإقليمية(٣٩) .

حـ — فى الدفاع عن الإيمان

عاد بسكال إلى باريس فى ١٩٥٦ ليشرف على نشر « الرسائل » ، وعاش هناك طوال السنوات الست الباقية من عمره . على أنه لم يهجر العالم ، ففى سنة

موته ذاتها شارك فى تنظيم خدمة منتظمة بالمركبات فى العاصمة ـ وهى البذرة لشبكة الأمنوبيسات الحالية . ولـكن حدثين وقعا له جددا تقواه ، وحملاه على أن يتوج أعماله بكتاب جديد أسهم به فى الأدب والدين . ذلك أنه فى ١٥ مارس ١٦٥٧ حصل اليسوعيون من الملـكة الأم على أمر بإغلاق مدارس الموحدين وحظر قبول المزيد من الأعضاء فى البور ـ رويال . وأطيع الأمر فى هدوء ، وأرسل الأطفال ـ وكان من بينهم راسين ـ إلى بيوت الأصدقاء ، وتفرق المعلمون محزونين . وبعد تسعة أيام (وهو تاريخ صدور آخر الرسائل الإقليمية) وقع مابدا معجزة فى كنيسة دير الراهبات الذى تـكدر صفوه . ذلك أن ابنة أخت بسكال البالغة من العمر تسع سنوات ، واسمها مارجريت بيرييه ، كانت تشكو من ناسور دمعى مؤلم يرشح صديدا كريها من العينين والأنف . وأهدى أحد أقرباء الأم أنجليك للبور ـ رويال شوكة زعم هو وغيره أنها أخذت من إكليل الشوك الذى عذب به المسيح . وفى ٢٤ مارس وضعت الراهبات الشوكة على مذبحهن فى احتفال مهيب وسط ترتيل المزامير . ولثمت كل منهن الأثر المقدس بدورها ، ولما رأت إحداهن مارجريت بين العابدات أخذت الشوكة ولمست بها قرحة الفتاة . وروى أن مارجريت أعربت ذلك المساء عن دهشتها لأن عينها لم تعد تؤلمها ، وأدهش أمها ألا ترى أثرا للناسور ، وقرر طبيب دعى لفحص الفتاة أن الصديد والورم قد اختفيا . وأذاع هو ، لا الراهبات ، نبأ هذا الذى سماه شفاء معجزا . ووقع سبعة أطباء آخرون كانوا على علم سابق بناسور مارجريت بيانا قرروا فيه أن معجزة ـ فى رأيهم ـ قد حدثت . وبحث موظفو الاسقفية الأمر ، وانتهـــوا إلى نفس النتيجة ، وأذنوا بإقامة قداس شـكر لله فى البور ـ رويال . وتقاطرت جماهير المؤمنين على الدير ليروا الشوكة ويقبلوها ، وهللت باريس الـكاثوليـكية كلها للمعجزة ، وأمرت الملـكة الأم بالـكف عن كل اضطهاد للراهبات . وعاد المتوحدون إلى ليجرانج . (فى عام ١٧٢٨ أشار البابا بندكت الثالث عشر إلى هذا الحدث على أنه دليل

على أن عصر المعجزات لم ينته) . أما بسكال فقد صنع لنفسه شمار نبالة كان عبارة عن عين يحيط بهــا إكليل من الشوك ، وقد كتب عليه Scio cui credidi — « أعرف من صدقت(٤٠) ».

وعــكف الآن على كتابة دفاع مفصل عن الإيمان الديني يــكون بمثابة وصيته الأخيرة . ولــكن قصارى ما وجد فى نفسه القدرة عليه هو أن يدون فى إيجاز خواطر منفصلة يجمع بينها فى ترتيب اجتهادى ولــكنه قوى . ثم عاودته أوجاعه القديمة (١٦٥٨) ، فى شدة أعجزته إلى النهاية عن أن يضفى على هذه المذكرات تسلسلا متماسكا أو شــكلا بنائيا . فلما مات قام صديقه الدوق دروانيه وعلماء البور — رويال بتحرير ونشر هــذه المادة وسموها « خواطر المسيو بسكال عن الدين وغيره من المسائل (١٦٧٠) » . وقد خشوا أن تفضى هذه « الخواطر » المبتورة التى خلفها بسكال إلى التشكك لا إلى التقوى ، ومن ثم أخفوا الأجزاء المتشكــكه ، وأدخلوا تعديلا على بعض ما بقى مخافة أن يسىء إلى الملك أو الــكنيسة لأن اضطهاد البور ــ رويال كان قد توقف فى تلك الفترة ، وكره المحررون تجــدد الجدل . ولم تنشر « خواطر » بســكال Pensées فى نصها الــكامل الموثوق إلا فى القرن التاسع عشر .

ولو شئنا أن نغامر بغرض ترتيب عليها لجعلنا نقطة بدايتها فلك كوبرنيق . ونحن نشعر ثانية — إذ نصغى إلى بسكال — باللطمة الهائلة التى كان فلك كوبرنيق وجاليليو يكيلها للمسيحية التقليدية :

« ليتأمل الإنسان الطبيعة كلها فى جلالها الــكامل السامى ، ليقص عن بصره الأشياء الوضيعة التى تحيط به ، ولينظر إلى ذلك النور المتوهج الذى وضع كأنه مصباح ابدى ينير العالم ، ولتبد الأرض له مجرد نقطة داخل الدائرة الشاسعة التى يرسمها ذلك النجم ، وليأخذه العجب من أن هذا المحيط الهائل إنما هو نقطة ضئيلة من زاوية النجوم التى تتحرك فى قبــة السماء .

فإذا توقف بصرنا عند هذا الحد ، فليجاوزه الخيال ... فكل هذا العالم المرئى ليس إلا عنصرا لايدرك فى صدر الطبيعة العظيم . ولا يستطيع أى تفكير أن يمتد إلى هذاالمدى ... إنها كرة لانهائية مركزها فى كل مكان ، ومحيطها فى غير مكان(٤٢) . هذا أكثر مظهر قابل للإدراك من مظاهر قدرة الله ، حتى أن خيالنا يتوه فى هذا الخاطر » .

ثم يضيف بسكال فى سطر شهير مطبوع بحساسيته الفلسفيه ، « ان الصمت الأبدى الذى يلف هذا الفضاء اللانهائى يخيفنى(٤٣) » .

ولكن هناك لانهائية أخرى — وتلك هى لانهائية صغر الذرة « التى لاتقبل الانشطار » وقبولها النظرى للانقسام قبولا لاحدله ، فمهما كانت ضآلة الحد الأدنى الذى نختزل به أى شىء ، فإننا لانملك إلا الاعتقاد بأنه هو أيضا له أجزاء أصغر منه . وعقلنا يتذبذب فى حيرة وارتياع بين الشاسع غير المحدود ، والدقيق غير المحدود .

« إن من يتأمل نفسه على هـذا النحو تخيفه نفسه ، وإذا أدرك أنه معلق ... بين هاويتى اللانهائية والعدم ، ارتعد فرقا ... وبات أميل إلى تأمل هذه العجائب فى صمت منه إلى ارتيادها بغرور . فما الإنسان فى الطبيعة ، بعد كل شىء ....؟ انه العدم إذا قيس بغير المحدود ، وهو كل شىء إذا قيس بالعدم ، إنه وسط بين العدم والـكل . وهو بعيد كل البعد عن إدراك الطرفين ، فنهاية الأشياء وبدايتها أو أصلها ، يلفهما سر لاسبيل إلى استكناهه ، وهو عاجز على السواء عن رؤية العـــدم الذى أخذ منه ، واللانهائى الذى يغمره(٤٤) . (*)

(*) يقول سانت بيف « ليس فى اللغـة الفرنسية صفحات أروع من الخطوط البسيطة الصارمة التى تحتويها هذه الصورة التى لانظير لها »(٤٥) .

فالعلم إذن ما هو إلا ادعاء غبي . فهو مبني على العقـــل ، المبني على الحواس ، التي تخدعنا بعشرات الطرق . وهو محدود بالحدود الضيقة التي تعمل حواسنا داخلها ، وبقصر عمر الجسد قصراً قابلا للفساد . وإذا ترك العقل لذاته لم يستطع أن يفهم — أو يعطى أساساً مكينا للفضيلة ، أو الأسرة ، أو الدولة ، فكيف بادراك طبيعة العالم ونظامه الحقيقيين ، فضلا عن فهمه لله . وفي العرف ، لا بل في الخيال والأسطورة ، حكمة أكثر مما في العقل و « أحكم العقول يتخذ تلك المبادىء ، التي أدخلها خيال الإنسان بتعجل في كل مكان ، مبادىء له(٤٦) » وهناك نوعان من الحكمة : حكمة الجماهير البسيطة « الجاهلة » ، التي تعيش بحكمة التقاليد الموروثة والخيال (أي الطقوس والأساطير) ، وحكمة الحكيم الذي نفذ إلى صميم العلم والفلسفة ليدرك جهله(٤٧) . إذن « لاشىء أروح للعقل من أن ينبذ العقل » و « الاستخفاف بالفلسفة ملاك الفيلسوف الأصيل(٤٨) » .

ومن ثم رأى بسكال أنه ليس من الحكمة إقامة الدين على العقل ، كما حاول حتى بعض الجانسنيين ، أن يفعلوا . فالعقل لا يستطيع أن يثبت وجود الله ، ولا الخلود ، لأن الأدلة في الحالين شديدة التناقض . كذلك لا يصلح الكتاب المقدس أساسا نهائيا للإيمان ، لأنه حافل بالفقرات الملتبسة أو الغامضة ، وربما كان للنبوءات التي يفسرها الأتقياء على أنها تشير إلى المسيح دلالة مختلفة(٤٩) . أضف إلى ذلك أن الله في الكتاب المقدس يتكلم بالأرقام ، التي يضللنا مدلولها الحرفي ، والتي لا يدرك معناها الحقيقي إلا من وهبوا النعمة الآلهية . « أننا لن نفهم شيئاً من أعمال الله مالم نؤمن بهذا المبدأ ، وهو أنه تعالى يشاء أن يعمى البعض وينير بصائر البعض(٥٠) . (وهنا يبدو أن بسكال يقبل حرفياً قصة يهوه وهو يقسى قلب فرعون) .

ولو اعتمدنا على العقل لوجدنا غير المفهوم أينما تلفتنا . فمن ذا الذي يستطيع أن يفهم ، في الإنسان ، ذلك الاتحاد والتفاعل بين جسد واضح

المادية وذهن واضح اللامادية ؟ «فليس هناك شيء أشد استحالة على التصور من أن تعى المادة نفسها(٥١) » . إنهم الفلاسفة الذين ملكوا أهواءهم — « وأى مادة تستطيع أن تفعل هذا (٥٢)؟ » . وطبيعة الإنسان ، التي يمتزج فيها الملاك بالوحش امتزاجاً شديداً ، تكرر (٥٣) التناقض بين العقل والجسد ، وتذكرنا بالكمير الذي زعمت الأساطير اليونانية أنه عنزة لها رأس أسد وذيل ثعبان .

« يا لهذا الإنسان من كمير! ياله من بدعة ، ووحش ، وفوضى ، وتناقض ، ومعجزة ! هذا الحكم في كل الأشياء ، ونموذج الغباء في الأرض ، مستودع الحق ، وبالوعة الضلال والشك ، مفخرة الكون ونفايته . فمن ذا الذي يحل لنا هذا اللغز المعقد(٥٤)؟ » .

ان الإنسان — من الناحية الخلقية — لغز غامض . فكل ضروب الاثم تبدو مستترة فيه . «ما الإنسان إلا مخلوق خداع للظهر ، كذوب ، منافق ، مع نفسه ومع غيره(٥٥) » . «كل الناس بطبيعتهم يكره بعضهم بعضاً ، ولن نجد أربعة أصدقاء في العالم(٥٦) » . « ما أفرغ قلب الإنسان وما أحفله بالقذر »(٥٧) ثم يا لغروره الذي لا قرار له ولا شبع ، «ما كنا لنركب البحر أبداً لولا حلمنا بأننا سوف نروى قصتنا . . . أننا نفقد الحياة مغتبطين شريطة أن يتحدث الناس بما فعلنا . . . وكل الناس ، حتى الفلاسفة ، يتمنون أن يكون لهم معجبون(٥٨) » . ومع ذلك فإن من جوانب عظمة الإنسان أنه من شره ، وكرهه ، وغروره ، أنشأ دستورا من القوانين والأخلاق ليسيطر على شره ، واشتق من شهوته مثلا أعلى في الحب(٥٩) .

وشقاء الإنسان لغز آخر . فلم شقى الكون هذا الشقاء الطويل لينجب نوعا من الخليقة شديد الهشاشة في سعادته ، كثير التعرض للألم في كل عصب ، وللحزن في كل حب ، وللموت في كل حياة؟ ومع ذلك فإن «جلال الإنسان عظيم في معرفته أنه شقى(٦٠) » .

«ما الإنسان إلا قصبة ، وهي أوهى ما في الطبيعة ، ولكنه قصبة مفكرة .

والـكون كله لا حاجة به لأن يتسلح لـكي يسحقه ، فنفخة بخار ، أو قطرة ماء ، تـكفي لقتله — ولـكنه ، بعد أن يسحقه الـكون ، لا يزال أنبل من هذا الذي يقتله ، لأنه يعرف أنه مفارق الحياة ، أما الـكون فلا يعرف شيئاً عن انتصاره على الإنسان(٦١) » .

وليس من هذه الألغاز لغز يجد في العقل جواباً له . ولو ركنا إلى العقل وحده لحـكمنا على أنفسنا بـ « بيروونية » تتشـكك في كل شيء إلا الألم والموت ، والفلسفة لا تستطيع على أحسن الفروض إلا أن تـكون تبريراً عقلانياً للهزيمة . ولـكننا لا نستطيع أن نؤمن بأن قدر الإنسان هو كما يراه العقل — أن يـكافح ، ويتعذب ، ويموت ، بعـــد أن ينجب آخرين ليـكافحوا ، ويتعذبوا ، ويموتوا ، جيلا بعد جيل ، في افتقار للهدف ، وغباوة ، وحقارة هائلة . فنحن في قرارة نفوسنا نشعر بأن هذا لا يمـكن أن يكون صحيحاً ، وبأنه تجديف ما بعده تجديف أن نظن أن الحياة والـكون بلا معنى . فالله ومعنى الحياة يجب أن يشعر بهما القلب لا العقل . « فإن للقلب مبرراته التي لا يعرفها العقل(٦٢) . » ، وخيراً نفعل أن أصغينا إلى قلوبنا وإن « وضعنا إيماننا في الوجدان(٦٣) » . ذلك أن كل إيمان ، حتى بالأمور العملية ، إنمـــا هو ضرب من الإرادة ، وتوجيه للانتباه والرغبة» (إرادة الإيمان) . والتجربة الصوفية أعمق من شهادة الحواس أو حجج العقل .

أي جواب إذن عند الوجدان يجيب به عن ألغاز الحيـاة والفـكر ؟ الجواب هو الدين . فالدين وحده يستطيع أن يرد للحياة معناها ، وللإنسان نبله ، وبدونه نتخبط أعمق حتى من تخبطنا الأول في إحباط عقلي وعقم مميت . فالدين يعطينا كتابا مقدساً ، والـكتاب ينبئنا بسقوط الإنسان من النعمة ، وهذه الخطيئة الأصلية هي دون غيرها التي تستطيع أن تفسر ذلك الجمع الغريب في الطبيعة البشرية بين الـكره والحب ، وبين الشر الوحشي واشتياقنا للخلاص ولله . فاذا سمحنا لأنفسنا بأن نؤمن (مهما بدت سخافة

هذا الإيمان للفلاسفة) بأن الإنسان بدأ بالنعمة الإلهية ، وأنه فقدها بالخطيئة ، وأنه لا خلاص له إلا بالنعمة الإلهية عن طريق المسيح المصلوب ، وجدنا بعد هذا سلاماً عقليا لا يوهب للفلاسفة أبدا . والذى لا يستطيع الإيمان ملعون ، لأنه يعلن بكفره أن الله لم يشأ أن يمنحه النعمة .

والإيمان رهان حكيم . وهب أن الإيمان لا يمكن إثباته ، فأى ضير إن قامرت على حقيقته ثم اتضح بطلانه ؟ « لزام عليك أن تراهن ، وليس لك فى هذا خيار ... فلتوازن بين المكسب والخسارة فى الرهان على وجود الله ... أنك إن كسبت كسبت كل شىء ، وان خسرت لم تخسر شيئاً . فراهن إذن دون تردد على أنه تعالى موجود(٦٤) » . فاذا وجدت أول الأمر أن الإيمان صعب عليك فاتبع عادات وطقوس الكنيسة كأنك تؤمن حقا . « تبرك بالماء المقدس ، واطلب تلاوة القداديس ، وهلم جرا ، وهذا كفيل بأن يجعلك تؤمن بطريقة بسيطة طبيعية ، وبأن يهدئك » — سيهدىء من عقلك المغتر بقدرته النقادة(٦٥) . واعترف وتناول القربان ، وستجد فى هذا راحة وقوة(٦٦) .

ونحن نظلم هذا الدفاع التاريخى إذا تركناه يختتم على هذه النغمة غير البطولية . فلنا أن نثق بأن بسكال حين آمن لم يؤمن كأنه مقامر يلتمس حيرتها ود وختها الحياة ، كانسان أدرك فى تواضع أن عقله الذى أذهل ذكاؤه الصديق والعدو ، ليس كفؤا للكون ، ووجد فى الإيمان السبيل الوحيد ليضفى على ألمه المعنى والمغفرة . يقول سانت — بيف « ان بسكال رجل مريض ، وعلينا أن نذكر هذا على الدوام ونحن نقرؤه(٦٧) » ولكن بسكال لو ووجه بهذا الراى لأجاب : السنا كلنا مرضى ؟ فليرفض الإيمان كل من اكتملت له السعادة . ليرفضه كل من لم يقنع بمعنى فى الحياة اكثر من انها مسار عاجز من ميلاد قذر إلى موت إليم .

« تصور نفرا من الناس يرسفون فى الأغلال وقد حكم عليهم جميعا

بالموت ، وفى كل يوم يشنق بعضهم على مرأى من الباقين، والباقون يتبينون حالهم فى حال زملائهم ، ويتبادلون نظرات الحسرة واليأس ، وينتظر كل منهم دوره . هذه صورة لحالة الإنسان(٦٨) » .

فكيف السبيل إلى التعويض عن هذه المذبحة البشعة التى نسميها التاريخ إلا بالإيمان بأن الله سيصحح الأخطاء كلها فى النهاية ، سواء استند هذا الإيمان إلى دليل أو لم يستند ؟ .

وقد تحمس بسكال فى محاجته لأنه لم يفق قط إفاقة حقيقية من الشكوك التى أوحى بها إليه موتتينى ، وملحدو « السنوات التى قضاها فى العالم » ، وحياد الطبيعة القاسى بين « الشر » و « الخير » .

« ذلك ما أراه وما يقض مضجعى . فأينما تلفت لم أجد غير الغموض والابهام . ولا تقدم لى الطبيعة إلا ما يحتمل الشك والقلق . فلو أننى لم أر علامات على وجود إله لثبت على الإنكار . ولو رأيت آثار الخالق فى كل مكان لسكنت إلى الإيمان فى هدوء وسلام . ولكنى فى حالة يرثى لها لأننى أرى أكثر كثيراً مما يبرر إنكار وجوده تعالى ، وأقل كثيراً مما يطمئننى على وجوده . ولقد طالما تمنيت أن تعلن الطبيعة عن وجوده دون لبس أو غموض ما دام هذا الإله حافظها(٦٩) » .

وحالة القلق العميق هذه ، والقدرة المعطلة على رؤية الجانبين ، هى التى تجعل بسكال يستهوى المؤمنين والشاكين على السواء . فلقد شعر هذا الرجل بغيظ الملحد من الشر ، وبثقة المؤمن فى انتصارا لخير ، ولقد عبر من تدوعات موتتينى وشارون الذهنية إلى التواضع المغتبط الذى أحس به القديسان فرانسيس الأسيسى وتوماس أكمبيس . وهذه الصرخة المنبعثة من أعماق الشك ، وهذه الصياغة لإيمان ضد الموت ، هما اللذان يجعلان « خواطر » بسكال أبلغ الكتب قاطبة فى النثر الفرنسى . لقد أصبحت الفلسفة أدبا للمرة الثالثة فى القرن السابع عشر ، لا فى تركيز بيكون المادى ،

ولا فى ألفة ديكارت السارة ، بل فى القوة العاطفية لشاعر يحس بالفلسفة ، ويكتب لقلبه بدمه . فى قمة العصر الكلاسيكى علا هذا النداء الرومانسى ، وبلغ من القوة ما أتاح له أن يعمر بعد بوالو وفولتير ، وأن يسمعه عبر قرن من الزمان روسو وشاتوبريان . فهنا ، فى صبيحة عصر العقل ، وفى عقود هوبز وسبينوزا ذاتها ، وجد العقل منازلا له فى رجل محتضر .

روت مدام بيرييه ، شقيقة بسكال ، أنه كان فى سنيه الأخيرة يعانى من « علل مستديمة متفاقمة(٧٠) » وانتهى به الأمر إلى الرأى بأن « المرض هو الحالة الطبيعية للمسيحيين(٧١) » . وكان أحيانا يرحب بآلامه لأنها تصرفه عن المغريات . قال « إن ساعة من الألم تعلم أفضل من كل الفلاسفة مجتمعين(٧٢) » . وقد هجر كل اللذات ، وعكف على ممارسة النسك ، وجلد نفسه بحزام ثبتت فيه مسامير من حديد(٧٣) . ووبخ مدام بيرييه لأنها تسمح لأبنائها بعناقها . وعارض فى زواج ابنتها قائلا : « إن حالة الزوجية ليست خيرا من الوثنية فى نظر الله(٧٤) » . ولم يسمح لإنسان فى حضرته أن يتحدث عن جمال المرأة .

وفى عام ١٦٦٢ ، آوى أسرة فقيرة فى بيته صدقة من صدقاته الكثيرة . فلما أصيب أحد الأطفال بالجدرى انتقل بسكال إلى بيت شقيقته بدلا من أن يطلب إلى الأسرة أن تغادر بيته . ولم يمض طويل وقت حتى لزم فراشه وقد حطمته الآلام المعوية . وكتب وصيته ، فترك نصف ثروته تقريبا للفقراء . واعترف لكاهن ، وتناول القربان الأخير ، ثم لفظ أنفاسه إثر تقلصات عنيفة ، فى ١٩ أغسطس ١٦٦٢ وهو لا يجاوز الأربعين . ولما شرحت جثته وجد أن معدته وكبده مريضتان ، وأن فى أمعائه قرحا(٧٥) . وقال الأطباء أن مخه « ضخم الحجم جدا ، وأن مادته جامدة مكثفة » ولكن خطا واحدا فقط من خطوط الاتصال بين عظام الجمجمة هو الذى كان مقفلا قفلا سليما ، ولعل هذا هو السر فى نوبات الصداع الرهيبة التى ابتلى بها .

ووجد على لحاء المخ منخفضان « كبيران كأنهما صنعا بأصابع وضعت فى الشمع »(٧٦) وقد دفن فى كنيسة أبرشيه سانت اتيين — دومون .

٥ — البور - رويال : ١٦٥٦ — ١٧١٥

شددت « الرسائل الاقليمية » من عزم اليسوعيين والأساقفة على قمع الجانسنية باعتبارها بروتستنتية مقنعة . فأصدر البابا الاسكندرية السابع (١٦ أكتوبر ١٦٥٦) استجابة لإلحاح الأساقفة الفرنسيين مرسوماً بابوياً يلزم جميع رجال الكنيسة الفرنسيين بالتوقيع على الصيغة التالية :

« إنى أخضع بإخلاص لدستور البابا أنوسنت العاشر ، المؤرخ ٣١ مايو ١٦٥٣ ، حسب معناه الحقيقى الذى حدده دستور أبينا الأقدس البابا الإسكندر السابع المؤرخ ٦ أكتوبر ١٦٥٦ ، وأقر بأنى ملتزم فى ضميرى بطاعة هذين الدستورين ، وأدين بقلبى وفى التعليم الوارد فى قضايا كورنيلس جانسن الخمس المحتواة فى كتابه المعنون « أوغسطينوس » .

وامتنع مازاران عن فرض التوقيع على هذه الصيغة ، ولكن فى ١٣ أبريل ١٦٦١ ، عقب موت مازاران ، أذاع لويس الرابع عشر الأمر ، وقدم وكيل أسقفية من أصدقاء الجماعة لهذه الصيغة ببيان توفيقى ، فوقعها آرنو وللتوحدون فى هذه الصورة ، ونصحوا راهبات البور - رويال بالحذو حذوهم ، ولكن الأم أنجليك — التى كانت طريحة الفراش لإصابتها بالاستسقاء — رفضت التوقيع وثبتت على الرفض إلى أن ماتت فى السبعين فى ٦ أغسطس ١٦٦١ ، وكذلك رفض بسكال وشقيقته جاكلين ، التى أصبحت وكيلة الدير . وقالت جاكلين : مادام الأساقفة لا يملكون من الشجاعة إلا شجاعة الفتيات ، فلابد أن يكون للفتيات شجاعة الأساقفة(٧٧) » وأخيراً وقعت كل الراهبات الباقيات على قيد الحياة ، ولكن جاكلين

التى أضلتها مقاومتها الطويلة ماتت فى ٤ أكتوبر وهى لا تجاوز السادسة والثلاثين ، وتلاها بسكال بعد عام واحد .

واستنكر الملك خلال ذلك الديباجة الموفقة وأصر على أن يوقع الراهبات الصيغة دون أى إضافة أو تغيير ، ونقل القليلات اللاتى وقعن إلى البور — رويال فى باريس ، ولكن أغلبية الراهبات ، تتزعمهن الأم آنييس ، صرحن بأنه ليس فى وسعهن التوقيع بضمير خالص على وثيقة تناقض معتقداتهن أشد مناقضة . وفى أغسطس ١٦٦٥ حرم رئيس الأساقفة الراهبات السبعين وأخواتهن العلمانيات الأربع عشرة من تناول الأسرار المقدسة ، وحظر عليهن أى اتصال بالعالم الخارجى . وخلال السنوات الثلاث التالية ، كان أحد الكهنة المتعاطفين مع الراهبات يتسلق أسوار البور — رويال — دى شان ليناول الراهبات المحتضرات قربانهن الأخير . وفى ١٦٦٦ قبض على ساسى ، ولوميتر ، وثلاثة آخرين من المتوحدين بأمر الملك ، أما آرنو الذى تنكر وراء شعر مستعار وسيف ، فقد آوته الدوقة لونجفيل ، التى كانت تخدمه بنفسها أثناء اختبائه (٧٨) . وتبنت هى وغيرها من النبيلات قضية الراهبات ، وأقنعن لويس بأن يلين ؛ وفى ١٦٦٨ أصدر البابا كلمنت التاسع مرسوماً جديداً صيغ فى لبس حكيم يسمح لجميع الأطراف بقبوله ، وأفرج عن السجناء ، وردت الراهبات المنشقات إلى البور — رويال — دى شان ، وعادت الأجراس تدق فى الدير بعد أن صمتت ثلاث سنين . واستقبل الملك آرنو استقبالا ودياً ، وكتب هذا كتاباً ضد الكلفنيين ، ولكن نيكول كتب كتاباً آخر ضد اليسوعيين .

ودام « سلام الكنيسة » أحد عشر عاماً ، ثم ماتت مدام لونجفيل ، ومات معها السلام . وإذ بدأ الملك يشيخ ، وانقلبت انتصاراته هزائم ، استحال دينه خليطا من التعصب والخوف ، وساءل نفسه ، أكان الله يعاقبه على تسامحه مع الهرطقة ؟ واتخذ بغضه للجانسنية طابعاً شخصياً ، ومن الأمثلة على هذا

التحول أن لويس رفض تعيين رجل يدعى فونبيرتوى فى احدى الوظائف لشبهته فى أنه جانسنى ، ولكنه وافق على التعيين حين أكدوا له أن الرجل ملحد فقط(٧٩). ولم يستطع قط أن يغتفر للراهبات تحديهن لأمره بالتوقيع على الصيغة المشددة . وضمانا للقضاء على مركز سخطه هذا فى وقت مبكر حظر عليه قبول أعضاء جدد . ووجه نداء للبابا كليمنت الحادى عشر لكى يصدر إدانة صريحة للجانسنية . وبعد عامين من الإلحاح أطلق البابا مرسوم Vineam Domini (١٧٠٥) ولم يكن باقيا على قيد الحياة فى البور — رويال آنئذ سوى خمس وعشرين راهبة ، أصغرهن فى الستين . وترقب الملك موتهن بفارغ الصبر .

وفى عام ١٧٠٩ خلف الأب اليسوعى ميشيل تيلييه البالغ من العمر ستة وستين عاما ، الأب لاشيز ، كاهن اعتراف للملك . فأقر فى ذهن لويس — وكان الملك قد بلغ الحادية والسبعين — أن مصير روحه الأبدى رهن بالإبادة الناجزة الكاملة للبور — رويال . وقد احتج كثيرون من الأكليروس العلمانيين على هذه العجلة وفيهم أنطوان دنواى ، رئيس أساقفة باريس ، ولكن الملك تغلب على معارضتهم . وفى ٢٩ أغسطس ١٧٠٩ أحاط الجند بالدير ، وأطلع الراهبات على رسالة ملكية مختومة تأمر بتفريقهن فورا ، وسمح لهن بخمس عشرة دقيقة يجمعن فيها أمتعتهن . ولم يجد بكاؤهن ولا دموعهن . فدفعن داخل مركبات وشتتن فى مختلف الأديار الممتثلة التى تبعد من ستين إلى مائة وخمسين ميلا . وفى ١٧١٠ هدمت مبانى الدير الشهير وسويت بالتراب .

ولكن الجانسنية عاشت . لقد مات آرنو ونيكول فى منفاهما بفلاندر (١٦٩٤ — ٩٥) ، ولكن كاهنا فى مصلى باريس يدعى باسكييه كينيل ، دافع عام ١٦٨٧ عن اللاهوت الجانسني فى كتابه « تأملات أخلاقية فى العهد الجديد » . وقد زج به فى السجن (١٧٠٣) . ولكنه هرب إلى أمستردام .

حيث أسس كنيسة جانسنية . وإذ اكتسب كتابه التأييد الكثير من الأكليروس العلماني الفرنسي ، فقد أقنع لويس البابا كلمنت الحادي عشر بأن يصدر مرسوم Unigenitus (٨ سبتمبر ١٧١٣) الذي أدان ١٠٤ قضية نسبت إلى كينيل . وقد استاء كثير من الأحبار الفرنسيين من المرسوم لأنه تدخل بابوي في شئون الكنيسة ، واتحدت الجانسنية مع أحياء للحركة الغالية . فلما مات لويس الرابع عشر ، كان في فرنسا من الجانسنيين أكثر مما كان فيها في أي عهد مضى(٨٠) .

ويصعب علينا اليوم أن نفهم لم انقسمت أمة ، وثارت ثائرة ملك ، حول مثل كل عويصة تتصل بالنعمة الآلهية ، والجبرية ، وحرية الإرادة ، ولكننا ننسى أن الدين كان له يومها ما للسياسة الآن من أهميـــة وخطر . وكانت الجانسنية الجهد الأخير الذي بذلته النهضة الأوربية في فرنسا ، والانتفاضة الأخيرة للعصور الوسطى . ونحن إذا تأملناها في منظور التاريخ بدت لنا رجعية لا تقدما . بيد أن تأثيرها في عدة نواح كان تقدمياً . فقد كافحت حينا في سبيل قسط من الحرية — وإن كنا سنجدها في أيام فولتير أشد تعصبا من البابوية(٨١) . وحدت من شطط الإفتاء الديني . وكانت غيرتها على الأخلاق ثقلا نافعاً أمام سياسة التراخي في أمور الاعتراف ، تلك السياسة التي ربما شاركت في تدهور الأخلاق الفرنسية . كذلك كان تأثيرها التعليمي طيباً ، وكانت « المدارس الصغيرة » التي أسستها خير المدارس في زمانها . وظهر تأثيرها الأدبي لا في بسكال وحده بل في كورنى باعتدال، وفي راسين بحيوية ، وهو تلميذ البور — رويال ومؤرخه . أما تأثيرها الفلسفي فكان غير مباشر وغير مقصود ، ففكرتها عن الله قاضياً بالعذاب الأبدي على الشطر الأكبر من النوع الإنساني — بما فيهم جميع الأطفال غير المعمدين ، وجميع المسلمين وجميع اليهود — لعل هذه الفكرة شاركت في دفع رجال كفولتير وديدرو إلى التمرد على اللاهوت المسيحي بأسره .

٦ - الملك والهيجونوت : ١٦٤٣ - ١٧١٥

لم يكن الملك قد خلص روحه بعد ، فقد بقى فى فرنسا ٠٠٠ر٥٠٠ر١ من البروتستنت . وكان مازاران قد واصل وطور سياسة ريشليو فى حماية حرية الهيجونوت الدينية ما داموا مطيعين سياسياً . أما كولبير فقد أدرك قيمتهم فى تجارة فرنسا وصناعتها . وفى ١٦٥٢ أكد لويس مرسوم نانت (١٥٩٨) الذى أصدره جده هنرى الرابع ، وفى ١٦٦٦ أعرب عن تقديره لولاء الهيجونوت خلال حرب الفروند ، ولكن كان يحزنه ألا تتحق وحدة فرنسا الدينية كما تحققت وحدتها السياسية ، وحوالى ١٦٧٠ كتب فى مذكراته فقرة تنذر بالسوء :

« أما عن ذلك العدد الكبير من رعاياى الذين يدينون بما يسمونه المذهب الأصلاحى ، وهو شر ٠٠٠٠ انظر إليه بحزن ٠٠٠ فيخيل إلى أن أولئك الذين أرادوا استعمال ضروب عنيفة من العلاج لم يفطنوا إلى طبيعة هذا الشر ، الذى نجم بعضه عن حرارة فى العقول ، والذى يجب أن يترك ليذوى ويموت دون أن يحس به أحد ، بدلا من أثارته من جديد بمثل هذه المقاومات العنيفة . ٠٠٠ وقد آمنت بأن خير سبيل للخفض من عدد الهيجونوت فى مملكتى تدريجياً هو أولا عدم الضغط عليهم اطلاقا بأى قيد صارم جديد ، والأمر بمراعاة ما حصلوا عليـــه من أسلافى دون منحهم أكثر منه ، وحتى قصر تنفيذه داخل أضيق الحدود التى تجيزها العدالة واللياقة(٨٢) » .

وفى هذه الفقرة رائحة التعصب المخلص . وهذا رأى ملك مطلق السلطة ، أخذ عن بوسويه شعار « ملك واحد ، وقانون واحد ، وعقيدة واحدة » . فلم يعد ذلك التسامح الذى دان به ريشليو الذى كان يعين لمناصب الدولة الرجال الأكفاء أيا كانت عقيدتهم . ويواصل لويس حديثه فيقول إنه لن يعين فى هذه المناصب سوى الكاثوليك الصالحين ، آملا بذلك أنه سيشجع المرتدين على الرجوع إلى حظيرة الكاثوليكية .

أما الكنيسة نفسها فلم تكن قد وافقت قط على التسامح الذى كفله مرسوم نانت ، ففى ١٦٥٥ طالب مجمع اكليريكى بتفسير أشد صرامه للمرسوم. وفى ١٦٦٠ طلب مجمعهم إلى الملك أن يغلق جميع الكليات والمستشفيات الهيجونوتية ، وأن يحرم الهيجونوت من الوظائف العامة ، وفى ١٦٧٠ أوصى المجمع بأن يعتبر الأطفال الذين بلغوا السابعة من عمرهم قادرين قانونا على إنكار الهرطقة الهيجونوتية ، وأن الذين ينكرونها على هذا النحو ينبغى فصلهم عن آبائهم ، وفى ١٦٧٥ طالب المجمع بأن يعلن بطلان الزيجات المختلطة ، وأن يعتبر نسل هذه الزيجات غير شرعى(٨٣) . وكان رأى بعض رجال الدين الورعين اللطفاء مثل الكردينال دبيرول أن استخدام الدولة لوسائل المنع بالإكراه هو السبيل العملى الوحيد فى التعامل مع البروتستنتية (٨٤) ، وألح الحبر تلو الحبر على الملك بهذه الحجة ، وهى أن استقرار حكومته يرتكز على النظام الاجتماعى ، الذى يرتكز على الفضيلة ، التى تنهار إذا لم يدعمها دين الدولة . وشارك العلمانيون الكاثوليك فى هذه الحجة ، وأبلغ القضاة الحكومة عن صدامات مكدرة للأمن بين المذهبين المتنافسين فى المدن — هجمات كاثوليكية على المدارس والجنازات والبيوت البروتستنتية ، وأعمال انتقام بروتستنتية من نفس النوع .

وشيئاً فشيئاً أذعن لويس لهذه الحملة مخالفاً فى ذلك فطرته الأميل إلى الخير ، وإذ كان على الدوام فى حاجة للمال ينفقه على الحرب والأناقة ، فقد وجد رجال الدين يقدمون له منحاً كبيرة شريطة أن يقبل آراءهم . ودفعته عوامل أخرى فى نفس الاتجاه ، فلقد كان يشجع — بل يرشو — تشارلز الثانى لكى يحول انجلترة إلى الكاثوليكية ، فكيف يتأتى فى الوقت ذاته أن يسمح بالبروتستنتية فى فرنسا ؟ ألم يوافق البروتستنت فى صلح أوجزبورج (١٥٥٥) وبعده على المبدأ القائل بأن دين الحاكم يجب أن يفرض على رعاياه؟ وألم ينف الحكام البروتستنت فى ألمانيا وفى الأقاليم المتحدة الأسر التى رفضت ديانة الأمير ؟

وكان لويس ، منذ أن بدأ حكمه الفعلى قد أصدر — أو أصدر وزراؤه بموافقته — سلسلة من المراسيم التى اتجهت إلى إلغاء مرسوم التسامح إلغاء تاماً . ففى ١٦٦١ حرم على البروتستنت العبادة فى معظم مقاطعة جكس ، قرب الحدود السويسرية ، بحجة أن جكس ضمت إلى فرنسا بعد صدور المرسوم ، وكان يعيش فى هذا الاقليم سبعة عشر ألف بروتستنتى، وأربعمائة كاثوليكى فقط(٨٥) . وفى ١٦٦٤ جعلت الترقية إلى طبقة معلمى الحرف فى الطوائف الصناعية عسيرة إلا على الكاثوليك(٨٦)، وفى ١٦٦٥ سمح للصبيان فى الرابعة عشرة والبنات فى الثانية عشرة بقبول اعتناق الكاثوليكية وترك آبائهم ، الذين يلزمون عندها بأن يدفعوا لهم راتباً سنوياً لإعالتهم(٨٧) . وفى ١٦٦٦ حظر على الهيجونوت إنشاء كليات جديدة ، أو الاحتفاظ بمعاهد لتعليم أبناء الأشراف ، وفى ١٦٦٩ تقرر اعتبار هجرة الهيجونوت جريمة يعاقب عليها المهاجر بالاعتقال إذا وقع فى قبضة السلطات ومصادرة بضائعه(٨٨) . وكان كل من ساعد هيجونوتيا على الهجرة عرضة للحكم بتشغيله فى سفن الأسرى مدى الحياة(٨٩) . وفى ١٦٧٧ سمح لويس بوقف « صندوق للمهتدين » تصرف منه مبالغ ، متوسطها ستة جنيهات للفرد ، لكل هيجونوتى يقبل اعتناق الكاثوليكية . وضماناً لثبات المهتدين على الكاثوليكية أصدر مرسوماً (١٦٧٩) يقضى بنفى جميع المرتدين ومصادرة أملاكهم(٩٠). ثم قطع هذا السيل من التحريمات احتجاج ناخب براندنبورج وشكاوى كولبير مما تحدثه هذه القوانين بالتجارة من كساد ، واشتغال الملك بحملاته الحربية ، ولكن تصالحه فى ١٦٨١ مع الكاثوليكية ، الآمرة بالاقتصار على امرأة واحـــدة ، رده من جديد إلى الحرب المقدسة على الهيجونوت ؛ فقال لأحد مساعديه إنه يشعر « بالتزام لا مناص منه بهداية جميع رعاياه واستئصال شأفة الهرطقة(٩١) » . وفى ١٦٨٢ أصدر خطاباً — وأمر جميع الرعاة البروتستنت بأن يقرءوه على شعبهم — يهدد فيه الهيجونوت « بويلات لا تقاس بما سبقها هولا وفتكا(٩٢) » . وخلال السنوات الثلاث

التالية أغلقت ٥٧٠ كنيسة من كنائس الهيجونوت البالغ عددها ٨١٥، وهدم الكثير منها، وحين حاول الهيجونوت العبادة على أنقاض كنائسهم للهدمة عوقبوا باعتبارهم عصاة متمردين على الدولة.

وكانت حملات الخيالة dragonnades قد بدأت خلال هذا، فقد كان من العادات القديمة في فرنسا أن يسكن الجنود في الكوميونات أو البيوت وعلى حسابها. واقترح لوفوا وزير الحرب على الملك (١١ أبريل ١٦٨١) إعفاء معتنقي الكاثوليكية الجدد عامين من هذا الإيواء للجند، فأصدر الملك الأمر، وعلى ذلك أمر لوفوا المديرين العسكريين لإقليمي بواتو وليموزان بأن ينزلوا خيالتهم مساكن الهيجونوت، لاسيما الأثرياء منهم. وفي بواتو سمح المرشال مارياك لجنوده بأن يفهموا أنه لن يسوءه أن يعاملوا مضيفيهم البواسل بشيء من الغيرة الرسولية، وراح الجند يسرقون الهيجونوت ويضربونهم ويهتكون أعراضهم، فلما سمع لويس بهذا الشطط وبخ مارياك، ولما استمر طرده من وظيفته(٩٣). وفي ١٩ مايو أمر بوقف هداية الهيجونوت بطريق إيواء الخيالة، وشجب أعمال العنف التي ارتكبت في بعض الأماكن ضد دعاة الإصلاح البروتستنتي(٩٤). وأبلغ لوفوا المديرين الإقليميين بأن لهم أن يواصلوا حملات الخيالة، ولكنه نبههم إلى ضرورة حجب كل معلومات عن هذا الأمر عن الملك. وانتشرت حملات الخيالة في أرجاء كثيرة من فرنسا، فأدخلت في الكاثوليكية آلافاً من المهتدين. وأنكرت مدن وأقاليم — كموبيلييه، ونيم، وبيارن — مذهبها الكالفني على بكرة أبيها، وتظاهر أغلب الهيجونوت باعتناق الكاثوليكية بعد أن أرهبهم الأمر، ولكن الألوف هجروا بيوتهم وأملاكهم وهربوا عبر الحدود أو وراء البحر متحدين القوانين. وأبلغ لويس أنه لم يبق بفرنسا غير قلة قليلة من الهيجونوت، وأن مرسوم نانت أصبح بلا معنى. وفي ١٦٨٤ التمست الجمعية العامة للاكليروس من الملك إلغاء المرسوم كلية، و«توطيد ملك يسوع المسيح غير منازع من جديد في فرنسا»(٩٥).

وفى ١٧ أكتوبر ١٦٨٥ ألغى الملك مرسوم نانت باعتباره مرسوماً لا لزوم له الآن فى فرنسا التى تدين كلها تقريباً بالكثلكة . فحظر منذ ذلك التاريخ على الهيجونوت إقامة شعائرهم أو فتح مدارسهم ، وصدر الأمر بهدم كل أمكنة العبادة الهيجونوتية وتحويلها كنائس كاثوليكية ، وأمر رجال الدين الهيجونوت بالرحيل عن فرنسا فى ظرف أربعة عشر يوما ، ولكن هجرة غيرهم من الهيجونوت حرمت وإلا كان عقاب المهاجرين تشغيلهم فى سفن الأسرى مدى الحياة . ووعد المخبرون بنصف بضائع المهاجرين العلمانيين(٩٦) ، وقضى بأن يعمد جميع الأطفال المولودين فى فرنسا بواسطة القساوسة الكاثوليك وأن يربوا على المذهب الكاثوليكى ، ووعدت فقرة أخيرة بالسماح للقلة الباقية من الهيجونوت بأن يسكنوا بعض المدن آمنين . ونفذت المادة فى باريس وضواحيها ، وحمى رئيس الشرطة التجار الهيجونوت هناك وطمأنهم ، ولم يكن هناك حملات خيالة فى باريس أو قربها ، وكان فى وسع المراقص أن تمضى فى فرساى ، وفى وسع الملك أن ينام مطمئناً مرتاح الضمير ، ولكن حملات الخيالة استمرت فى كثير من الأقاليم بتحريض من لوفوا(٩٧) ، وتعرض الهيجونوت المعاندون للنهب والتعذيب . يقول الحجة الفرنسى الأكبر فى إلغاء مرسوم نانت :

«لقد أذن للجنود أن يقترفوا كل جريمة إلا القتل . فكانوا يكرهون الهيجونوت على الرقص حتى يدركهم الإعياء ، ويقذفون بهم فى البطاطين إلى أعلى ، ويصبون الماء المغلى فى حلوقهم ... ، ويضربون بطون أقدامهم ، وينتفون لحاهم ... ، ويحرقون أذرع مضيفيهم وسيقانهم بلهيب الشموع .. ، ويكرهونهم على أن يقبضوا على الجمر الملتهب بأيديهم ... ، ويحرقون أرجل الكثيرين بإمساكها طويلا أمام نار كبيرة ... ويلزمون النساء بأن يقفن عرايا فى الطريق يحتملن هزء المارة واهاناتهم . وقد أوثقوا مرة أما مرضعا إلى عمود سرير وأمسكوا برضيعها بعيدا عنها وهو يصرخ فى طلب ثديها ، فلما فتحت فاها لتتوسل إليهم بصقوا فيه(٩٨) » .

ويرى ميشليه أن إرهاب ١٦٨٥ للقدس هذا كان أشنع كثيرا من إرهاب عصر الثورة فى ١٧٩٣(٩٩) . وقد أكره نحو ٤٠٠,٠٠٠ من « المهتدين » على حضور القداس وتناول القربان ، وحكم على الذين بصقوا قطع القربان المكرسة بعد مغادرتهم الكنيسة بالحرق احياء(١٠٠) . وزج بالذكور من الهيجونوت المعاندين فى سجون تحت الأرض أو زنزانات غير مدفأة . أما نساء الهيجونوت الممعنات فى العناد فقد حبسن فى الأديار حيث لقين على غير توقع المعاملة الرحيمة من الراهبات(١٠١) .

على أن إقليمين قاوما الإرهاب ببسالة ملحوظة . وسنسمع أنباء الفودوا فى الدوفينيه الفرنسية وبيدمونت السافووية فى مكان لاحق من هذا الكتاب . وفى أودية سلسلة جبال السيفين فى اللانجدوك احتفظ الألوف من الهيجونوت « المهتدين » بإيمانهم سرا ، مترقبين الوقت والفرصة للتحرر . وقد أكد لهم « أنبياؤهم » الذين أدعوا الوحى الإلهى بأن الوقت قد اقترب ، فلما بدا أن حرب الوراثة الأسبانية تستوعب الأسلحة الفرنسية ، شكل الفلاحون جماعات متمردة من « السكاميزار Camisards » الذين ارتدوا القمصان البيض ليميز بعضهم بعضا فى الليل . وفى إحدى المعارك قتلوا الأب شيلا الذى كان يضطهدهم بغيرة شديدة ، ففاجأهم فوج من الجند وذبحهم دون تمييز ، وهدم بيوتهم وخرب محاصيلهم (١٧٠٢) . وردت بقية منهم على هذا الهجوم بضراوة ، إلى أن اقنعتهم بالصلح وسائل المرشال فيلار التوفيقية .

ومن بين الهيجونوت الذين سكنوا فرنسا فى ١٦٦٠ والبالغ عددهم ١,٥٠٠,٠٠٠ ، فرنحو ٤٠٠,٠٠٠ فى العقد الذى تخلله إلغاء مرسوم نانت عبر الحدود المخفورة مغامرين بحياتهم . وعاشت مئات قصص البطولة قرنا بأكمله بعد تلك السنين اليائسة . ورحبت الدول البروتستنتية بالمهاجرين فأفسحت جنيف مكانا لأربعة آلاف من الهيجونوت برغم أن سكانها لم يزيدوا على ستة عشر ألفا . وقدم تشارلز الثانى وجيمس الثانى للمعونة المادية

للهيجونوت على الرغم من كثلكتهما ، وسهلا استيعابهم فى الحياة السياسية والاقتصادية الإنجليزية . واستقبلهم ناخب براندنبورج استقبالا وديا حتى أن أكثر من خمس سكان برلين فى ١٦٩٧ كانوا فرنسيين وفتحت لهم هولندة أبوابها وبنت مئات البيوت لأيواء الوافدين واقرضتهم المال ليقيموا مصالحهم وكفلت لهم كل حقوق المواطنة ، وانضم الكاثوليك الهولنديون إلى البروتستنت واليهود فى جمع المال لإعانة الهيجونوت . ولم يكتف اللاجئون الشاكرون بإثراء الصناعة والتجارة فى الأقاليم المتحدة ، بل إنهم تطوعوا فى الجيوش الهنولندية والإنجليزية التى خاضت القتال ضد فرنسا ، ورافق بعضهم وليم الثالث أو تبعه إلى انجلترة ليساعدوه على جيمس الثانى . أما المرشال شومبيرج الكلفنى الفرنسى الذى أحرز انتصارات للويس الرابع عشر من قبل فقاد جيشا إنجليزيا ضد الفرنسيين ومات وهو يهزمهم فى معركة البوين (١٩٦٠) . وفى كل بلد من هذه البلاد المضيافة جلب الهيجونوت مهاراتهم فى الحرف والتجارة والمال، وأفادت أوربا البروتستنتية كلها من انتصار الكاثوليكية فى فرنسا . وشغل صناع الحرير الفرنسيون حيا بأكمله من أحياء لندن ، وأصبح المنفيون الهيجونوت فى إنجلترة شراح الفكر الإنجليزى ومترجميه لفرنسا ، فمهدوا بذلك لغزو بيكون ونيوتن ولوك للعقل الفرنسى .

واستنكرت قلة من الكاثوليك الفرنسيين سرا تلك المذابح التى رافقت إلغاء المرسوم ، وأمدوا كثيرا من الضحايا بالمعونة وقدموا لهم الملجأ خفية . ولكن الكثرة العظمى هللت للقضاء على الهيجونوت باعتباره قمة إنجازات الملك ، وقالوا أن فرنسا أصبحت الآن ، فى النهاية ، بلدا كاثوليكيا موحدا . وأثنى كبار الكتاب أمثال بوسويه وفنيلون ولافونتين ولا برويير ، وحتى الأب الجانسني آرنو ، على شجاعة الملك فى تنفيذ ما خالوه إرادة الأمة . وكتبت مدام دسفينييه تقول « ليس هناك أبدع ولا أروع . ولم يصنع

ملك ولن يصنع شيئا أخلد من هذا(١٠٢)» . أما لويس نفسه فأسعده أن يبكل — كما خيل إليه — عملاقتيلا ولكنه مقدس . يقول سان سيمون : —

« لقد آمن أنه جدد عهد تبشير الرسل الأولين . وكتب الأساقفة المدائح التي تشيد به ، وجعل اليسوعيون المنابر تتغنى بالثناء عليه ... ولم يكن يسمع غير الاطراء بينما كان الكاثوليك والأساقفة الاتقياء الصادقون يئنون بالروح إذ يرون الكاثوليك السنيين ينحرفون إلى الخطأ ، والمهرطقين يسلكون مسلك الطغاة الخوارج ، والوثنيين يحاربون الحق والمؤمنين الجاهرين بإيمانهم والشهداء . ولم يستطيعوا أن يطيقوا هذا السيل من الحنث وتدنيس المقدسات(١٠٣) » .

وكان سان — سيمون وفوبان من الفرنسيين القلائل الذين أدركوا منذ البداية تلك الخسارة الاقتصادية التي ألحقها بفرنسا نزوح هذا العدد الكبير من المواطنين الكادحين . وفقدت كان صناعة نسيجها ، وتور ثلاثة أرباع أنوال الحرير فيها . ومن بين الستين مصنعا للورق في إقليم أنجوموا لم يبق سوى ستة عشر ، ومن بين ١٠٩ متجرا في مدينة ميزيير لم يبق سوى ثمانية ، ومن بين أربعمائة مصبغة في تور لم يبق سوى أربع وخمسين(١٠٤) . واضمحلت ثغور كرسيليا لفقدها الأسواق في بلاد أصبحت الآن بفضل جهود الهيجونوت وإرشادهم تنتج ما كانت من قبل تستورده من فرنسا . وقضى جزئياً على حركة التعمير الكبرى التي أدخلها كولبير على الاقتصاد الفرنسي ، ونزحت الصناعات التي جاهد في سبيل تنميتها في فرنسا لتغذي منافسيها . ولما هبطت إيرادات الدولة من الصناعة هبوطاً حاداً وقعت الحكومة من جديد في أيدي المرابين الذين انقذها كولبير من براثنهم . وفقدت البحرية الفرنسية تسعة آلاف بحار ، والجيش ستمائة ضابط واثنى عشر ألف جندي ، ولعل نضوب البحرية والجيش على هذا النحو كان من عوامل الهزائم التي أوشكت أن تحطم فرنسا في حرب الوراثة الأسبانية .

كذلك شددت همجية الاضطهاد الرهيبة واستغاثات المهاجرين من عزيمة أوربا البروتستنتية على الاتحاد ضد فرنسا .

على أن إلغاء المرسوم ربمـــا كان معيناً غير مباشر للفنون والعادات ولطائف الحياة فى فرنسا . ذلك أن الروح الكلفنية المتشككة فى الزينة والصور المنحوتة والمرح الطائش تبطت الفن والأناقة والظرف . ولو أن فرنسا أصبحت بيوريتانية لكانت شذوذاً وخطأ . ولكن إلغاء المرسوم كان كارثة على الدين الفرنسى . لقد لاحظ بيكون من قبل أن مشهد الحروب الدينية كان خليقاً بأن يجعل لوكريتوس — لو رآه — « سبعة أضعاف ما كان أبيقورية » وإلحاداً(١٠٥) . « فماذا تراه كان قائلا الآن ؟ لم تبق نقطة توقف للعقل الغالى بين الكاثوليكية والإلحـاد . وبينما أفادت البروتستنتية فى سويسرة وألمانيا وهولندة وانجلترة فى الإعراب عن التمرد على الكنيسة ، لم يبق فى فرنسا أداة استنكار كهذه . فوجدت حركة الانتقاض على الرومانية أنه أيسرلها أن تكون شكاكة خالصة من أن تكون بروتستنتية سافرة . وانتقلت النهضة الفرنسية ، غير المعوقة من البروتستنتية ، رأساً إلى حركة التنوير بعد موت الملك .

٧ - بوسويه : ١٦٢٧ - ٨٨

بيد أن الكنيسة الفرنسية كانت ظافرة ولو مؤقتاً ، وتربعت على عرش بهائها وسلطانها . وكانت رغم ماشاب روحها الجماعية من تعصب ، وما عاب سلطتها من قسوة ، تضم أرق نخبة من الرجال فى أوربا تعليما ، وكان قديسوها ينافسون طغاتها . وكان من أساقفتها نفر ذوو نزعة إنسانية ، عاكفون فى إخلاص على الخير العام كما رأوه . ودخل اثنان منهم الأدب الفرنسى دخولا شارف فى سنائه دخول بسكال ، وكان فى زمانهما أكثر بروزاً . وقلما تجد بين رجال الكنيسة الفرنسيين من ضارع فى سمته بوسيويه ، أو فنيلون فى شعبيته .

أما جاك بنين بوسويه (واسمه الأوسط Bènigne — أى الطيف — كان أنسب لفنيلون) فقد ولد فى أسرة ثرية لمحام بارز وعضو فى برلمان ديجون (١٦٢٧) . نذره أبواه للقسوسية ، وجز شعر رأسه فى الثامنة ، وحين بلغ الثالثة عشرة عين كاهناً فى كاتدرائية متز . وفى الخامسة عشرة أرسل إلى كلية نافار بباريس . وفى السادسة عشرة كان قد بلغ من الفصاحة منزلة حملت نساء الأوتيل درامبوبيه المثقفات على إقناعه بأن يلقى عليهن عظة فى منتصف سهرة الصالون رغم ماطبع عليه من كبرياء مقترنة بالخجل . وبعد أن تخرج بمرتبة الشرف عاد إلى متز ورسم قسيساً وتقدم بعد قليل لنيل درجة الدكتوراه فى اللاهوت . وقد راعه أن يجد أن عشرة آلاف من بين الثلاثين ألف نفس فى متز كانوا من البروتستنت المالكين . ودخل فى جدل مهذب مع بول فيرى الزعيم الهيجونوتى ، وقد سلم له ببعض المفاسدفى الممارسات الكاثوليكية ، ولكنه زعم أن الانشقاق رغم ذلك شر أعظم . وظل على علاقات ودية مع فيرى اثنتى عشرسنة ، تماما كما سنراه فى فترة لاحقة يجاهد جهاداً حبياً مع ليبنتز فى سبيل إعادة توحيد العالم المسيحى . ولما سمعته آن النمساوية يعظ فى متز خيل إليها إنه أرقى من تلك البيئة التى لاتليق بمواهبه ، وأقنعت الملك بأن يدعوه إلى باريس ، فانتقل إليها فى ١٦٥٩ .

ووعظ أول الأمر جماهير بسيطة فى دير سان لازار برعاية فانسان دبول . وفى ١٦٦٠ وعظ جمهوراً عصريا فى كنيسة « لى مينيم » قرب البلاس رويال . وسمعه الملك ، فتبين فى الخطيب الشاب مزيجا متوازنا من البلاغه ، واستقامه العقيدة ، وقوة الخلق . فدعاه لإلقاء عظات الصوم الكبير فى ١٦٦٢ باللوفر ، واختلف إلى هذه الخطب فى تقوى واضحه ، اللهم إلا فى ذلك الأحد الذى انطلق فيه على جواده مسرعا ليسترد لويز دلا فاليير من الدير . وحفز حضور الملك هذه العظات بوسويه على أن ينقى أسلوبه من الخلافات الريفية ، والاستشهادات السكولاستية ، والحجج الجدليه .

ذلك أن أناقة البلاط انتقلت إلى كبار الأكليروس ، فأثمرت عهداً من البلاغة المنبرية ينافس البلاغة القانونية التى اشتهر بها ديموستين وشيشرون . وفى أثناء السنوات الثمانية التالية وفق بوسويه فى أن يكون الخطيب المفضل فى كنائس القصر ، ثم أصبح المرشد الروحى لعدد من كبريات النبيلات مثل هنريتا « مدام » دورليان ، ومدام دلوبجفيل ، ومدموازيل دمو نبانسيه (١٠٦) وكان فى بعض عظاته يوجه الخطاب إلى الملك مباشرة ، مغالياً فى تملقه عادة ، ولكنه دعاه مرة بحرارة إلى أن يهجر زناه وفجوره ويعود إلى زوجته . ففقد برهة رضاء الملك ، ولكنه استرده حين هدى تورين إلى الكاثوليكية . وفى ١٦٦٧ اختاره لويس ليؤبن آن النمساوية فى مأتمها ، وبعد عامين ألقى عظه فوق جثمان هنرييتا ماريا ملكة انجلترة الأرملة ، وفى ١٦٧٠ اضطلع بواجب أليم هو تأبين هنرييتا الصغرى ، تأبينه المحبوبة التى فاضت روحها بين ذراعيه فى فتنة صباها التى لم يكتب لها بقاء طويل .

والعظتان اللتان أبن بهما تشارلز الثانى ملك انجلترة وأخته هما أشهر العظات قاطبة فى الأدب الفرنسى — لأن خطاب البابا أوربان الثانى الذى مازال يفوقهما شهرة ، والذى استنفر فيه أوروبا إلى الحرب الصليبية الأولى (١٠٩٥) — هذا الخطاب كان باللاتينية وإن ألقى على أرض فرنسية. واستهل بوسويه أول هذين التأبينين بموضوعه الجرىء المفضل ، وهو أن على الملوك أن يتعلموا من دروس التاريخ ، وأن الانتقام الإلهى سوف يحل بهم إن لم يستعملوا سلطتهم لخير الشعب ، ولكنه بدلا من أن يرى فى تشارلز الأول ملك انجلتره مثالا على هذا العقاب ، لم يجد فيه عيباً سوى فرط رأفته ، ولم يجد عيباً على الاطلاق فى زوجته الوفية ، فصور الملكة المتوفاة قديسة جاهدت لتهدى زوجها وانجلترة إلى الكاثوليكية . ثم استطرد بإسهاب فى موضوع آخر محبب إلى نفسه ، وهو تكاثر الملل والنحل البروتستنتية التى لا حصر لها ، وفوضى الأخلاق المنبعثة من اضطراب العقيدة ، وقال : إن « التمرد الكبير » كان عقاباً إلهياً على مروق انجلتره

من كنيسة روما ، ولكن ما كان أروع سلوك الملكة بعد إعدام زوجها على هذا النحو الإجرامى الرهيب ! لقد تقبلت أحزانها كفارة وبركة ، وحمدت الله عليها وعاشت أحد عشر عاماً فى صلاة متواضعة صابرة، وأخيراً أثيبت على تمها ، فرد ابنها إلى عرشه ، وكان فى وسع الملكة الأم أن تسكن القصور من جديد ، ولكنها آثرت عليها ديراً فى فرنسا ، ولم تستعمل ثروتها الجديدة إلا فى الاستكثار من أعمال البر .

وكان أشد من هذه تأثيراً وأوثق قرباً للتاريخ وللذكريات الفرنسية تلك العظة التى ألقاها بوسويه بعد عشرة شهور فوق جثمان هنريتا آن . وكان قد رسم قبيل ذلك أسقفاً لكوندوم فى جنوب غربى فرنسا ، ومن أجل هذا الخطاب جاء إلى كنيسة دير سان — دنى فى كل بهائه الأسقفى ، يتقدمه المنادون ، وعلى رأسه تاج الأسقفية، وفى أصبعه تتألق الزمردة الكبيرة التى أهدته إياها الأميرة المتوفاة . وفى مثل هذه العظات كان يحد من انفعال الخطيب تفكيره فى الموت فى صورة عامة ، أما الآن فقد كان الموت موت واحدة كانت حتى الأمس القريب مسرة الملك وبهاء البلاط ، وأجهش الحبر الجليل بالبكاء وهو يذكر كيف فوجىء القوم مفاجأة ألمية بهذه اللطمة التى جعلت فرنسا كلها تنوح وتتعجب من طارق الله . ثم وصف هنريتا لا بموضوعية فاترة ، بل بتحيز المحبة — « لقد كانت على الدوام لطيفة مسالمة سمحة خيرة (١٠٧) » — واكتفى بالإلماع فى إيجاز حكيم إلى أن سعادتها لم تتكافأ مع فضائلها . ثم تجاسر حتى هذا الأسقف الأريب ركن السنية الركين وحارسها الأمين — تجاسر لحظة على أن يسأل الله لم يزدهر كل هذا الشر والظلم على الأرض (١٠٨) . ثم عزى نفسه وجمهوره بذكرى تقوى هنريتا فى احتضارها ، وبالأسرار المقدسة التى طهرتها من كل علاقاتها الأرضية ، فلا ريب إذن أن روحا رقيقة مطهرة كروحها تستحق الخلاص ، بل إنها لتزين الفردوس نفسه !

وبسبب خطأ نادر فى الحكم على الأخلاق عين لويس بوسويه (١٦٧٠)

معلما للدوفان ، متأثراً فى ذلك ببلاغته تلك — وعهد إليه بتدريب ذلك الصبى المتخلف ، المتبلد الحس ، على المعرفة والخلق اللازمين لحكم فرنسا . وانصرف بوسويه مخلصا لهذه المهمة . فاستقال من أسقفيته ليكون قريباً من تلميذه القاصر ومن البلاط ، وكتب للويس الصغير كتيبات جادة فى تاريخ العالم والمنطق والإيمان المسيحى والحكم وواجبات الملك ، مما كان خليقاً بأن يجعل من الصبى هولة من الكمال والقوة.

وفى إحدى هذه المقالات المسماة « السياسة مستقاة من كلام الأسفار المقدسة » (١٦٧٩ — ١٧٠٩) دافع بوسويه عن الملكية المطلقة وحق الملوك الإلهى بغيرة فاقت غيرة الكردينال بيلارمين فى تأييده لسيادة البابوات. ألم يكتب فى العهد القديم أن « الله أعطى لكل شعب حاكمه »(١٠٩) وفى العهد الجديد بكل سلطان القديس بولس « إن السلاطين مرتبة من الله (١١٠) ، أجل ، ولقد أضاف الرسول قوله « إذن فكل من يقاوم السلطة يقاوم ترتيب الله ، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة » . واضح إذن أن كل من يقبل الكتاب المقدس كلمة الله يجب أن يكرم الملك باعتباره خليفة لله ، أو كما قال أشعياء النبى عن كورش إنه « مسيح الرب (١١١) » . إذن فشخص الملك مقدس، وسلطة الملك مقدسه ومطلقة ، والملك لا يسأل إلا أمام الله . ولكن هذه المسئولية تضع على عاتقه التزامات قاسية . فعليه فى كل لفظ وعمل أن يطيع قوانين الله ، ومن حسن حظ لويس أن إله التوراة كان عطوفاً على تعدد الزوجات .

كذلك كتب بوسويه للدوفان (١٦٧٩) كتابه الشهير « حديث عن تاريخ العالم » . ذلك أنه حين روعه إلماع ديكارت إلى أن جميع الأحداث فى العالم الموضوعى — إذا افترضنا لها دفعة مبدئية من الله — يمكن أن تفسر آليا بأنها منبعثة من قوانين الطبيعة ودستورها ، رد عليه بأن كل حدث كبير فى التاريخ إنما هو — على النقيض من ذلك — جزء

من خطة إلهية ، وعمــل من أعمال العناية الإلهية أفضى إلى ذبيحة المسيح ونمو المسيحية لتصبح « مدينة متسعة لله » . وتناول الكتاب المقدس ثانية باعتباره موحى من الله ، فركز التاريخ كله على سيرة يهود العهد القديم والأمم التى أنارتها المسيحية . « لقد استخدم الله الأشوريين والبابليين ليعاقب شعبه المختار ، والفرس ليردهم إلى وطنهم ، والاسكندر ليحميهم ، وأنطيوخس ليمتحنهم ، والرومان ليصونوا حرية اليهود ضد ملوك سوريا » . فإذا بدا لنا فى هذا الرأى حماقة ، فان علينا أن نذكر أنه كان أيضا رأى كتاب التوراة الذين وحد بوسويه بينهم وبين الله فى ثقة . ومن ثم فقد بدأ بخلاصة لتاريخ العهد القديم ، وقام بهذه المهمة بما عرف عنه من ولع بالنظام والإيجاز وقوة البلاغة . واعتمد ترتيبه الزمنى على تقويم أوشير رئيس الأساقفة ، فأرخ الخليقة بسنة ٤٠٠٤ ومر بوسويه مرور الكرام بتلك الأمم التى لم يشر إليها الكتاب المقدس ، ولكنه وصفها وصفا مجملا ينم على بصيرة وقوة ملحوظتين ، وأبدى فيهما عطوفا للفضائل والإنجازات الوثنية . وقد رأى بعض التقدم خلال مشكال الإمبراطوريات الصاعدة والساقطة ؛ واتخذت فكرة التقدم جسدا ولحما فى كتاباته ، وكذلك فى كتابات شارل بيرو وغيره من المدافعين المعاصرين عن المحدثين ضد القدامى ، ومهدت الطريق من بعيد لطورجو وكوندرسيه . وخلق الكتاب رغم كل عيوبه الفلسفة الحديثة للتاريخ ، وحسب رجل واحد أن يحقق انجازا كهذا .

على أن الأمير تلميذ بوسويه لم يقدر شرف تأليف الكتب العظيمة لتعليمه . فقد كان فى روح بوسويه من الجد والصرامة مالا يجعله المعلم اللطيف المرضى . وكان أنسب لطبيعته أن يرشد فى رفق لويز دلافاليير لتهرب من حياة الزنا إلى الدير ، وقد ألقى العظة حين قطعت على نفسها عهد الرهبنة . وفى ذلك العام (١٦٧٥) جاهر ثانية بلوم للملك الزير ، واستمع إليه لويس فى صبر نافد ، ولكنه أعاده لمنصب الأسقفية وعينه أسقفاً على مو (١٦٨١)

على قرب من فرساى يتيح له أن يتذوق فخامة البلاط وبهاءه . وكان طوال ذلك الجيل المتكبر ، الشارح والقائد العمدة للاكليروس الفرنسى . وقد وضع لأجلهم « المواد الأربع » التى أكدت من جديد « الحريات الغالية » للكنيسة الفرنسية إزاء السيطرة البابوية . ولقد أفقده عمله هذا قبعة الكردينالية ، ولكنه أصبح بابا فرنسا .

ولم يكن بالبابا السيء . فهو مع إصراره على كرامة الأسقفية ورعاية مراسمها ظل رحيما لطيفا ، وبسط عباءته فوق ألوان كثيرة من المعتقد الكاثوليكى . وقد وافق بسكال على إدانة الشطط الذى تورط فيه الإفتاء الدينى دون أن يغتفر له السخط والاحتقار اللذين ألهبا رسائله الإقليمية . ففى ١٧٠٠ أقنع جمعية الاكليروس العامة باستنكار ١٢٧ قضية أخذت من فتاوى المفتين اليسوعيين ، وقد ظل على علاقات ودية مع آرنو وغيره من الجانسنيين . وذاع عنه أنه كان متسامحا فى كرسى الاعتراف ، وأنه استنكر مظاهر التقشف فى الملمانيين ، ولكنه أطرى بحرارة نسك رانسيه ، وكان يختلف بين الحين والحين إلى خلوة فى لاتراب ، ويتمنى أحيانا أن يظفر بسلام صومعة الراهب . ولكن بريق البلاط غلب طموحه للقداسة ، ولوث لاهوته بأطماع الارتقاء فى مراتب الكنيسة والدولة . وقد توسل مرة إلى رئيسة الدير فى مو قائلا : « صلى لأجلى لكيلا أحب العالم(١١٢) » . وقد أصبح أشد صرامة فى أخريات أيامه . وعلينا أن نغتفر له تنديده بالمسرحيه وبموليير فى كتابه « حقائق عامة عن الملهاة » (١٦٩٤) لأن موليير لم يعرض الدين إلا فى صورته المتزمتة المنافقة ، ولم ينصف رجالا مثل فانسان ديبول .

كان بوسويه أشد تعصبا نظرياً منه عمليا . فقد رأى أن من السخف أن يظن أى ذهن فردى مهما عظم ذكاؤه أنه يستطيع أن يكتسب فى عمر واحد من المعرفة والحكمة ما يؤهله للجلوس فى كرسى القضاء ليحكم على

تقاليد ومعتقدات الأسرة والمجتمع والدولة والكنيسة . فالحس المشترك « Sens commun » أجدر بالثقة من التفكير الفردى ، ولا يعنى الحس أو الإدراك المشترك فكر الأشخاص العاديين ، بل الذكاء الجماعى لأجيال علمتها قرون من الخبرة ، الذكاء الذى يتمثل فى أعراف النوع الإنسانى ومعتقداته. فمن ذا الذى يستطيع أن يزعم أنه يعرف خيرا من هؤلاء جميعا حاجات النفس البشرية والإجابات عن الأسئلة التى لا تستطيع المعرفة وحدها أن تجيب عنها؟ ويترتب على هذا أن الذهن البشرى فى حاجة إلى سلطة تعطيه السلام ، والتفكير الحر لا يستطيع إلا أن يدمر ذلك السلام ، والمجتمع البشرى فى حاجة إلى سلطة تعطيه الأخلاق ، ولكن التفكير الحر بتشككه فى المصدر الإلهى للقانون الخلقى إنما يهدم النظام الأخلاقى برمته . فالهرطقة إذن خيانة للمجتمع والدولة كما أنها خيانة للكنيسة ، و « الذين يؤمنون بأن الملك ينبغى ألا يستعمل القوة فى أمور الدين ... يرتكبون خطأ مجانبا للتقوى (١١٣) » ولقد آثر الأسقف الإقناع على الإكراه فى هداية المهرطقين ، ولكنه دافع عن الإكراه باعتباره الملاذ الأخير ، ورحب بإلغاء مرسوم نانت لأنه « المرسوم الورع الذى سيكيل للهرطقة الضربة القاضية » . ونفذ القانون فى إقليمه بكثير من التسامح ، حتى لقد كتب الناظر الملكى يقول « ليس فى الإمكان عمل شىء فى أسقفية مو ، لأن ضعف الأسقف يقف عقبة فى سبيل هداية الهيجونوت (١١٤) » . وقد ثبت معظم الهيجونوت فى تلك المنطقة على مذهبهم .

وكان إلى النهاية يعلل نفسه بأن الحجة قادرة أن تكسب حتى هولنده وألمانيا وإنجلترة وتردها للإيمان القديم . وسنراه يفاوض لايبنتز سنوات عديدة على خطة الفيلسوف التى اقترحها لإعادة توحيد القطاعات المنشقة من المسيحية . وفى ١٦٨٨ كتب رائعته « تاريخ ملل الكنائس البروتستنتية » — وهو الذى قال « بكل » إنه « ربما كان أخطر كتاب وجه ضد البروتستنتية (١١٥) . وقد تميزت مجلداته الأربعة بالدراسة الشاقة ، وكانت كل صفحة فيها تدعم بالمراجع ، وهو لون من الأمانة كان بدأ يتجسد .

وبذل الأسقف فى كتابه محاولة ليكون منصفا . فسلم بمفاسد الكنيسة التى تمرد عليها لوثر ، ورأى الكثير مما يستحق الإعجاب فى خلق لوثر ، ولكنه لم يستطيع أن يسيغ الفظاظة المبتهجة التى اختلطت فى لوثر بالبسالة الوطنية والتقوى الرجولية . ثم صور ملانكتون بصورة تكاد تكون صورة الحب . غير أنه كان يأمل فى تفكيك ولاء أتباع هؤلاء المصلحين لهم باظهار مواطن ضعفهم الشخصى وخلافاتهم اللاهوتية وقد هزأ بالفكرة التى زعمت أن لكل إنسان الحريه فى تفسير الكتاب المقدس لنفسه وتأسيس دين جديد على قراءة جديدة له ، فكل من خبر الطبيعة البشرية يستطيع أن يتنبأ بأنه لو ترك لهؤلاء الحبل على الغارب لأسفر هذا عن تفتيت المسيحية إلى متاهة من الملل والنحل ، وتفتيت الأخلاق إلى فردية لا يستطيع أن يكبح جماح غرائز الغاب فيها سوى الاستكثار من الشرطة استكثاراً لانهاية له . فمن لوثر إلى كالفن إلى سوكينوس — من رفض البابوية ، إلى رفض سر القربان إلى رفض المسيح — ثم من التوحيد (رفض التثليث) إلى الإلحاد ، تلك هى الدرجات الهابطة شيئاً فشيئاً إلى انحلال الإيمان . ومن الثورة الدينية إلى الثورة الاجتماعية ، ومن رسائل لوثر إلى حرب الفلاحين ، ومن كالفن إلى كرومويل إلى « المسوين » إلى قتل الملك ، تلك درجات منزلقة فى تحلل النظام الاجتماعى والسلام . ولا يستطيع سوى دين ذى سلطان أن يعطى الوازع للأخلاق ، ويمنح الاستقرار للدولة ، ويسلح الروح البشرية بالقوة وهى تواجه الحيرة وفقد الأحباء والموت .

لقد كان الكتاب حجة قوية ، شديدة التأثير بما حوت من ثقافة و بلاغة ، محتوية على صفحات لاضريب لها فى نثر ذلك العصر الفرنسى إلا فى جدليات بسكال العنيفة و « خواطره » ، ولولا أن التجاء للعقل قد أحبطه التجاؤه للقوة فى فظاعات إلغاء المرسوم لحقق نجاحاً أعظم . فقد ظهرت فى الدول البروتستنتية عشرات الردود المفندة لحجج الكتاب تشجب بقوة ذلك

التظاهر بالاحتكام إلى العقل فى رجل حبذ النهب والسلب والنفى والمصادرة والاسترقاق فى سفن تشغيل الأسرى حججا للدفاع عن المسيحيه الكاثوليكيه. وتساءل أصحاب الردود ألم يكن هناك ملل مختلفه فى الكاثوليكيه أيضاً ؟ وأى قرن خلا من الانقسامات فى الكنيسه — من الكاثوليك الرومان ، والكاثوليك اليونان ، والكاثوليك الأرمن ، والكاثوليك الشرقيين ؟ وألم يكن جانسنيو البور — رويال فى تلك اللحظه يقتتلون مع إخوانهم من الكاثوليك أعضاء جماعة يسوع ؟ وألم يكن الأكليروس الغالى بزعامة بوسويه نفسه فى نزاع مر مع دعاة سلطان البابوية المطلق كاد يبلغ حد الانشقاق على روما ؟ وألم يكن بوسويه يقاتل فنيلون ؟

٨ – فنيلون . ١٦٥١ – ١٧١٥

كان فرانسوا دسالنياك دلا موت — فنيلون ، النبيل المولد ، الثلاثى الاسم ، كبوسويه سنياً طموحاً ، أسقفا ورجل بلاط ، ومعلما لأمير من البيت المالك ، وكاتباً من فحول النثر . ولكنه فى غير ذلك كان بينه وبين بوسويه مابين السماء والأرض من تباين . كتب سان — سيمون معرباً عن إعجابه بالرجل يقول :

« رجل فارع القوام نحيل الجسد قوى البنية شاحب الوجه كبير الأنف له عينان تقدحان الشرر والذكاء . فى سحنته ما يوحى بأنها تتألف من متناقضات ، ومع ذلك، فإن هذه المتناقضات على نحو ما لا تؤذى الناظر . فوجهه أنيق وقور ، رزين مرح ، يطالعك منه اللاهوتى والأسقف والنبيل على السواء ، وفى هيئته كما فى شخصه يرى الناظر قبل كل شىء رقة وتواضعاً وقدراً فائقاً من رفعة الذهن . لقد كان عسيراً على الناظر إليه أن يحول عينيه عن وجهه(١١٦) » .

وعند ميشليه أن « فيه شيئاً من الشيخوخة منذ ولادته(١١٧) » —

لأنه كان ثمرة الازدهار الأخير لإقطاعى مكتهل فى بيريجوز تزوج آنسة نبيلة رغم فقرها، ضارباً صفحا عن تذمر أبنائه الكبار، وأقصى الابن الجديد عن المال بنذره للكنيسة . وربته أمه ، فشب على أناقة فى الحديث ورهافة فى الحس أشبه بأناقة حديث النساء ورهافة حسهن . وقد أحسن تثقيفه فى الآداب القديمة على يد معلم خاص ويسوعيى باريس ، فأصبح أديباً لا قسيساً فحسب . وكان فى استطاعته أن يبارى أى مهرطق فى الاستشهاد بأقوال الوثنيين ، ويكتب الفرنسية بأسلوب حساس مرهف مهذب هو نقيض أسلوب بوسويه الخطابى ، الفحل ، الجزل

رسم كاهنا فى الرابعة والعشرين (١٦٧٥) ، وسرعان ما رقى رئيساً لدير «الكاثوليك الجدد» . وهناك اضطلع بمهمة شاقة هى رد الشابات اللاتى أبعدن عن البروتستنتية حديثاً إلى حظيرة الإيمان الكاثوليكى . وقد استمعن إليه أول الأمر على مضض ، ثم فى استسلام ، ثم فى محبة ، لأنه كان يسيراً على المرء أن يقع فى غرام فنيلون ، ثم إنه الرجل الوحيد المتاح لهن . وفى ١٦٨٦ أرسل إلى إقليم لاروشل ليعاون على هداية الهيجونوت . وقد حبذ مرسوم الإلغاء ، ولكنه استنكر العنف ، وأنذر وزراء الملك بأن هداية الناس بالإكراه لن تكون إلا سطحية ومؤقتة . ولما عاد إلى الدير بباريس نشر (١٦٨٧) « رسالة فى تعليم البنات » تكاد تستشف فيها روح روسو فى دفاعها عن الوسائل اللينة فى التربية . ولما عين الملك الدوق دبوفيلييه مربياً لحفيده دوق برجنديه ، البالغ من العمر ثمانية أعوام ، طلب إلى فنيلون أن يتولى تعليم الصبى (١٦٨٩) .

أما الدوق الصغير فكان متكبراً عنيداً مشبوب العاطفة ، فى طبعه أحياناً شراسة وقسوة ، ولكنه أوتى ذهناً متألقا وذكاء متوقدا . وأحس فنيلون أن الدين وحده هو الكفيل بترويضه ، فأشربه مخافة الله ومحبته معاً ، واكتسب فى الوقت نفسه احترام تلميذه بأخذه بنظام حازم خفف

من شدته فهم عطوف لدور المراهقة . وقد راودته الأحلام باصلاح فرنسا عن طريق تربية ملكها للمستقبل . فعلم الغلام سخافة الحرب ، وضرورة النهوض بالزراعة بدلا من تثبيط همم الفلاحين بالضرائب تجبى لبناء المدن الباذخة ولتمويل الحروب العدوانية . وفى كتابه « حوارات الموتى » الذى ألفه لتلميذه ، وسم بالهمجية « تلك الحكومة التى لاقوانين فيها غير ارادة رجل واحد ... فالحاكم ينبغى أولا وقبل كل شىء أن يكون مطيعاً للقانون ، فاذا ابتعد عن القانون لم يعد لشخصه قيمة » . وكل الحروب حروب أهلية ، لأن الناس جميعاً أخوة ، يدين كل منهم للنوع الإنسانى — وهو الدولة الكبرى — بدين أعظم كثيراً من دينـــه للبلد الذى ولدفيه(١١٨) » . أما الملك ، الذى لم يكن ضالعا فى هذا التعليم الذى لا تفهمه غير القلة ، والذى رأى تحسنا عجيباً فى خلق حفيده ، فقد كافأ فنيلون برئاسة أسقفية كامبريه (١٦٩٥) . وأخجل فنيلون أحباراً كثيرين باقامته تسعة أشهر من كل عام فى مقر رئاسته الدينية . أما الشهور الباقية فكان ينفقها فى البلاط تواقا للتأثير فى السياسة ، مواصلا أحياناً تعليم الدوق .

وخلال ذلك كان قد التقى بالمرأة التى قدر لها أن تكون « المرأة القاضية عليه » بمعنى الكلمة . هــــذه المرأة ، واسمها مدام جان مارى دلا موت — جويون ، التى تزوجت فى السادسة عشرة ، وترملت فى الثامنة والعشرين وهى جميلة غنية ، تهافت الخطاب على طلب يدها ، ولكنها كانت قد تلقت تدريباً دينيا مكثفا ليحصنها ضد الرجال الطامعين ، ولم تجد لتقواها منصرفا كافيا فى المراعاة الصوريه لشعائر العبادة الكاثوليكية ، فاستمعت فى تجاوب لمتصوفة زمانها الذين وعدوا بسلام النفس — لا بالاعتراف والتناول والقداس بقدر ما هو بالاستغراق فى تأمل إله كلى الوجود ، وفى استسلام النفس لله استسلاماً كاملا محبا . فى مثل هذه المحبة الالهية لم يعد لأمور الدنيا وزن ، وفى مثل هذا التسامى الروحى يجوز للمرء أن يهمل كل الطقوس

الدينية ومع ذلك يرقى إلى السماء ، لا بعد الموت فحسب بل في الحياة أيضاً . وكانت محكمة التفتيش قد أدانت القس الأسبانى ميجويل دى مولينوس (١٦٨٧) لأنه بشر بـ « هدوئية » كهذه فى ايطاليا ، ولكن الحركة كانت تنتشر فى جميع أرجاء أوربا — فى «تقوية» ألمانيا والأراضى المنخفضة ، وبين الكويكرز وأفلاطوني كمبردج بأنجلترة ، وبين « المنذورين » فى فرنسا .

وقد بسطت مدام جويون آراءها فى عدة كتب ببلاغة مؤثرة . فزعمت أن النفوس أشبه بالسيول التى انبثقت من عند الله وأنها لن تجد الراحه حتى تفني نفسها فيه تعالى كأنها الأنهار يبتلعها البحر ، فإذا الفردية تتلاشى ، وإذا الوعى بالذات أو بالعالم ، بل الوعى كله ، ينتهى ولا يبقى غير الاندماج فى الله . فى مثل هذه الحال تكون النفس معصومه ، لا ينال منها خير ولا شر ، ولا فضيلة ولا خطيئه . فمهما فعلت ففعلها صواب ، ولا تستطيع قوة أن تؤذيها . وقالت مدام جويون لبوسويه أنها لا تستطيع أن تطلب المغفرة على ذنوبها ، لأنه لا ذنوب فى عالم الوجد الصوفى الذى تعيش فيه(١١٩) » . ورأت بعض نساء الطبقه الأرستقراطيه فى هذه الصوفيه لونا رفيعا من التقوى . وكان من بين مريديها السيدات بوفيلييه ، وشوفروز ، وبورتمار ، بل — إلى حد ما — مدام دمانتنون . واستهوى فنيلون نفسه هذا المزيج الساحر من التقوى والثراء والحسن . وكان خلقة هوذاته مزيجا معقداً من الصوفية والطموح والعاطفه الرقيقة . فأقنع مدام دمانتنون بأن تسمح لمدام جويون بالتدريس فى المدرسة التى أسستها زوجه الملك السرية فى سان سير ، وطلبت مانتنون إلى كاهن اعترافها أن ينصحها فى أمر مدام جويون ، فاستشار بوسويه ، ودعا بوسويه المتصوفة لتشرح له تعاليمها ، ففعلت . وتوجس الأسقف الحذر فيها خطرا يتهدد لاهوت الكنيسة وممارساتها ، لأنها لم تستغن عن الاسرار المقدسة والكاهن

فحسب ، بل عن الأناجيل والمسيح أيضاً ، فوبخها ، وناولها القربان ، وطلب إليها أن ترحل عن باريس وتكف عن التعليم . فوافقت أول الأمر ، ولكنها عدلت بعد ذلك . واستطاع بوسويه أن يحمل السلطات على حبسها في دير ثمانية أعوام (١٦٩٥ — ١٧٠٣) أفرج عنها بعدها شريطة أن تعيش في هدوء على ضيعة ابنها قرب بلوا ، وهناك ماتت عام ١٧١٧ .

وأراد بوسويه أن يرسم الحدود للتصوف المباح ، فألف كتاباً سماه « تعاليم عن حالات الصلاة » (١٦٩٦) وأطلع فنيلون على نسخة من المخطوطة وطلب إليه أن يوافق عليها . وتردد فنيلون ، وكتب كتاباً معارضاً سماه « تفسير أقوال القديسين المأثورة عن الحياة الباطنة » (١٦٩٧) . وأصبح الكتابان اللذان نشرا في وقت واحد تقريباً مثار نقاش واسع ، احتدم احتدام النقاش حول البور — رويال . أما الملك الذي كان يضع ثقته في بوسويه فقد عزل فنيلون من وظيفته معلماً لدوق برجنديه ، وأمره بأن يلزم أسقفيته في كامبرى . وطلب لويس إلى البابا بتحريض من بوسويه أن يشجب كتاب فنيلون . ولكن إنوسنت الثاني عشر تردد ، فهو لم ينس نزعة بوسويه الغالية ، ودفاع فنيلون عن سلطة البابا المطلقة . وضغط لويس على البابا ، فأذعن ، ولكنه توخى غاية الاعتدال في ادانته لكتاب « الاقوال المأثورة » (مارس ١٦٩٩) . وأذعن فنيلون للحكم في هدوء .

ثم راح يؤدي واجباته في كامبرى بإخلاص وضمير أكسباه احترام فرنسا ، ولعلهما كانا خليقين باسترضاء بوسويه والملك لولا أن طابعاً نشر (أبريل ١٦٩٩) برضى فنيلون رواية كان قد ألفها لتلميذه الأمير ووضع لها عنوانا بريئاً في ظاهره « تتمة لأوديسة هوميروس » وهي معروفة لنا باسم (مغامرات تيليماك بن أوليس) . هنا ، وفي أسلوب يفيض رشاقة ونعومة ورقة أنثوية تقريبا ، شرح المعلم اللطيف مرة أخرى فلسفته السياسية المثالية . فترى لسان حاله (منتور) يحذر الملوك بعد أن أقنعهم بسياسة السلام قائلا :

« منذ الآن تكونون كلكم شعباً واحداً تحت أسماء شتى ورؤساء مختلفين . . . فما النوع الإنسانى كله غير أسرة واحدة . . . وكل الشعوب إخوة . . . وما أتعس القوم الفجار الذين ينشدون المجد القاسى فى دماء إخوانهم المسفوكة . . . إن الحرب ضرورية أحياناً ، ولكنها معرة الإنسانية . فلا تزعموا لى أيها الملوك إن على المرء أن يبتغى الحرب إن أراد المجد . . . فكل من يؤثر مجده على مشاعر الإنسانية ليس إنساناً بل هو وحش تملؤه الكبرياء ، ولن يكسب غير المجد الزائف ، لأن المجد الحقيقى لا يكون إلا فى الاعتدال والصلاح . . . ويجب ألا يرى الناس فيه رأياً طيبا ، لأنه لم يقم لهم وزناً فى فكره ، وأراق دماءهم فى سفه ليرضى غروراً وحشياً (١٢٠) » .

وقد سلم فنيلون بحق الملوك الإلهى ، ولكن بوصفه قوة منحتهم إياها العناية الإلهية ليسعدوا الناس ، وحقاً تحده القوانين :

« إن السلطة المطلقة تهوى بالرعية جماء إلى درك العبودية . فهم يتملقون الطاغية إلى حد العبادة . وكلهم يرتعدون فرقا لنظرة منه ، ولكن ما إن تهب أضعف نسمة من نسمات التمرد عليه حتى ينهار هذا السلطان القبيح نتيجة شططه . ذلك أنه لم يستمد أى قوة من محبة الشعب(١٢١) » .

فى هذه الأسطر رأى لويس الرابع عشر نفسه موصوفا ، وحروبه مدانة . وبادر أصدقاء فنيلون بالاختفاء من البلاط ، وقبض على طابع « تيليماك » ، وأبلغت الشرطة بمصادرة جميع نسخه . ولكنه طبعه ثانية فى هولندة ، وسرعان ماتداولته الأيدى فى جميع أرجاء العالم القارىء للفرنسية ، وظل أوسع الكتب الفرنسية قراءة وأحبها إلى القراء طوال قرن من الزمان(١٢٢) وأكد فنيلون أن لويس لم يكن فى ذهنه فى هذه الفقرات الناقدة ، ولكن أحداً لم يصدقه . وانقضت سنتان قبل أن يجرؤ دوق برجنديا على الكتابة لمعلمه الأسبق . ثم لانت قناة الملك ، وسمح له بأن يزور فنيلون فى كامبرى .

وعاش رئيس الأساقفة يعلل نفسه بأن تلميـــذه سيرث العرش عما قليل ، وعندها يدعوه ليكون وزيره كما كان ريشليو وزيراً للويس الثالث عشر . ولـكن الحفيد مات قبل أن يموت الجد بثلاث سنين ، ثم سبق فنيلون نفسه لويس إلى القبر بقسعة أشهر (٧ يناير ١٧١٥) .

أما بوسويه فـكان قد سبقهما بزمان . لقد كان تمسا فى أخريات أيامه ، حقا إنه انتصر على فنيلون ، وعلى دعاة السلطة البابوية المطلقة ، وعلى المتصوفة ، ورأى الـكنيسة منتصرة على الهيجونوت ، ولـكن هذه الانتصارات كلها لم تيسر له قذف الحصى من مثانته . وقد برح به الألم تبريحا جعل من العسير عليه أن يحتمل الجلوس فى المـكان الذى أولع بالجلوس فيه فى احتفالات البـــلاط ، وتساءل الساخرون القســاة ، لم لا يستطيع أن يذهب إلى مو ويموت فى هدوء . وقد رأى من حوله ظهور الارتيابية ، ونقد الـكتاب المقــدس ، والجدليات البروتستنتية المنينة التى صوبت فى غير تقوى إلى رأسه . فها هو على سبيل المثال ذلك الهيجونوتى المنفى جوريو يخبر العالم بأنه هو ، بوسويه ، أسقف الأساقفة ، والصورة المجسمة للفضيلة والاستقامة ، كذاب أشر يعاشر المحظيات (١٢٢) . وقد بدأ تأليف كتب جديدة للرد على هؤلاء الخصوم السفهاء ، ولـكن الحياة كانت تنحسر عنه وهو يكتب ، وفى ١٢ أبريل ١٧٠٤ وضع الموت حداً لآلامه .

ويبدو لأول وهلة أن بوسويه يعين أوج الـكاثوليـكية فى فرنسا الحديثة . فقد لاح أن المذهب القديم قد استرد كل الأرض التى استولى عليها لوثر وكالفن ، وكان رجال الاكليروس يصلحون من أخلاقهم ، وراسين يخصص مسرحياته الأخيرة للدين . وكان بسكال قد أدار دوائر الارتيابية على المرتابين ، والدولة جعلت نفسها وكيلا مطيعا للـكنيسة ، والملك أوشك أن يـكون يسوعيا .

ومع ذلك لم يـكن الموقف بالغ الـكمال . فاليسوعيون لم ينقشع من

فوق رءوسهم بعد ذلك الغبار الذى أثارته عليهم رسائل بسكال الاقليمية ، والجانسنية مازالت بخير ، واللاجئون الهيجونوت يؤلبون نصف أوربا على الملك الورع ، والناس يقرأون مونتيني أكثر مما يقرأون بسكال ، وهوبز وسبينوزا وبيل يكيلون اللطمات الهائلة لصرح الإيمان . يقول القديس فانسان ديبول (١٦٤٨) ، « يشكو عدة رعاة من أن عدد من يتناولون القربان قد تقلص ، ففى سان — سولبيس نقص العدد ٣٠٠٠ ، ووجد راعى سان — نيكولا — دو — شاردونيه أن ١٥٠٠ من رعايا أبرشيته تخلفوا عن قربان القيامة[١٢٤] » . وقال بيل فى ١٦٨٦ « إن العصر الذى نعيش فيه يحفل بأحرار الفكر والربوبيين ، ويدهش الناس لكثرة عددهم[١٢٥] » « ويسود عدم المبالاة الرهيب بالدين فى كل مكان[١٢٦] » وقد عزا هذا إلى حروب العالم المسيحى وجدلياته . وقال نيكول : ليكن معلوما أن الهرطقة الكبرى فى العالم ليست الكالفنية ولا اللوثرية ، بل الإلحاد[١٢٧] » . وقالت الأميرة بالاتين فى ١٦٩٩ « قل أن يجد المرء الآن شابا لا يشتهى أن يكون ملحداً[١٢٨] » وروى لايبنتز أن فى باريس (١٧٠٣) « تفشت بدعة من يسمونهم العقول القوية ، ويسخر الناس هناك من التقوى . . . وتحت حكم ملك تقى صارم مطلق السلطة ، تجاوزت فوضى الدين كل الحدود التى شهدناها من قبل فى العالم المسيحى[١٢٩] » . وبين ذوى العقول القوية — وهى قوية إلى درجة تكفى للتشكك فى كل شىء تقريبا — نجد سان إفريمون ، وانينون دلانكلو ، وبرنييه ملخص فلسفة جاسندى ، ودوق نيفير وبوبون . وأصبح « التامبل » الذى كان يوما مقراً لفرسان المعبد (الداوية) فى باريس ، مركزاً لجماعة صغيرة من أحرار الفكر — شولييه وسيرفيان ، ولافار ، الخ — الذين أسلموا تحكمهم بالدين إلى عهد الوصاية . أما فونتنيل ، الذى قارب المائة وتحدى الفناء وأفسح له فى الأجل حتى تبادل النكت مع الموسوعيين ، فكان فى ١٦٨٧ ينشر كتابه (تاريخ النبؤات) ويقوض فى خبث أساس المسيحية المعجز . وهكذا مهد لويس فى نشوة تقواه وورعه الطريق لفولتير .

الفصل الثالث

الملك والفنون

١٦٤٣ — ١٧١٥

١ ـ تنظيم الفنون

لم يشهد التاريخ من قبل ولا من بعد ، ربما باستثناء عهد بركليس ، حكومة شجعت الفن ، أو غذته ، أو هيمنت عليه ، كما فعلت حكومة لويس الرابع عشر .

كان ذوق ريشليو الرفيع ومشترياته المختارة بحكمة قد أعانت الفن الفرنسي على أن يفيق من الحروب الدينية . وفى عهد وصاية آن النمساوية كان جامعو التحف الأهليون — من الأشراف ورجال المال — قد بدأوا يتنافسون فى جمع آثار الفن . فاقتنى بيير كروزا المصرفى مائة صورة بريشة تيشان ، ومائة أخرى بريشة فيرونوزى ، ومائتين بريشة روبنز ، وأكثر من مائة بريشة فانديك . أما فوكيه فقد جمع فى قصر فوكا رأيناصورا وتماثيل ، وتحفا فنية أقل شأنا ، وكان فى جمعه من التمييز أكثر مما كان فيه من الحكمة والحذر . وورث لويس مقتنياته بعد أن أجهز عليه ، وما لبث العديد من المجموعات الخاصة الأخرى أن جمع فى اللوفر أو فرساى . وكان مازاران قد آثر وضع شطر من ثروته فى الفن دون النقود تجنبا لهبوط قيمة العملة . وقد أسهم ذوقه الإيطالى الرفيع فى تكوين انحياز الملك إلى الفن الكلاسيكى . وأغلب الظن انه هو الذى علم لويس الرابع عشر أن مما يعزز مجد الحاكم أن يجمع الفن ويعرضه ويحتضنه . وقد هيأت هذه المجموعات المثل الحافزة والقواعد الموطدة لتعليم الفن وتطويره فى فرنسا .

وكانت الخطوة التاليه هي تنظيم الفنانين. وهنا أيضا كان مازاران سباقاً. ففي ١٦٤٨ أسس أكاديمية التصوير والنحت ، وفي ١٦٥٥ أصدر الملك مرسوما بهذه الأكاديمية فأصبحت الأولى في سلسلة من الأكاديميات التي قصد بها تدريب الفنانين وتوجيههم إلى خدمة الدولة وتجميلها . والتقط كولبير الخيط حيث تركه مازاران ، وبلغ بهذه المركزية للفن الفرنسي القمة . وكان يتطلع إلى « جعل الفنون تزدهر في فرنسا أكثر من ازدهارها في أي بلد آخر[١] » رغم أنه لم يدع لنفسه ملكة الحكم في أمور الفن . وبدأ بأن اشترى للملك مصنع جوبلان للنسيج المرسوم (١٦٦٢) وفي ١٦٦٤ حصل على منصب المشرف على العمائر ، فأتاح له هذا المنصب هيمنة على المعمار والفنون الملحقة به . وفي ذلك العام أعاد تنظيم أكاديمية التصوير والنحت ، وسماها الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة . وكان هنري الرابع قد أسكن اللوفر طائفة من مهرة الصناع ليزينوا القصور الملكية . فجعل كولبير من هؤلاء الرجال نواة للمصنع الملكي لأثاث التاج (١٦٦٧) . وفي ١٦٧١ أنشأ الأكاديميه الملكيه للعمارة ، حيث أغرى الفنانون بالبناء والزخرفه بـ « الذوق الرفيع » الذي يحبذه الملك . وفي هذه الجماعات كلها وضع مهرة الصناع تحت إشراف الفنانين ، وهؤلاء تحت إرشاد سياسة وطراز موحدين .

ورغبة في دعم الاتجاه الكلاسيكي الذي تلقاه الفن الفرنسي إبان عهد فرنسوا الأول ، وتنقيته من التأثيرات الفلمنكية ، أنشأ كولبير وشارل لبرون أكاديمية فرنسا الملكيه في روما (١٦٦٦) . وكان الطلاب الحائزون على جائزة روما في أكاديميه باريس يبعثون إلى إيطاليا ويعالون خمس سنين على حساب الحكومة الفرنسية . وفرض عليهم أن يستيقظوا في الخامسة صباحا ويمضوا إلى الفراش في العاشرة مساء . وقد دربوا على نسخ النماذج الكلاسيكية ونماذج النهضة ومحاكاتها ، وكان ينتظر من كل منهم أن ينتج « رائعة » (بالمعني المصطلح عليه في نظام الطوائف) مرة كل ثلاثة أشهر ، فإذا عادوا إلى فرنسا كان للدولة الحق المقدم في خدماتهم .

وكانت ثمرة هذه الرعاية والتأميم للفن إنتاجا رائعا ضخما للقصور ، والكأس ، والتماثيل ، والصور ، وقطع النسيج المرسوم ، والخزف ، والميداليات ، والمحفورات ، والنقود ، وكلها مطبوع بكبرياء « الملك الشمس » وذوقه ، وبقسمات وجهه أحياناً كثيرة . ولم يكن هذا إخضاع الفن الفرنسى لروما كما شكا البعض ، بل إخضاع فن روما للويس الرابع عشر . وقد استهدف الأسلوب أن يكون كلاسيكيا ، لأن ذلك الأسلوب يتفق وعظمة الدول وجلال الملوك . وتدفقت الأموال الفرنسية إلى إيطاليا بأمر كولبير لشراء آثار الفن الكلاسيكى أو فن النهضة ، وبذل كل شيء لنقل مجد الأباطرة الرومان إلى ملك فرنسا وعاصمتها ، وكانت النتيجة مذهلة للعالم .

وأصبح لويس الرابع عشر أعظم رعاة الفن الذين عرفهم التاريخ . فقد « بذل للفنون من التشجيع قدراً أعظم من جميع نظرائه من الملوك مجتمعين » (فى رأى فولتير)(٢) . وكان بالطبع أسخى حماة الفنون ، ازداد عدد الصور فى قاعاته من مائتين إلى ألفين وخمسمائة ، وكان كثير منها من إنتاج فنانين فرنسيين كلفهم الملك برسمها . واشترى الكثير جداً من المنحوتات الكلاسيكية وتماثيل عصر النهضة ، حتى لقد خشيت إيطاليا أن تنزح آثارها الفنية ، وحظر البابا المزيد من تصدير هذه الآثار . واستخدم لويس رجالا موهوبين مثل جيراردون أو كوازيفوكس لنقل نسخ من التماثيل التى لم يستطع شراءها ، وقل أن نافست نسخ أصولها كما نافستها هذه النسخ . وملئت قصور باريس وفرساى ومارلى وحدائقها وبساتينها بالتماثيل ، وكان أوثق سبيل إلى قلب الملك إهداؤه أثراً ذا جمال غير منازع أو شهرة راسخة . مثال ذلك أن مدينة آرل أهدته تمثالها الشهير « فينوس » فى ١٦٨٣ . ولم يكن لويس بالرجل الشحيح . وقد قدر فولتير أنه كان يشترى فى كل عام من آثار الفنانين الفرنسيين ما قيمته ٨٠٠,٠٠٠ جنيه ويهديها للمدن والمؤسسات والأصدقاء(٣) بهدف مساعدة الفنانين وبث ملكة الجمال والإحساس الفنى فى الوقت نفسه . وكان ذوق الملك سليما أسدى إلى الفن

الفرنسى أيادى بيضاء ، ولكنه كان كلاسيكياً إلى حد ضيق . فحين أروه بعض الصور التى رسمها تنييه الابن قال آمراً « ابعدوا عني هذه الأشياء البشعة »(٤) وقد ارتقى الفنانون بفضل رعايته كثيراً ، سواء فى أرباحهم أو مكانتهم الاجتماعية . وقد ضرب المثل بتكريمه إياهم شخصياً ، وحين شكا البعض من ألقاب الشرف التى خلعها على المصور لبرون والمعمارى جول — آردوان — مانسار أجاب فى شىء من الحدة « فى وسعى أن أصنع عشرين دوقا أو نبيلا فى ربع ساعة ، ولكن صنع فنان كمانسار يقتضى قروناً »(٥) . وبلغ راتب مانسار ٨٠٫٠٠٠ جنيه فى العام ، أما لبرون فكان يتقلب فى نعيم قصوره بباريس وفرساى ومونمورنسى . وتقاضى لارجليير وريجو ستمائة جنيه أجراً عن كل لوحة . « ولم يترك فنان كفء فى عوز »(٦) .

وقلدت الأقاليم العاصمة فى تكريم الفن وإثابته ، واقتدى النبلاء بمليكهم . فطورت المدن مدارس فنية خاصة بها — فى روان ، وبوفيه ، وبلوا ، وأورليان ، وتور ، وليون ، وإكس — أن — بروفانس ، وتولوز ، وبوردو وواصل النبلاء دورهم رعاة للفن وإن تقاص لأن الدولة استوعبت المواهب المتاحة ، وأسهم الذوق المدرب الذى نشئت عليه أرقى أرستقراطية فى أوربا فى توطيد الطراز الرفيع الذى اتسمت به منتجات الفن فى عهد لويس الرابع عشر . واكتسب الرجال والنساء الذين ولدوا فى نعيم الامتيازات والثراء وشبوا على العادات المهذبة وسط محيط جميل وأشياء بديعة — نقول إنهم اكتسبوا معايير وأذواقا ممن يكبرونهم سناً كما اكتسبوها من بيئتهم ، وكان على الفنانين أن يلبوا مطالب تلك المعايير ويشبعوا تلك الأذواق . ولما كان الاعتدال ، وضبط النفس ، والتعبير الأنيق ، والحركة الرشيقة ، والشكل المعقول ، لما كانت هذه كلها مثل الارستقراطية الفرنسية فى هذا العهد ، فقد تطلبت هذه الصفات فى الفن ، وحبذ النظام الاجتماعى الطراز الكلاسيكى . وأفاد الفن من هذه المؤثرات والهيمنات ، ولكنه دفع ثمنها . ذلك أنه فقد اتصاله بأفراد الشعب ، ولم يستطع أن يعبر عنهم كما

استطاع الفن الهولندى والفلمنكى أن يعبر عن الأراضى المنخفضة ، وأصبح الفن صوت طبقة ، وصوت الدولة والملك ، لا صوت الأمة . فأنت لا تجد فى فن هذه الحقبة الكثير من دفء الوجدان أو عمقه ، ولا تجد ألوان روبنز الغنية وأجساده المكتنزة ، ولا تجد الظلال العميقة التى تلف حاخامات رمبرانت وقديسيه وماليبه ، ولا ترى فلاحين ولا عمالا ، ولا متسولين ، بل السعادة الجميلة ترتع فيها صفوة البشر .

وأبهج كولبير ومولاه أن يجدا فى شارل لبرون رجلا يستطيع أن يكون فى وقت واحد خادماً غيوراً للحكومة وقاضياً متسلطاً فى هذا الطراز الكلاسيكى ففى ١٦٦٦ عين لبرون بتوصية كولبير كبيراً لمصورى الملك ومديراً لأكاديمية الفنون الجميلة ، وبعد عام عهد إليه بمصنع جوبلان ، ووكل بالإشراف على تعليم الفنانين وتشغيلهم ليبدو فى أعمالهم تناسقاً فى الأسلوب مميزاً للعهد وممثلا له . وبمعاونة مساعدين على شاكلته فى التفكير أنشأ لبرون فى الأكاديمية نظام « المحاضرات » (١٦٦٧) التى غرست بنظامها أصول الأسلوب الكلاسيكى بتعاليم وأمثلة وسلطان . واختير رفائيل من بين الفنانين الإيطاليين ، وبوسان من بين الفنانين الفرنسيين ، نموذجين مفضلين على غيرهما ، وكانت كل لوحة يحكم عليها بمعايير مستقاة من فنهما . وقد صاغ لبرون وسباستيان بوردون هذه القواعد ، فرفعا الخط فوق اللون ، والانضباط فوق الأصالة ، والنظام فوق الحرية ، ولم تعد مهمة الفنان أن ينقل الطبيعة بل أن يجملها ، ولا أن يعكس فوضاها وعيوبها وبشاعاتها كما يعكس جمالها العارض ، بل أن ينتقى من بين سماتها تلك التى تتيح للنفس الإنسانية الإفصاح عن أعمق مشاعرها وأرفع مثلها . وكان على المعماريين والمصورين والنحاتين والخزافين وصناع المشغولات الخشبية والمعدنية والزجاجية والنقاشين ، أن ينطقوا فى صوت متناسق واحد بتطلعات فرنسا وبعظمة الملك .

٢ ـ العمارة

على أن هؤلاء الفنانين الفرنسين « المنطلينين » كانوا قد عادوا من روما وقد اكتسبوا طلاء « باروكياً » على غير وعى منهم . وقد وصفنا من قبل ذلك الطراز — طراز الباروك — الذى عم الآن وانتشر . وخلاصته أنه يحل محل البساطة الهادئة التى تميزت بها الأشكال الكلاسيكية إسرافاً فى الوجدان والزخرف ، وبينما نرى المثل الكلاسيكى — وعلى الأخص الهللنستى — قد حوكى فى نحت هذا « القرن العظيم » وتصويره وأدبه ، نجد العمارة والزخرفة قد أخذتا عن الطرز الأنيقة المنمقة التى عقد لها لواء النصر فى إيطاليا بعد وفاة ميكلانجلو (١٥٦٤) . فلقد استهدف بناءو الملك الطراز الكلاسيكى ، ولكنهم حققوا الباروكى — الباروكى الكامل فى فرساى ، ومزيجاً موفقاً من الباروكى والكلاسيكى فى واجهات اللوفر .

أما أول الروائع المعمارية فى هذا العهد فهى كنيسة ڤال — دجراس بباريس . وكانت آن النمساوية قد نذرت نذراً ببناء معبد جميل إذا وهبها الله ولويس الثالث عشر غلاماً . فلما أتاحت لها وصايتها على العرش المال كلفت فرنسوا مانسار بوضع تصميمات الكنيسة . وأرسى لويس الرابع عشر الحجر الأول فى ١٦٤٥ وكان يومها فى السابعة . ونفذ تصميم مانسار على يد لومرسييه بالطراز الكلاسيكى ، وتوج بقبة مازالت محط إعجاب المعماريين . وشيد لبرال برويان كنيسة سان — لوى — ديزا نفاليد (١٦٧٠) لقدامى المحاربين الذين يأويهم الأوتيل ديزنفاليد . وفى ١٦٧٦ كلف لوفوا المعمارى جول اردوان مانسار (حفيد أخى فرنسوا مانسار) بأن يكمل الكنيسة بخورس وقبة . والقبة فى جمالها الرشيق رائعة العهد المعمارية . وقد حقق أردوان مانسار انتصاراً آخر فى تصميم الكنيسة الملحقة بفرساى (١٦٩٩) . وقد أكمل عمله هنا وفى الانفاليد صهره روبيردكوت

بزخرفة مترفة ، وهو الذى أقام كذلك الأوتيل دفيل فى ليون ، ودير سان دنى ، وواجهة سان — روش .

وحلت العمارة الملكية محل العمارة الكنسية حين تفوقت الدولة على الكنيسة ثراء ومكانة ، فأصبحت المشكلة الآن هى التعبير عن القوة لا عن الورع . وكان للوفر فى تلبية هذه الحاجة ميزة تميز بها على غيره من العمائر ، هى ما أحاط به من تقاليد موروثة . فقد شهدت نموه أجيال كثيرة ، وترك ملوك كثيرون بصماتهم على تاريخه . فشيد لومرسييه الواجهة الغربية للجناح الرئيسى بتكليف من مازاران ، وبدأ الجناح الشمالى على طول شارع ريفولى الحالى . وأتم هذا الجناح خلفه لوفو ، وأعاد بناء واجهة الجناح الجنوبى (المواجه لنهر السين) ، وأرسى أساسات الجناح الشرقى . فى هذه الفترة الهامة أصبح كولبير المشرف على العمائر . وإذ رفض تصميمات فو للجناح الشرقى ، فقد فكر فى مشروع مد اللوفر غربا ليلتقى بالتويلرى فى قصر واحد . فأذاع على معماريى فرنسا وإيطاليا مسابقة فى تصميم واجهة جديدة . ورغبة منه فى الحصول على أفضل التصميمات ، أقنع الملك بأن يرسل دعوة خاصة إلى جوفانى لورنتزو برنينى (١٦٦٥) وهو يومها أمير الفنانين الأوربيين غير منازع ، ليأتى إلى باريس على نفقة الملك ويقدم تصميمه . وأتى برنينى بأبهته الكبرى ، وأغضب الفنانين الفرنسيين باحتقاره لعملهم ، ووضع تصميما ضخما باهظ التكلفة يقتضى هدم كل اللوفر القائم تقريبا . ووجد كولبير فى التصميم عيوبا تتصل بأنابيب المياه وغيرها من مرافق المعيشة ، واستشاط برنينى غضبا وقال إن « المسيو كولبير يعاملنى كأننى غــــلام صغير ، بــكل لغوه عن المراحيض والقنوات السفلية(٧) » وأمكن الوصول إلى حل وسط . فقد وضع الملك الحجر الأساسى لتصميم برنينى ، وبعد أن اقام الفنان ستة أشهر فى باريس رد إلى إيطاليا محملا بالمال وأسباب التشريف ، وقد حاول أن يرد على هذا بتمثال نصفى للويس الرابع عشر يقوم الآن بفرساى ، وبتمثال للويس راكبا جواده فى « جاليريا

بورجيزى » بروما أما تصميمه للوفر فتخلى عنه ، واحتفظ بالمبنى القائم وكوفىء شارل بيرو بتكليفه ببناء الواجهة الشرقية . وارتفع صف أعمدة اللوفر الشهير ، الذى أثارت عيوبه الواضحة سيلا من النقد(٨) ، ولكننا نتقبله الآن على أنه من أعظم واجهات العمائر فى العالم .

وكان كولبير يؤمل أن ينتقل الملك من مسكنه الضيق فى سان — جرمان إلى اللوفر بعد تجديده . ولكن لويس لم ينس كيف أكره هو وأمه على الفرار من الجماهير الباريسية خلال حرب الفروند . وكان رأيه فى صوت الشعب أنه صوت العنف ، فلم يشأ أن يعرض نفسه لمثل هذه الكوابح لحكمه المطلق . وعليه قرر أن يبنى فرساى ، وروع القرار كولبير .

وكان لويس الثالث عشر قد شيد هناك استراحة متواضعة للصيد فى ١٦٢٤ . ورأى أندريه لنوتر فى منحدر هذا الموضع الذى كان يرتفع فى رفق ، وفى أحراجه الغنية ، فرصة مغرية للتفنن فى تنسيق الحدائق . ففى ١٦٦٢ قدم للويس الرابع عشر تصميما عاما للمنطقة ، وإذا كانت المبانى اليوم منخفضة عن المروج والبحيرة ،وعن الازهار والشجيرات ومختلف الأشجار ، فلعل هذا هو الوضع الذى تصورها عليه لنوتر . فهو لم يقصد بالقصر أن يكون آية من آيات المعمار بقدر ما يكون دعوة إلى الحياة خارجه بين أحضان طبيعة روضها الفن وجملها ، دعوة لتنشق عبير الزهر والشجر ، ولإشباع العين واللمسة المتخيلة من الأجساد الكلاسيكية النحت ، ولمطاردة الفرائس والنساء فى الغابات ، وللرقص وتناول الطعام على العشب ، ولركوب الزوارق على القناة والبحيرة ، وللاستماع إلى لولى وموليير تحت القبة الزرقاء . فهاهنا جنة من جنان الآلهة ، بنيت بدراهم عشرين مليونا من الفرنسيين لن يروها إلا لماما ، ولكنهم يعتزون بعز مليكهم . ومما يسر أن نعرف أن بستان فرساى كان مفتوحا للشعب إلا فى المناسبات الملكية .

وكان فن إنشاء الحدائق المنسقة البهية وافدا من إيطاليا ككثير غيره

من الفنون ، وقد جلب معه عشرات الحيل والمفاجآت ، كالتعاريش ، والشعريات ، والمغارات ، والكهوف ، والأشكال الغريبة (الجروتسك) ، والأحجار الملونة ، وبيوت الطير ، والتماثيل ، والزهريات ، والغدران ، والنوافير ، والميازيب ، وحتى الأراغن تعزف إلى جوار الماء الجارى . وكان لنوتر قد صمم من قبل حدائق نو لفوكيه ، وبعد قليل سيصمم حدائق التويلرى للملكة ، وحدائق سان كلو لمدام هنرييتا ، وحدائق شانتيى لكونديه الكبير . وأطلق لويس يده فى فرساى من ١٦٦٢ فصاعداً ، وروعت كولبير التكاليف التى أنفقت على تحويل برية شعثاء إلى فراديس غناء . وتعلق قلب الملك بلنوتر الذى لم يأبه للمال بل للجمال فقط ، والذى كان فنانا صادقا لا غش فيه(٩) . لقد كان بمثابة « بوالو » الحدائق ، المصمم على أن يغير « فوضى » الطبيعة إلى نظام وتناسق وشكل معقول مفهوم . ولذلك كان مسرفا فى إصراره على الكلاسيكية ، ولكن الحدائق التى أبدعها مازالت بعد ثلاثمائة سنة كعبة يؤمها البشر فيما يؤمون .

كان لويس لا يزال يحسد فوكيه ، فأتى بلوفو معمارى قصر فو ليوسع استراحة الصيد ويجعل منها قصرا ملكيا . وتسلم جول أردوان ما نسار إدارة المشروع فى ١٦٧٠ . وبدأ تشييد غرف السكن والقاعات وغرف الاستقبال وصالات الرقص وحجرات الحراسة والمكاتب الإدارية — كل هذه الأبنية الشاسعة التى نشهدها اليوم فى فرساى . وما وافى عام ١٦٨٥ حتى كان يكدح فى المشروع ٣٦٫٠٠٠ رجل و ٦٫٠٠٠ حصان فى اوبات بالليل والنهار . وكان كولبير منذ زمن طويل قد حذر الملك من أن معماراً كهذا ، مضافا إلى الحرب يخوضها بعد الحرب ، سينتهى بإفلاس الخزانة ، ولكن فى ١٦٧٩ بنى لويس قصراً آخر فى مارلى ، ملاذاً يلجأ إليه من زحام فرساى ، وفى ١٦٨٧ أضاف الجران تريانون ليكون خلوة لمدام دمانتنون . وأمر جيشا من الرجال فيهم الكثير من الجنود النظاميين بتحويل نهر أور ونقل مياهه خلال تسعين ميلا من « قناة مانتنون »

لتزويد بحيرات فرساى ونهيراته ونافوراته وحماماته بالمياه ، وفى ١٦٨٨ هجر هذا المشروع بعد أن أنفقت عليه الأموال الطائلة حين دعا داعى الحرب. وقد كلف فرساى فرنسا حتى عام ١٦٩٠ مبلغا جملته ٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك (٥٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار ؟(١٠)) . وفرساى ، من الناحية المعمارية ، فيه من التعقيد والجزافية ما ينأى به عن الكمال . أما الكنيسة فرائعة ، ولكن هذا الزهو بالزخرف لا يكاد يتفق وتذلل العبادة . وبعض أجزاء القصر جميل ، والسلم المفضى إلى الحدائق فخم ، ولكن إلزام مصمميه بأن يتركوا استراحة الصيد دون أن يمسوها فى تصميمهم ، ويكتفوا بإضافة أجنحة وزخارف ، كل هذا أضر بمظهر البناء فى مجموعه . وقد تترك هذه المجموعة المتكاثرة من الأبنية فى النفس انطباع الرتابة الباردة والتكرار المتناهى — فالحجرة تقفو الحجرة على امتداد ١٣٢٠ قدما من الواجهة . ويبدو أن تنظيم القصر من داخله تجاهل الراحة الفسيولوجية لنزلائه ورواده ، وافترض قوة ضبط هائلة فى الأمعاء النبيلة ، فكان على من يريد إزالة ضرورة أن يعبر ست حجرات . لا عجب إذن أن سمعنا بأن السلالم والطرقات كانت تستخدم فى مثل هذا الغرض . أما الحجرات ذاتها فتبدو أصغر من أن تسمح بالراحة . وليس هناك حجرة فسيحة سوى القاعة الكبرى التى تمتد ٣٢٠ قدما على طول واجهة الحديقة ، هناك نشر المزخرفون كل مهاراتهم — فعلقوا قطع نسيج جوبلان وبوفيه المرسومة ، وبثوا المنحوتات على الجدران ، وبلغوا بكل قطعة أثاث الكمال المحبب ، وعكسوا كل البهاء فى تلك المرايا الكبيرة التى أعطت الحجرة اسمها الثانى ، وهو « قاعة المرايا » . وعلى السقف صور لبرون الذى ارتفع إلى ذروة فنه ، خلال خمس سنوات (١٦٧٩ — ٨٤) ، وبرموز أسطورية ، انتصارات حكم لويس الطويل ، وسجل مأساته دون وعى منه ، لأن هذه الانتصارات المصورة على أسبانيا وهولندة وألمانيا أزمعت أن تثير أرواح النقمة على الملك الشغوف بالحرب .

وعاش لويس فى فرساى على نحو متقطع منذ ١٦٧١ ، وأنفق بعض وقته فى مارلى ، وسان — جرمان ، وفونتنبلو ، وبعد ١٦٨٢ أصبح فرساى مقره الدائم . ولكننا نظلمه إذا ظننا أن فرساى كان مسكنه وملهاه ، فهو لم يشغل سوى جزء متواضع من المبنى ، أما الباقى فقد سكنته زوجه ، وأبناؤه ، وأحفاده ، وخليلاته ، والمفوضيات الأجنبية وكبار الإداريين ، وأفراد الحاشية ، وكل الخدم والحشم الذين تطلبهم البيت المالك . ولا ريب فى أن بعض هذا البهاء كان له هدف سياسى — هو إدخال الرهبة فى قلوب السفراء الذين توقع منهم لويس أن يحكموا من هذا البذخ على موارد الدولة وسطوتها . وقد وقع هذا من نفوسهم ونفوس غيرهم من الزوار فأذاعوا فى أرجاء أوربا من الأنباء عن بهاء فرساى ما جمله البلاط المحسود ، والمثل الذى يحتذيه الكثير من البلاطات والقصور فى القارة الأوربية بأسرها . أما فى عقابيل هذا العهد فقد بدت هذه الكتلة الضخمة من المبانى رمزا وقحا للاستبداد وتحديا مستهترا من كبرياء الإنسان لمصير الإنسان غير المتغير .

٣ — الزخرفة

لم تعرف فنون الزخرفة قط ، حتى على عهد بابوات النهضة ، مثل هذا التشجيع والعرض . فقد كانت الأرضيات المكسوة بالبسط السميكة ، والأعمدة الزينية ، والموائد ورفوف المستوقدات الزخرفية الضخمة ، والزهريات من الخزف الصينى ، والشمعدانات الفضية والثريات البلورية ، والساعات الجدارية الرخاميه المطعمه بالأحجار الكريمه ، والجدران ذات الحشوات الخشبيه أو الرسوم الجصيه أو الصور أو قطع النسيج المرسوم ، والكرانيش المصبوبه صبا أنيقا ، والأسقف ذات الزخارف الغائرة أو الصور ، هذه كلها وكثير غيرها من ألوان الفن فى فرساى وفونتنبلو ومارلى واللوفر ،

وحتى فى قصور الأهالى ، جعلت من كل حجرة تقريبا متحفا لأشياء تخلب العيون والألباب بسر الكمال الخفى . وعن رفائيل ومساعديه — جوليو رومانو ، وبيرينو ديل فاجا ، وجوفانى دا أوربيني — وعن قاعات الفاتيكان ، نقل لبرون ومساعدوه مجموعة الأرباب والربات والكوبيدات وتذكارات النصر والشعارات والنقوش العربية ، وأكاليل الزهر وورق الشجر ، والحليات القرنية لثمار الأرض ، يزينون بها سجل انتصارات الملك على النساء والدول .

وكان الأثاث بطراز لويس الرابع عشر مترفا فاخرا ، هنا أذعنت البساطة الكلاسيكيه للزخرفة الباروكية . فالمقاعد مسرفة فى النقش والتنجيد والتدبب إسرافا أبعد عنها الأعجاز خشبية إلا أرقها . أما الموائد فكانت تجد بينها الثقيل المتين إلى حد يبدو معه غير قابل للحركة . وكانت مناضد الكتابة والمكاتب المزودة برفوف للكتب غاية فى الأناقة بحيث تغرى القلم بالكتابة فى ايجاز لاروشفوكو المحكم أو فى حيوية مدام دسفينييه المتدفقة . وكثيرا ما كانت الصناديق وخزانات النفائس تنقش بعناية فائقة أو تطعم برسوم من معدن أو أحجار كريمة . وقد أعطى أندريه شارل بول اسمه (buhlwork) لفنه الخاص ، فن تطعيم الأثاث ، لاسيما الأبنوسى ، بالمعدن المحفور ، وصدف السلاحف ، واللؤلؤ إلخ ، مضيفاً حليات درجية تمثل النبات أو الحيوان ذات رسوم غاية فى الرشاقة ، وكان يقيم فى اللوفر (١٦٧٢) بوصفه نجار الأثاث الأثير لدى لويس الرابع عشر . ولقد بيعت إحدى خزاناته المطعمة بمبلغ ٣٠٠٠ جنيه إنجليزى فى ١٨٨٢ ، وربما كان هذا المبلغ يعادل ٥٠٠٠٠ دولار فى ١٩٦٠(١١) . ولكن بول مات فى فقر مدقع بعد أن بلغ التسعين فى ١٧٣٢ . وقد يكون أوفق لأذواقنا تلك الأكشاك المنقوشة التى أقيمت فى هذه الفترة فى كاتدرائية نوتردام دبارى .

وأصبح النسيج المرسوم الآن فنا اختص به الملك . ولم يقنع كولبير

بإخضاع مصنعى جوبلان وأوبوسون لإشراف الملك ، فأقنعه بأن يتسلم أيضا مصنع النسيج المرسوم فى بوفيه . وكانت هذه القطع المرسومة لا تزال الحلية المفضلة لجدران القصور وسجفها فى المدن والريف ، والمهرجانات ، والمباريات ، والاحتفالات الرسمية ، والأعياد الدينية . وقد صمم المصور الفلمنكى آدم فان درمولر فى بوفيه سلسلة رائعة من الرسوم سماها «فتح لويس العظيم » ، وأعد الفنان لها نفسه بأن تبع لويس إلى حروبه ورسم بالقلم أو صور بالألوان على الطبيعة للمواقع والحصون والقرى التى كانت مسرحا لحملاته الحربية . وكان مصنع جوبلان يستخدم ٨٠٠ من مهرة الصناع الذين لم يكتفوا بصنع قطع النسيج المرسوم ، بل المنسوجات الرفيعة وأشغال الخشب والفضة والمعادن والتطعيم بالرخام . وهناك نسجت تحت إشراف لبرون قطع النسيج المرسوم العظيمة نقلا عن الرسوم التخطيطية التى حفلت بها صور رفائيل الجصية الضخمة فى قاعات الفاتيكان . وليس أقل من هذه شهرة السلاسل العديدة التى صممها لبرون ذاته ؛ فصور قوى الطبيعة ، والفصول ، وتاريخ الإسكندر ، ومساكن للملك ، وتاريخ الملك والمجموعة الأخيرة كانت تعد سبع عشرة قطعة ، واستغرق الفنان فى صنعها عشر سنين ، وما زال نموذج رائع منها معروضاً فى حجرات عرض قطع الجوبلان — فيها ترى الأجسام متميزة إلى حد مذهل ، والتفاصيل متخيلة تخيلا كاملا ، حتى صورة المنظر الطبيعى التى على الجدار ، وكل هذا بخيوط ملونة نسجتها فى صبر وأناة أيد صناع تحت عيون مجهدة . وندر أن كرس مثل هذا الجهد البشرى الضخم للزلفى لرجل واحد . وقد اعتذر لويس عن هذا بأن زعم لكولبير أن أسباب التمجيد هذه تتيح المهالة والدخل للصباغين والنساجين ، وتوفر هدايا ذات وقع جميل فى عملية « تشحيم » الدبلوماسية .

وترعرعت كل الفنون الصغيرة تحت اليد الملكية السخية . فصنعت الأبسطة الفاخرة فى لاسافونيرى قرب باريس . وأنتج القاشانى البديع فى

روان وموستييه ، والخزف الإيطالى (الميوليق) الجيد فى نيفير ، والصينى اللين المحينة فى روان وسان كلو . وفى أخريات القرن السابع عشر تعلم الصناع الفرنسيون بتحريض كولبير أسرار البنادقة فى صب بللور المرايا الكبيرة وتسويته وصقله ، وهكذا صنعت مرايا « قاعة المرايا » الرائعه(١٢). ونظم كولبير ولبرون الصاغة أمثال جوليان دفونتيين وفانسان بتى وأسكنهم فى اللوفر ، فصنعوا للملك وللأغنياء مئات التحف من الفضة أو الذهب — إلى أن صهر لويس والأغنياء هذه الحلى لتمويل الحرب . وقطعت الأحجار الكريمه والمداليات : وضربت العملة ، ونقشت بتصميمات كانت المثل الذى تحتذيه أوربا كلها فيما عدا إيطاليا . ولم يصل فن صنع المداليات منذ عصر النهضة إلى مثل هذا الابداع الذى حققه الآن على يد انطوان بنوا وجان موجيه . أما كولبير ، الذى لم يترك حجرا دون نقش ، فقد أسس فى ١٦٦٢ أكاديمية المداليات والنقوش ، ليخلد أعمال الملك . . . بمداليات تضرب تكريما له(١٣) » وذلك كان أسلوب الوزير الكبير فى تجنيد الغرور الذى يملك المال فى خدمة الفن الغالى النفقه . وفى ١٦٦٧ أنشئت مدرسة للصور المحفورة فى اللوفر ، ورسمت مناقيش روبير نانتوى وسبستيان لكلير وروبير بونار وجان لبوتر فى رهافة بالغة التدقيق شخصيات العهد وأحداثه . وحتى رسم المنمنمات ظل على قيد الحياة — وأن هبط عن سابق مقامه فى العصر الوسيط — فى كتاب « ساعات الصلاة » الذى أهداه إلى الملك متقاعدوه فى الأنفاليد . إن الفنون الصغيره ، دون سائر الفنون ، هى التى تظهر ذوق « القرن العظيم » وبراعته الفنية .

٤ — التصوير

إن نجمين من نجوم التصوير ذوى المرتبة الثانية يقمان فى الفلك الخارجى لهذا العصر ، وهما فيليب دشامبين ، وأوستاش لوسويهر . أما فيليب فقد وفد

من بروكسل وهو فى التاسعة عشرة (١٦٢١) ، وشارك فى زخرفة قصر اللكسمبورج ، ولم يكتف برسم صورة ريشليو بقامته الكاملة ، وهى المحفوظة فى اللوفر ، بل صنع أيضا تمثالا نصفيا للكردينال ، وصوره صورا جانبية محفوظة بمتحف الفنون القومى بلندن . وقد أتاه ميله المتعاطف لتصوير الأشخاص بزبائن من نصف زعمـــاء فرنسا فى الجيل الذى تلا ريشليو ، كما زاران وتورين وكولبير ولمرسييه ... وكان قبل قدومه إلى فرنسا قد صور جانسن واعتنق الجانسنية ، وأحب البور — رويال ورسم صوراً للأم انجليك وروبير آرنو وسان — سيران . ورسم للبور — رويال أروع صوره « الراهبات » باللوفر ، وترى فيها الأم آنييس مكتئبة ولكنها لطيفة ، ومعها سوزان ابنة المصور الراهبة . وكان مجال شامبين محدودا ، ولكن فنه يدفئ قلوبنا بما فيه من وجدان واخلاص .

أما أوستاش لوسويير فكان متدينا كصاحبه ولكنه أكثر سنية فى إيمانه ، مما جعله قلقا فى جيل سيطر على التصوير فيه منافسه لبرون ، وتسلطت على هذا الفن فيه أساطير وثنية كرست لتأليه ملك لم يكن قد ثاب إلى تقواه بعد . وقد درس المصوران (لوسيير ولبرون) معا على فويه ، ورسما معا فى قبو واحد ، واستخدما نفس النموذج ، وأثنى عليهما على السواء بوسان فى زيارته لباريس . وتبع لبرون بوسان إلى روما وتشرب الروح الكلاسيكية . أما لوسويير فلزم باريس مربوطا بزوجة مخصبة ولم يستطع الفكاك من الفقر إلا نادرا . وحوالى ١٦٤٤ رسم خمس صور تصف حوادث فى حياة إله الحب لسقف « حجرة الحب » فى قصر ولى نعمته لامبير دتوريني ، وفى حجرة أخرى من حجرات قصر لامبير هذا نفذ رسما جصيا كبيرا يسمى « فيتون يطلب أن يقود مركبة الشمس » . وفى ١٦٤٥ تورط لوسويير فى مبارزة قتل فيها خصمه ثم اختبأ فى دير للكارتوزيين ، وهناك رسم اثنتين وعشرين صورة من حياة القديس برونو مؤسس الطريقة

الكارتوزية ، وفى هذه الصور بلغ الفنان أوجه . وفى ١٧٧٦ اشتريت هذه السلسلة من الرهبان الكارتوريين بمبلغ ١٣٢٫٠٠٠ جنيه فرنسى ، وهى اليوم تشغل غرفة خاصة باللوفر . ولما عاد لبرون من إيطاليا (١٦٤٧) اكتسح أمامه كل شىء ، وانتكس لوسويير إلى فقره ، ثم مات فى ١٦٥٥ ولما يجاوز الثامنة والثلاثين .

أما شارل لبرون فقد تسلط على الفنون فى باريس وفرساى ، لأنه أوتى قدرة التنسيق والإدارة كما أوتى قدرة التصور والتنفيذ . وإذ كان ابن نحات له أصدقاء من المصورين ، فقد شب فى بيئة تعلم فيها الرسم كما يتعلم غيره من الأطفال الكتابة . ورسم فى الخامسة عشرة — وعينه لا تغفل عن ترقب فرصته الكبرى — صورة رمزية لحياة ريشليو ونجاحه ، والتقط الوزير الطعم ، فكلفه برسم موضوعات أسطورية لقصر الكردينال . وحين أخذه بوسان إلى روما أغرق نفسه فى أساطير وزخارف رفائيل ، وجوليو رومانو ، وبييترو دا كورتونا . فلما عاد إلى باريس كان أسلوب الزخرفة المترفة المنمقة الذى انتهجه قد اكتمل نضجه . وهنا أيضا كان فوكيه أسبق من لويس فى استخدامه لبرون ليصور فى قصره بفو . وقد استهوت مازاران وكولبير والملك براعة ما أنتج من صور جصية ، وذلك الجمال الشهوانى الذى اتسمت به أجساد النساء والتفاصيل الغنية من كرانيش ومصبوبات . ولم يأت عام ١٦٦٠ حتى كان لبرون يرسم صورا جصية من حياة الأسكندر للقصر الملكى بفونتنبلو . وقد أبهج لويس أن يتبين ملامحه تحت خوذة الأسكندر ، فكان يأتى كل يوم ليراقب الفنان وهو يرسم معركة أربل ، وأسرة دارا عند قدمى الأسكندر . وكلتا الصورتين فى اللوفر . وكافأه الملك بلوحة ملكية مرصعة بالماس ، وجعله مصوره الأول ، وأجرى عليه معاشا بلغ ١٢٫٠٠٠ جنيه فى العام .

ولم تفتر للبرون همة . ففى ١٦٦١ دمرت النيران قاعة اللوفر الوسطى ، فصمم ترميما لها ، وصور السقف والكرانيش بمناظر من أساطير أبوللو ،

ومن هنا الاسم الذى اطلق عليها « قاعة أبوللو ». وخلال ذلك درس الفنان الطموح العمارة والنحت وأشغال المعادن والخشب ورسم النسيج ومختلف الفنون التى جندت الآن لتزيين قصور العظماء . وانصهرت هذه الفنون جميعها فى مهاراته المنوعة حتى لقد بدا أن الحظ أعده ليجمع فنانى فرنسا فى جهد موحد لينتجوا طراز لويس الرابع عشر .

وقد أطلق لويس يده ومنحه ما شاء من مال لتزين فرساى ، حتى قبل أن يعينه مديراً لأكاديمية الفنون الجميلة . وهناك عمل بجد طوال سبعة عشر عاما (١٦٦٤ — ٨١) فنسق الأعمال الفنية ، وصمم « سلم السفير » ، ورسم بنفسه فى قاعات الحرب والسلام ، وفى القاعة الكبرى ، سبعاً وعشرين صورة جصية تصف أمجاد الملك منذ صلح البرانس (١٦٥٩) حتى معاهدة نيميجن (١٦٧٩) . وقد أظهر لويس فى الحرب والسلم وسط حشد من الأرباب والربات ، والسحب والأنهار ، والخيل والمركبات ، يقذف الصواعق ، ويعبر الرين ، ويحاصر غنت ، ولكنه إلى ذلك يجرى العدالة ويصرف شئون المال ، يطعم الفقراء فى المجاعة ، وينشئ المستشفيات ، ويشجع الفن . ولو أننا أخذنا هذه الصور فرادى لما عددناها من الروائع ، فأساسها الكلاسيكى طغى عليه سيل من الزخارف الباروكية ، ولكننا إذا أخذناها فى جملتها وجدناها تؤلف أروع عمل قام به الرسامون الفرنسيون فى هذا العصر . ويغيظنا تمجيده للملك لأنه يكشف فيه عن داء الغرور ، ولكن تملق الأمراء والملوك على هذا النحو كان سنة العصر . لا عجب إذن أن يقول لويس لمصوره وهو يرى بعض صوره بجوار أخرى رسمها فيرونيزى وبوسان « ان أعمالك تثبت للمقارنة بأعمال كبار الفنانين ، ولا ينقصها إلا موت صاحبها لكى يقدرها الناس أكثر مما يقدرونها الآن ، ولكنا نرجو ألا تتاح لها هذه الميزة سريعاً(١٤) » وقد سانده الملك خلال جميع المكائد التى أحدقت به من حساده بعد قليل ، كما ساند موليير الذى ضايقه خصومه . ولم يكن غريباً

على طبع لويس — إذ نمى إليه أثناء حضوره إجتماعا أداريا أن لبرون جاء ليريه آخر صوره « رفع الصليب »(١٥) — أن يستأذن الحاضرين ليذهب ويرى الصورة ويعرب عن سروره، ثم يدعو كل المجتمعين ليأتوا ويشاركوه فى مشاهدتها(١٦) . وهكذا سارت الحكومة والفن فى هذا العهد جنبا إلى جنب ، وشارك الفنانون القواد العسكريين مكافآتهم ومدائحهم .

كانت صنعة لبرون شيئا جديدا وان انبثقت من الزخرفة الإيطالية . لقد كانت مزيجا زخرفيا جمع فنونا عديدة ليؤلف منها كلا جماليا واحدا . فلما حاول أن يجرب تصوير لوحات فردية انزلق إلى مرتبة وسط . وإذ استحالت انتصارات الملك إلى هزائم ، وأخلت محظياته مكانهن للكهان ، تغير مزاج العهد ولم يعد لزخارف لبرون البهيجة محل . ولما خلف لوفوا كولبير مشرفا على العمائر فقد لبرون دوره زعيما للفنون ، وإن ظل رئيساً للاكاديمية . ومات فى ١٦٩٠ رمزاً لمجد ولى .

واغتبط فنانون كثيرون بتحررهم من سيطرته ، ومن هؤلاء على الأخص بيير منيار الذى ساءته هذه السيطرة . وإذ كان يكبر لبرون بتسع سنوات فقد سبقه فى الحج إلى روما بلوحة الوانه، وتعلق قلبه بالمدينة الخالدة كما تعلق بها بوسان ، حتى لقد استقر رأيه على العيش فيها طوال حياته . وقد عاش فيها فعلا إثنتين وعشرين سنة (١٦٣٥ — ٥٧) واغتبط زبائنه باللوحات التى رسمها لهم اغتباطا حمل فى النهاية البابا أنوسنت العاشر ، الذى ربما ساءه الوجه الذى خلعه عليه فيلاسكويز من قبل ، على أن يجلس إلى منيار الذى أضفى عليه طلعة ألطف . وفى ١٦٤٦ ، حين بلغ منيار الرابعة والثلاثين ، تزوج حسناء إيطالية ، ولكنه ما إن سكن إلى الأبوة الشرعية حتى تلقى دعوة من فرنسا ليذهب ويخدم الملك ، فذهب على مضض . وفى باريس تمرد على قبول التوجيهات من لبرون ، ورفض الانضمام إلى الأكاديمية ، وحز فى نفسه أن يرى زميله الأصغر يحصد الأنواط والأموال . وأوصى

موليير كولبير به ، ولكن لعل الوزير أنصف فى إيثاره لبرون ، فما كان منيار ليرضى أن يرتفع إلى مستوى الفخامة المتكلفة التى تطلبها القرن العظيم. على أية حال ، كان لويس الذى بلغ العشرين آنئذ فى حاجة إلى صورة فاتنة له يغوى بها عروسا من أسبانيا. وارتضى منيار أن يرسمها ، وافتتن لويس وماريا تريزا بها ، وغدا منيار أنجح رسام الأشخاص فى هذا العهد. فرسم لوحات لمعاصريه الواحد تلو الآخر : مازاران ، وكولبير ، ورتز ، وديكارت ، ولافونتين ، وموليير ، وراسين ، وبوسويه ، وتورين ، ونينون دلانكلو ، ولويز دلافاليير ، والسيدات مونتسبان ، ومانتنون ، ولافاييت ، وسفينييه ، وقد أنصف يدى آن النمساوية اللتين عدهما الناس أجمل الأيدى فى العالم ، فكافأته بمهمة تزيين قبو القبة فى كنيسة فال — دجراس ، وكان هذا الرسم الجصى رائعته الكبرى التى أشاد بها موليير فى إحدى قصائده. وقد صور الملك غير مرة ، وأشهر صوره لوحته المعروضة فى فرساى والتى يرى فيها راكبا جواده ، ولكننا نجده هناك على أروعه فى اللوحة البديعة المسماة « دوقة مين فى طفولتها ». وبعد موت كولبير انتصر منيار فى النهاية على لبرون ، فخلف غريمه مصورا للقصر فى ١٦٩٠ ، وعين عضوا فى الأكاديمية بمرسوم ملكى ، وبعد خمس سنوات مات فى الخامسة والثمانين وهو لا يفتأ يرسم ويناضل.

وجاهد رهط من المصورين غير من ذكرنا فى خدمة الملك الذى استوعب الفنانين جميعا. فشارل دوفرينوا ، وسبستيان بوردون ، ونويل كوابيل وابنه أنطوان ، وجان فرانسوا دتروا ، وجان جوفنيه ، وجان باتيست سانتير ، والكساندر فرنسوا ديبورت — هؤلاء كلهم يلتمسون أن يسلكوا فى زمرة الحاضرين هذه الوليمة الملكية وهناك فنانان آخران يبرزان بقوة فى نهاية العهد — وأولهما نيكولا دلارجليير الذى خلف منيار مصورا أثيرا للأرستقراطية لا فى فرنسا وحدها بل فى انجلترا أيضا بعض الوقت

(١٧٧٤ — ٧٨) . وقد اكتسب حب لبرون باللوحة الرائعة التى رسمها له والمعروضة الآن فى اللوفر . وألوانه الرمزية ولمسته الخفيفة تبين الانتقال من اضمحلال لويس الرابع عشر المعتم إلى عصر آخر مرح ، هو عصر الوصاية والفنان فاتو .

أما الثانى وهو ياسينت ريجو ، فكان أصلب عودا . وقد كسب هو أيضا قوته برسم الأشخاص (أنظر صورته البديعة لبوسويه فى اللوفر) ، ولكنه لم يكسبه بالتملق . ومع أن صورته التى اظهر فيها لويس الرابع شامخا مسيطرا ، والتى ترتفع فى مؤخرة قاعة اللوفر الكبرى ، تبدو من بعيد وكأنها إشادة بالملك ، فإننا نلاحظ إذا تأملناها عن كثب ملامح الملك جامدة منتفخة ، وهو واقف على قمة سلطته وعلى حافة قدره (١٧٠١) . وكانت أغلى صور العصر ثمنا كما أنها أفضلها عرضا ، فقد نقد لويس ريجو فيها ٤٠٫٠٠٠ فرنك (١٠٠٫٠٠٠ دولار ؟) — وربما كان هذا الأجر معادلا لما دفعه لويس ثمنا للثياب الرائعة التى زينت هنا الحلاله .

٥ - النحت

كان المثالون أقل حظوة وثوابا فى هذا العهد من المصورين . ومع ذلك فالمنحوتات المرمرية القديمة هى التى اشتهى لبرون أن تصاغ على غرارها جميع الفنون . وقد أنفقت الأموال الطائلة وسخرت المواهب الكثيرة فى شراء أو نسخ التماثيل التى بقيت على قيد الحياة بعد انهيار العالم القديم . ولم يقنع لويس بالنسخ طبعا . وإذ كان يذكر حدائق سالوست وهادريان الرومانية ، فقد استخدم لفيفا من المثالين الأكفاء لينفخوا بتماثيلهم الحياة فى بستان فرساى . وأقيمت الزهريات الضخمة كزهرية الحرب التى صنعها كوازيفوكس فى حوض ببتيون ، وعلى شرفة القصر ؛ ونحت الشقيقان جاسبار وبلتازار دمارسى « حوض باخوس » العظيم ، وأبرز جان باتست

من البحيرة تمثاله الرائع « مركبة أبوللو » والإله الشمس فيه يرمز للملك ، ونحت فرنسوا جيراردون فى الحجر من « الحوريات المستحمات » مالم يكن يرا كستليس ذاته ليأنف من نسبته إليه .

وتطلع جيراردون قرناإلى الخلف ليرى كيف صور بريماتتشو وجوجون جسد الأنثى فى صورة كاملة . وعاد إليه ذلك الحسن الانسيابى الذى اتسم به الفن الهيلينى ، ربما فى إسراف ، ومهما بحثنا وفتشنا فإننا لم نجد إلى الآن إناثا كاملات الأجساد كأولئك اللاتى نجـــدهن فى تمثالى « اغتصاب بروزيربين[١٧] » . ولـكنه كان قادراً على التعبير عن حالات نفسية أقوى من هذه . وقد صنع لميدان فاندوم تمثالا للويس الرابع عشر محفوظا الآن فى اللوفر ، ونحت لـكنيسة السوربون مقبرة فخمة لريشليو . وقد أحبه لبرون لأنه تجاوب فى لطف مع ذوق الأكاديمية وأهدافها . وخلف لبرون كبيراً لمثالى الملك ، ورأس الأكاديمية بعد وفاة منيار . ومع أنه ولد قبل لويس بعشرة أعوام إلا أنه عمر بعده شهورا ، ومات فى ١٧١٥ وهو فى السابعة والثمانين .

أما أنطوان كوازيفوكس فكان إنساناً أرق من اسمه ، محببا إلى الناس كتمثاله «دوقة برجندية» . ولد بليون ، وكان ينحت لنفسه مكاناً بين المثالين حين دعاه لبرون ليساعد فى زخرفة فرساى . وقد بدأ بصنع نسخ أو مقتبسات رائعة من التماثيل القديمة . فنحت عن تمثال رخامى قديم فى فيللا بورجيزى « حورية المحارة » ، وعن تمثال فى قصر مديتشى بفلورنسة نقل « فينوس الجاثمة » وكلا التمثالين محفوظ فى مستودع الفن المحفوظ الذى نسميه اللوفر . وما زال فى مكانه بفرساى تمثاله « كاستور وبولكس» الذى نقله عن مجموعة بحدائق لودوفيزى بروما . وما لبث أن أنتج أعمالا أصيلة فيها قوة لايستهان بها . فنحت لبستان فرساى تماثيل كبيرة تمثل نهرى الجارون والدوردون ، ولساحة قصر مارلى رمزين شبيهين بهذين لنهرى السين والمارن .

وفى حدائق التويلرى اليوم أربعة تماثيل رخامية نحتها لمارلى ، وهى فلورا (ربة الزهر) — والشهرة ، وحورية الغابات ، وعطارد راكبا بيجاسوس . وقد خرج من تحت إزميله الكثير من الزخارف المنحوتة فى حجرات فرساى الكبرى .

وظل يكدح فى فرساى ثمانية أعوام ، وقضى خمسة وخمسين عاما فى خدمة الملك . فنحت له اثنى عشر تمثالا ، أشهرها تمثاله النصفى فى فرساى ، وأصبح فى النحت ماكان منيار فى التصوير — أحب محاكى الوجوه إلى الناس فى فرنسا . وبدلا من أن يتشاجر مع منافسيه نحتهم فى الرخام أوصبهم فى البرونز ، فوفر عليهم غرورهم ونقودهم . وحين تلقى ١٥٠٠ جنيه أجراً للتمثال النصفى الذى صنعه لكولبير ، رأى الأجر مغالى فيه فرد منه سبعمائة جنيه(١٨) . وقد ترك لنا تماثيل كاملة الشبه بلبرون ، ولنوتر ، وآرنو ، وفوبان ، ومازارن ، وبوسويه ، وترك لنفسه ترجمة بسيطة لوجه أمين أشعث مضطرب(١٩) ، ولكونديه العظيم تمثالين نصفيين أحدهما فى اللوفر ، والآخر فى شانتيى ، يتميزان بصدق وفحولة لامراء فيهما . ثم نحت بأسلوب مختلف تماما تمثالا رشيقا لدوقة برجندية فى صورة ديانا(٢٠) ، والتمثال النصفى الجميل لنفس الأميرة فى فرساى . وصمم مقابر رائعة لمازاران(٢١) وكولبير ، وفوبان ، ولبرون . ولأعماله ملمس الروح الباروكية فى عاطفيتها المسرحية ومبالغتها العارضة ، ولكنها فى أحسن صورها تعبر تعبيرا حسنا عن المثل الكلاسيكى الذى استهدفه الملك والبلاط ، فهى راسين متمثلا فى الرخام والبرونز .

وحوله وحول جيراردون تجمع سباعى من المثالين ، فرنسوا انجييه وأخوه ميشيل ، وفليب كوفييه وابنه فرانسوا ، ومارتان ديجاردان ، وبيير لجرو ، وجيوم كوستو ، الذى مازالت « خيل مارلى » التى نحتها تثب فى الهواء بميدان الكونكورد .

وفضلا عن هؤلاء المثالين جميعا ، وعلى مبعدة منهم ، وفى تحد لمثالية النحت الرسمى الناعمة ، أنطلق بيير بوجيه إزميله بغضب فرنسا وبؤسها . وقد ولد فى مارسيليا (١٦٢٢) وبدأ حياته الفنية حفارا فى الخشب ، ولكن نفسه تاقت كما تاقت نفس معبوده ميكلانجلو من قبل لأن يصبح فى وقت واحد مصورا ومثالا ومعماريا وقد أحس أن الفنان العظيم ينبغى أن يسيطر على هذه الفنون جميعا . وإذ كان يحلم بأفذاذ الفنانين الإيطاليين فقد سار من مرسيليا إلى جنوة إلى فلورنسة إلى روما . وتتلمذ فى حماسة لبييترو دا كورتونا فى زخرفة قصر باربارينى ، وتشرب كل صدى وأثر لبوناروتى ، وحسد برنينى على شهرته المتعددة الجوانب . فلما عاد إلى جنوة نحت تمثال القديس سبستيان الذى أذاع اسمه لأول مرة ، فكلفه فوكيه ، الذى سبق لويس الرابع عشر فى تبين مواهب هذا الفنان أيضا ، بأن ينحت تمثال « هرقول[٢٢] » لقصر فو ، ولكن فوكيه سقط ، فهرع بيير إلى الجنوب ليمتسكف فى فقره ويجتر همومه . ولما كلف بنحت مجموعة « أطلانطيس » — وهى تماثيل رخامية لأطلس ، ليجمل بها شرفة « الأوتيل دفيل » ، صاغ التماثيل على غرار الحمالين الكادحين فى أرصفة الشحن ، وكان ينطق عضلاتهم المكدودة ووجوههم التى شوهها الألم بصرخة الثورة — ثورة المطحونين الذين يحملون العالم على أكتافهم . ولكن فنا كهذا ما كان ليعجب فرساى .

ومع ذلك فان كولبير الذى فتح ذراعيه للمواهب طلب إليه أن ينحت تماثيل يؤثر أن تكون ذات مسحة أسطورية بريئة . فأرسل إليه بوجيه ثلاث قطع محفوظه الآن بالوفر : نحتا قليل الغور لطيفا يمثل الإسكندر وديوجين ، وتمثالا فيه جهد وإسراف لبيرسيوس وأندروميدا ، وتمثالا عنيفا لميلو كورتونا — ذلك النباتى الجبار يحاول الخلاص من فكى أسد عنيد ومخالبه .

وفى ١٦٨٨ زار بوجيه باريس ، ولكنه وجد طبعه المتكبر وإزميله الغضوب يتنافران مع ظرف البلاط وفنه ، فقفل راجعا إلى مرسيليا ، وهناك صمم تمثالى « المبرة » و « سوق السمك » — ولا عجب ففى فرنسا حتى سوق السمك يمكن أن يكون عملا فنيا . ولعل أعظم تماثيله قصد به أن يكون تعليقا على مغامرات الملك الحربية ، وهو تمثال للإسكندر راكبا يبدو فيه وسيما مشرقا ، يحمل خنجره فى يده ، ويدوس ضحايا الحرب(٢٣) فى غير اكتراث تحت سنابك جواده . وقد أفلت بوجيه من رسمية لبرون وفرساى ، ولكنه أفلت أيضا من انضباطهما . وافضى به طموحه لمنافسة برنيني ، وحتى ميكلانجلو ، إلى مبالغات فى تصوير عضلات الجسد وتعبيرات الوجه ، ومن ذلك « رأس ميدوزا » الرهيب المحفوظ باللوفر . ولكنه كان على الجملة أقوى نحات فى وطنه وفى جيله .

وإذ قارب العهد العظيم نهايته ، وجرت الهزائم فرنسا إلى حال من اليأس الشديد ، انصرفت كبرياء الملك إلى التقوى ، وانتقل الفن من غرور فرساى إلى التواضع الذى يطالعنا فى تمثال كوازفوكس لويس الرابع عشر راكعا فى النوتردام — هنا نرى الملك وقد بلغ السابعة والسبعين ، مزهوا إلى الآن بأثوابه الملكية ، ولكنه يضع تاجه فى تواضع عند قدمى العذراء . فى هذه السنوات الأخيرة تقلص الإنفاق على فرساى ومارلى ، ولكن خورس النوتردام رمم وجمل . أما عبادة الفن القديم فقد فترت نتيجة لشططها ، وبدأ الطبيعى يجور على الكلاسيكى ، وقضى على دفعة الفن الوثنية إلغاء مرسوم نانت . وتسلط مدام دمانتنون وتابيه على الملك . وشددت للموضوعات الزخرفية الجديدة على الدين لا على المجد ، فلقد عرف لويس ربه أخيرا .

إن تاريخ الفن ابان حكم الملك العظيم يعذبنا بأسئلة عويصة . فهل كان تأميم الفنون نعمة أو نقمة ؟ وهل حول تأثير كولبير ولبرون والملك تطور

فرنسا من الاتجاه الأصيل والطبيعى ، إلى محاكاة موهنة لفن هلنستى حل به الضعف ، محاكاة شوشها إسراف باروكى فى الزخرفة ؟ وهل تثبت هذه السنوات الأربعون من « طراز لويس الرابع عشر » أن الفن يزداد ازدهارا فى ظل ملكية ترعاه بالثروة المركزة ، وتوجه المواهب فى وحدة متسقة ؟ — أم فى ظل ارستقراطية تصون ، وتوصل ، وتعدل فى حذر ، معايير الجودة والذوق ، وأصول النظام والانضباط ؟ — أم فى ظل ديمقراطية تفتح الطريق أمام كل موهبة وتطلق الكفايات من ربقة التقاليد ، وتلزم الفن بأن يعرض إنتاجه على الشعب ويكيفه وفق رأيه ؟ وهل كان ممكنا أن تغدو إيطاليا وفرنسا الوطنين المحظوظين للفن والجمال اليوم لولا أنهما جلتا بأموال وأذواق الكنيسة والنبلاء والملوك ؟ وهل كان ممكنا أن يوجد فن عظيم دون تركيز الثروة ؟

إن الجواب المتواضع المفيد عن هذه الأسئلة يقتضى حكمة عالمية ، وأى جواب من هذا القبيل لابد أن تجعله التفريقات والشكوك جوابا غامضا غير حاسم . ولعل الفن فقد شيئا فى طبيعيته ومبادرته ونشاطه نتيجة لما بسطته عليه القوة المركزية من حماية وتوجيه وهيمنة . صحيح أن فن لويس الرابع عشر كان فنا منظما ، أكاديميا ، جليلا ببهائه المنسق ، لايفوقه فن فى صقله الفني ، ولكن السلطة عطلت قدرته على الابتكار ، وقد قصر دون ذلك الالتحام بالشعب الذى أضفى الدفء والعمق على الفن القوطى . لقد كان اتساق الفنون فى عهد لويس رائعا ، ولكنه كثيرا ما كان يعزف على نفس الوتر ، حتى لقد أصبح فى النهاية تعبيرا لا عن جيل وأمة ، بل عن ذات وبلاط . صحيح أن الثروة لاغنى عنها للفن العظيم ، ولكن الثروة تكون عارا ، والفن يكون بغيضا ، إذا ازدهرا على حساب فقر شامل واعتقاد بالخرافات مذل ، فالجميل لايمكن فصله طويلا عن الخير . وقد تكون الارستقراطية حارسا وناقلا مفيدا للعادات والمعايير والأذواق

إذا تيسرت الأسباب نفتحها أمام المواهب الجديدة، ولمنعها من أن تكون أداة للامتياز الطبقى وللترف الكاذب . كذلك تستطيع الديمقراطيات أن تجمع الثروة وتضفى عليها الكرامة بتغذيتها للمعرفة والأدب والبر والفن ، ومشكلات الديمقراطيات فى معاداة الحرية غير الناضجة للنظام والانضباط ، وفى نمو الذوق نموا بطيئاً فى المجتمعات الناشئة ، وفى ميل الكفايات غير المحكومة لأن تبدد نفسها فى تجارب شاذة تخطىء الابتكار فتحسبه عبقرية ، والطرافة فتحسبها جمالا .

على أية حال كان رأى استقراطيات أوربا فى صف الفن الفرنسى دون ما تردد . فانتشر معمار القصور والنحت الكلاسيكى والأسلوب الأدبى والزخرفة الباروكية للأثاث والثياب — انتشر هذا كله من فرنسا إلى كل طبقة حاكمة تقريباً فى غرب أوربا حتى إلى إيطاليا وأسبانيا . وتطلعت قصور لندن وبروكسل وكولون وميونخ ودرسدن وبرلين وكاسل وهيدلبرج وتورين ومدريد إلى فرساى مثلا تحتذيه فى السلوك والفن . وكلف المعماريون الفرنسيون بتصميم القصور حتى مورافيا شرقا ، وصمم لنوتر الحدائق فى وندزور وكاسل ، ووفد رن وغيره من المعماريين الأجانب على باريس ليتلقوا عنها الأفكار ، وانبث النحاتون الفرنسيون فى جميع أرجاء أوربا ، حتى أصبح لكل أمير تقريباً تمثال راكب كتمثال ملك فرنسا . وظهرت قصص لبرون الرمزية الأسطورية فى السويد ، والدنمرك، وأسبانيا، وهامتن كورت . والتمس الملوك الأجانب أن يجلسوا إلى ريجو ليصورهم فإن لم يتيسر فإلى أحد تلاميذه . وأوصى حاكم سويدى بقطع من نسيج بوفيه المرسوم تخليداً لانتصاراته . إن التاريخ لم يشهد منذ انتشار الثقافة اللاتينية القديمة فى غرب أوربا غزواً ثقافياً أنجز بمثل هذه السرعة وهذا الكمال .

الفصل الرابع

موليير

١٦٢٢ — ٧٣

١ - المسرح الفرنسى

بقى الآن أن تخضع المسرحية والشعر الفرنسيان أوربا لسلطانهما .

ولقد شاء هوى التاريخ أن ينصرف الأدب الفرنسى فى هذا العصر إلى المسرح ، وأن يشجع الكردينال ريشليو المسرحية التى ظلت الكنيسة تحرمها طويلا ، وأن يستورد الكردينال مازارن الملهاة الإيطالية إلى فرنسا ، وأن يرث لويس الرابع عشر حب المسرح من هذين الكاهنين اللذين مهدا لسلطته أو حفظاها .

كانت المسرحية الحديثة قد بلغت الشكل الأدبى فى إيطاليا برعاية بابوات النهضة الرفيعى الثقافة ، وكان ليو العاشر يحضر التمثيليات دون أن يطالب بأن تكون صالحة للعذارى . ولكن الاصلاح البروتستنتى ومجمع ترنت المترتب عليه وضعا حداً لهذا التساهل الكنسى . وقال بنديكت الرابع عشر إن المسرحية لم يستمر السماح بها فى إيطاليا إلا درءا لشرور أفدح ، وفى أسبانيا إلا لأنها تخدم الكنيسة . وأما فى فرنسا فإن رجال الأكليروس ، الذين صدمتهم الحرية الجنسية التى تمتع بها المسرح الهزلى ، نددوا بالمسرح عدواً للآداب العامة . وقضت سلسلة طويلة من الأساقفة واللاهوتيين بأن الممثلين محرومون بحكم طبيعة الحالة ، أى بحكم مهنتهم ذاتها ، وأنكر عليهم قساوسة باريس ، الذين عبر عنهم صوت بوسويه الأمر ، حق تناول الأسرار أو الدفن فى أرض مكرسة إلا إذا تابوا وأقلعوا عن مهنتهم . وإذ حرموا من مراسم

سر الزواج يقوم بها كاهن ، فقد كان عليهم أن يقنعوا بزيجات عرفية بالغة القلق وعدم الاستقرار ، كذلك وسم القانون الفرنسى الممثلين وأقصاهم عن كل وظيفة شريفة ، وحظر على القضاة حضور الحفلات التمثيلية .

ومن ملامح التاريخ الحديث البارزة أن المسرح استطاع التغلب على هذه المقاومة . ذلك أن المطلب الشعبي للتظاهر والادعاء تخففا وثأراً من الواقع أنجب العدد العديد من الهزليات والملاهى ، وكان للآلام التى فرضها على الرجال الاقتصار على زوجة واحدة الفضل فى إقبال جمهور سخى العطاء على مسرحيات الحب الحلال أو الحرام . ويلوح أن ريشليو وافق ليو العاشر على أن أيسر سبيل للهيمنة على المسرح هو رعاية أفضل المسرحيات لا رفضها كلها ، وبهذه الطريقة قد يتيح القدوة للذوق العام ، والعيش للفرق المسرحية المهذبة . وليلاحظ القارئ تقرير فولتير الآتى : « منذ أدخل الكردينال ريشليو الأداء المنتظم للتمثيليات فى البلاط ، الأمر الذى جعل باريس الآن منافسة لأثينا ، لم يقتصر الأمر على تخصيص مقعد يجلس عليه رجال الأكاديمية التى تضم نفراً من القساوسة ، بل خصص مقعد آخر للأساقفة(١) » . وفى ١٦٤١ ، ربما بناء على طلب الكردينال ، بسط لويس الثالث عشر رعايته على فريق من الممثلين عرفوا بعدها بالفرقة الملكية أو الكوميديين الملكيين ، وأجرى عليهم معاشا قدره ألف ومائتا جنيه فى العام ، وأصدر مرسوما يعترف بالمسرح لونا مباحاً من ألوان الترفيه ، وأعرب عن رغبة الملك فى ألا تعتبر مهنة الممثل بعدها ضارة بمركزه فى المجتمع(٢) . وأقامت الفرقة مسرحها فى « الأوتيل دبورجون » ، وحظيت برعاية لويس الرابع عشر الرسمية ، واحتفظت طوال حكمه بتفوقها فى أخراج المآسى .

ورغبة فى رفع مستوى الملهاة الفرنسية ، دعا مازاران نفرا من الممثلين الإيطاليين إلى باريس ، ومنهم تيبيريو فيوريللى ، الذى أصبح أثيراً لدى باريس والبلاط بأدائه دور المهرج الفشار « سكاراموتشا » . ولعله هو

وزملاؤه شاركوا فى بعث حمى المسرح فى أوصال جان بوكلان الرابع ، وفى تعليمه فنون المسرح الهزلى(٣) . فلما عاد « سكاراموش » إلى إيطاليـــا (١٦٥٩) أصبح جان بوكلان ، الذى عرفه المسرح والعالم باسم موليير ، الممثل الهزلى الأول للملك ، وبعدها بقليل — فى رأى بوالو المولع به — أكبر كتاب العصر .

٢ ـ تلمــذته

على المبنى رقم ٩٦ بشارع سانت — أونوريه كتابة بحروف من ذهب، هذا نصها : —

شيد هذا البيت فوق موضع البيت الذى ولد فيه موليير

فى ١٥ يناير ، ١٦٢٢

وكان البيت بيت جان باتست بوكلان الثالث ـ منجد الأثاث والمزخرف. وكانت زوجته مارى كريسيه قد أتته بمهر قدره ٢٠٠ر٢ جنيه ، وأنجبت له ستة أطفال ، ثم ماتت بعد زواجهم بعشر سنوات ، ولم يكن طفلها الأول ـ جان باتست بوكلان الرابع — يتذكرها فى وضوح ، ولم يذكرها قط فى تمثيلياته وتزوج الأب ثانية (١٦٣٣) ولـكن زوجة الأب ماتت فى ١٦٣٧، فـكان على الأب أن يحمل عبء عبقرية ولده ، ويوجه تعليمه ، ويفكر فى تشكيل مجرى حياته . وفى ١٦٣١ أصبح جان بوكلان الثالث « المشرف على تنجيد أثاث حجرة الملك » ومنح امتياز إعداد السرير الملـكى والسكنى فى البيت الملـكى ، لقاء راتب سنوى قدره ثلثمائة جنيه، وهو مبلغ متواضع، ولـكنه لم يلزم الحضور فى أى عام أكثر من ثلاثة أشهر . وكان الأب قد اشترى الوظيفة من أخيه ، وأراد أن يورثها ابنه . وفى ١٦٣٧ أقر لويس

الرابع عشر حق جان بوكلان الرابع فى وراثة الوظيفة ؛ ولو أن تطلعات الأدب تحققت لعرف التاريخ موليير — إن عرفه إطلاقاً — بأنه الرجل الذى كان يعد سرير الملك . على أن جداً للصبى أولع بالمسرح ، فكان يصطحبه إلى حفلات التمثيل بين الحين والحين .

وأعداداً لجان الرابع لتهيئة سرير الملك ، أرسل إلى كلية لليسوعيين فى كليرمون ، وكانت الأم الحانية على المهرطقين . وهناك تعلم الكثير من اللاتينية ، وقرأ تيرنس وأفاد منه ، ولا شك أنه اهتم ، وربما شارك ، فى المسرحيات التى عرضها اليسوعيون أداة لتعليم تلاميذهم اللاتينية والأدب والكلام ويقول فولتير إن جان تلقى كذلك تعليما عن الفليسوف جاسندى الذى كان قد عين معلما خاصا لزميل فى فصل جان . على أية حال تعلم جان الكثير عن أبيقور ، وترجم شطرا كبيراً من ملحمة لوكريتيوس الأبيقورية De rerum natura(وبعض سطور مسرحيته « مبغض البشر(٤) » . تكاد تكون ترجمة لفقرة فى لوكريتيوس (٥)) . والراجح أن جان فقد إيمانه قبل أن يختتم صباه(٦) .

وبعد أن قضى خمس سنين فى الكلية درس القانون ، ويبدو أنه مارسه حقبة قصيرة فى المحاكم . ثم اتخذ مهنة أبيه بضعة أشهر (١٦٤٢) . وفى ذلك العام التقى بمادلين بيجار ، وكانت وقتها سيدة مرحة فى الرابعة والعشرين . وقبل ذلك بخمس سنين كانت خليلة للكونت دمودين ، الذى اعترف فى سماحة بالطفل الذى ولدته له ، وأذن لابنه فى أن يقف عرابا له عند عماده . وفتنت مادلين جان — وكان قد بلغ العشرين — وسحرته بجمالها وطبعها البشوش اللطيف . وأغلب الظن أنها قبلته عشيقاً . وقد حمله عشقها للمسرح ، مع عوامل أخرى ، على اتخاذ قرار بأن يولى لتنجيد الأثاث ظهره ، وأن ينزل عن حقه فى أن يخلف أباه مشرفا على تنجيد حجرة الملك لقاء ٦٣٠ جنيها ، وأن يلقى بنفسه فى خضم التمثيل (١٦٤٣) . وذهب ليقيم فى بيت مادلين

بيجار[٧]. ثم دخل معها ومع أخويها وآخرين فى تعاقد رسمى أنشأوا بمقتضاه « المسرح الشهير » (٣٠ يونية ١٦٤٣). ويعتبر الكوميدى فرانسيز ذلك العقد بداية لتاريخه الطويل الممتاز . واتخذ جان الآن اسماً مسرحياً جريا على عادة الممثلين ، فأصبح يسمى موليير .

واستأجرت الفرقة الجديدة ملعباً للتنس مسرحاً لها ، وقدمت مختلف التمثيليات ، ثم أفلست ؛ وفى ١٦٤٥ قبض على موليير ثلاث مرات بسبب الدين ودفع أبوه عنه ديونه وحصل على أمر بالإفراج عنه معللا نفسه بأن الفتى قد برئ من حمى المسرح . ولكن موليير أعاد تأليف « المسرح الشهير » وانطلق فى جولة بالأقاليم . ومنح الدوق ديبيرنون حاكم جيين الفرقة تأييده . وتنقلت الفرقة فى سلسلة مضنيه من النجاح والفشل بين ناربون ، وتولوز ، وألبى ، وكاركاسون ، ونانت ، وآجن ، وجرينوبل ، وليون ، ومونبلييه ، وبوردو ، وبيزييه ، وديجون ، وأفنيون ، وروان . وارتقى موليير حتى أصبح مديراً لها (١٦٥٠) ، ووفق بعشرات الحيل فى أن يحفظ للفرقة قدرتها على إيفاء ديونها ويكفل لها طعامها . وفى ١٦٥٣ أعار الأمير ديكونتى ، زميله المدرسى القديم ، اسمه للفرقة وقدم لهـا المعونة ، ربما لإعجاب سكرتيره بالممثلة الآنسة دوبارك . ولكن الأمير أصابته نوبة شلل دينى فى ١٦٥٥ ، فأخبر الفرقة بأن ضميره يمنعه من الاتصال بالمسرح ، ومالبث بعد ذلك أن ندد علانية بالمسرح ، وبموليير بصفة خاصة ، مفسداً للشباب وعدوا للفضيلة والمسيحية .

ووسط هذه التقلبات نهضت الفرقة شيئاً فشيئاً بكفايتها ودخلها وذخيرتها من المسرحيات . وتعلم موليير فن المسرح وحيله . فما وافى عام ١٦٥٥ حتى كان يكتب التمثيليات كما يمثلها . وفى ١٦٥٨ آنس فى نفسه من القوة ما يكفى لتحـــدى فرقتين احتلتا المسرح الباريسى ، فرقة ممثلى الملك فى الأوتيل دبورجون ، وفرقة خاصة تمثل فى مسرح ماريه . وحضر هو ومادلين بيجار

من روان إلى باريس ليمهدا الطريق لفرقتها . وزار أباه ، وظفر بعفو عن ذنوبه ومهنته . ثم أقنع فيليب الأول دوق أورليان بأن يبسط حمايته على الفرقة وأن يحصل لها على إذن بإقامة حفلة تمثيلية بالبلاط .

وفى أكتوبر ١٦٥٨ مثلت « فرقة المسيو » هذه أمام الملك فى قاعة الحرس باللوفر مأساة كورنى « نيكوميد » ، ومثل موليير الدور الرئيسى دون توفيق كبير ، لأنه كما يقول فولتير كان يعانى « من ضرب من الفواق لايلائم البتة الأدوار الجادة ، ولكنه يعين على جعل تمثيله فى الملهاة أكثر إمتاعا »(٨) . وقد أنقذ الحفلة بأن أتبع المأساة بملهاة فقدت الآن معالمها ، ومثل بحيوية ومرح ، وحاجب مرفوع وفم مثرثر جعل الجمهور يتساءل لم يمثل المأساة إطلاقا . وكان فى الملك من الصبى ماجعله يستمتع بهذا الهزل ، ومن الرجولة ماجعله يقدر شجاعة موليير . فأصدر تعليماته بأن تشارك فرقة المسيو فرقة سكاراموش الإيطالية فى قاعة البتى بوربون ، وهناك أيضاً أخفق الممثلون الوافدون حين حاولوا تمثيل المآسى التى قصروا فى أدائها دون ممثلى الملك فى الأوتيل دبورجون ، ووفقوا فى التمثيليات الهزلية ، لاسيما التى ألفها موليير . ومع ذلك واصلوا إخراج المآسى . ذلك ان كبار الممثلات كن يشعرن بأنهن يتألقن أكثر فى الدراما الجادة ، ولم يكن موليير نفسه راضياً قط بأن يكون كوميديا ، لأن صراعات الحياة وسخافاتها أورثته مسحة من الحزن ، وقد وجده أمرا فاجعا له أن يكون على الدوام مضحكا . يضاف إلى هذا أنه سئم هزليات المكائد الغرامية والشخصيات المبتذلة وكباش الفداء المألوفة ، وأكثرها أصداء لإيطاليا . وتلفت حوله فى باريس فرأى فيها أشياء لاتقل إضحاكا عن بوليشينيل وسكاراموش . وروى عنه قوله « لم يعد بى حاجة إلى اتخاذ بلوتس وتيرنس أساتذة لفنى أو إلى السطو على ميناندر . فما على إلا أن أدرس هذه الدنيا »(٩) .

٣ - موليير ونساء المجتمع

مثال ذلك « الأوتيل د_امبوييه » حيث كان الرجال والنساء يمجدون الآداب الرقيقة والحديث المعطر . فكتب موليير تمثيلية « المتحذلقات المضحكات » . وكان إخراجها (١٨ نوفمبر ١٦٥٩) فاتحة ملهاة العادات الفرنسية وبداية لحظ موليير وشهرته . وكانت الملهاة من القصر بحيث لم يستغرق تمثيلها أكثر من ساعة، وفيها من الحدة ما خلف لذعة طويلة الأيلام . استمع إلى ابنتي العم، مادلون وكاتوس، اللتين تلفهما سبعة أقنعة من التظرف، تحتجان على تلهف الكبار، الواقعيين، المفلسين، على تزويجهما .

جرجيبوس : أي عيب تريان فيهما ؟

مادلون : يالها من كياسة رائعة منهما حقا! ماذا، أتبدأ فوراً بالزواج! .. لو كان الناس جميعاً مثلك لقضى للتو على الرومانس ... إن الزواج ينبغي ألا يتم أبداً إلا بعد مغامرات أخرى . فعلى العاشق إن أراد قبولا أن يفهم كيف يعبر عن العواطف المهذبة، وكيف يتأوه بالحديث الناعم، الرقيق، المشبوب، ويجب أن يكون حديثه مطابقا للقواعد . فعليه بادىء ذي بدء أن يرى في الكنيسة أو في الحديقة العامة أو في حفل عام تلك التي يشغف بها حبا، وإلا وجب تقديمه إليها التقديم المحتوم بواسطة قريب أو صديق، ثم عليه أن ينصرف عنها مكتئبا متأملا . ثم يخفي عاطفته حينا عن موضع حبه، ولكنه يزورها مرات، لا يعدم فيها طرح بعض الحديث عن مغازلة النساء على البساط تدريباً لعقول الجماعة كلها ... ثم يأتي اليوم الذي يبوح فيه بحبه، وينبغي أن يتم هذا عادة في ممشى حديقة بينما الجماعة على بعد منها . وهذا التصريح تقابله عادة بالاستياء، الذي يبدو في احمرار وجوهنا، والذي يقصي العاشق عنا زمنا، ثم يجد الوسيلة لمصالحتنا بعد حين، ولتعويدنا أن نسمع حديث غرامه دون أن نتألم، واستلال ذلك الاعتراف الذي يسبب لنا حرجا شديداً .

ثم تتلو ذلك المغامرات : المزاحمون الذين يحبطون ميلا رسخ ، واضطهادات الآباء ، والغيرة المنبعثة من المظاهر الكاذبة ، والشكاوى ، واليأس ، والهروب مع الحبيب ، وما يسفر عنه من عواقب . هكذا ينبغي أن تجرى الأمور بأسلوب جميل ، وتلك هي القواعد التي لاغنى عنها للتودد المهذب الأنيق . أما الاندفاع رأسا إلى الرباط الزوجي ، وأما عدم مطارحة الغرام إلا بعقد الزواج ، والإمساك بالمغامرة الرومانسية من ذيلها — فمرة أخرى أقول لك ياأبي العزيز إنه ما من شيء أكثر آلية من تصرف كهذا ، ومجرد التفكير فيه يشعرني بالغثيان .

كاتوس : أما أنا ياعماه فكل ما أستطيع أن أقوله هو إنني أرى الزواج شيئا مروعا جدا . فكيف أطيق فكرة الرقاد مع رجل عريان حقا(١٠) ؟

ويستعير خادما الخطيبين ملابس سيديهما ويتنكران كمركيز وجنرال ، ويتوددان إلى السيدتين بكل ما يصاحب التودد من تظرف ومزاح . ويفاجئهما السيدان ، ويجردانهما من ملابسهما المزيفة ، ويتركان الشابتين أمام الحقيقة العارية تقريبا . وفي هذه الملهاة ، كما في جميع ملاهي موليير الجنسية ، عبارات نابية وبعض المزاح الرخيص ، ولكن فيها هجوا لاذعا للحماقات الاجتماعية ، بلغ من حدته أن تأثيره أصبح حدثا في تاريخ عادات المجتمع . وقد نسبت رواية غير مؤكدة لامرأة من النظارة أنها وقفت وسط الجمهور وصاحت « تشجع ! تشجع ! هذه ملهاة حسنة ياموليير »(١١) وروى أن واحدا من رواد صالون مدام درامبوييه قال بعد خروجه من التمثيلية « بالأمس أعجبنا بكل السخافات التي نقدت نقدا رقيقا معقولا جداً ؛ ولكن علينا الآن — كما قال القديس ريمي لكلوفيس — إن نحرق ماعبدنا ، ونعبد ما أحرقنا(١٢) . » وقابلت المركيزة درامبوييه الهجوم بعبقرية ، إذ اتفقت مع موليير على إحياء حفلة يخصص ايرادها لصالونها ، وقد رد على مجاملتها بمقدمة زعم فيها أنه لم يهج صالونها بل مقلديه . على أية

حال انتهى ملك « المتحذلقات » . وقد أشار بوالو فى هجائيته العاشرة إلى تلك « العقول الجميلة التى كانت بالأمس ذائعة الصيت ، والتى فرغها موليير بضربة واحدة من فنه » .

وقد نجحت المسرحية نجاحا ضوعف معه أجر مشاهدتها عقب حفلة الافتتاح . وقد مثلت فى عامها الأول أربعا وأربعين مرة ، وأمر الملك بإحياء ثلاث حفلات للبلاط ، حضرها جميعا ، ونفح الفرقة بثلاثة آلاف جنيه . وما وافى فبراير ١٦٦٠ حتى كانت الفرقة الشاكرة قد دفعت ٩٩٩ جنيها جعالة للمؤلف . ولكنه كان قد ارتكب غلطة إذ ضمن المسرحية إشارة هجا بها ممثلى المسرح الملكى « فما من إنسان قادر على أن يشهر شيئا إلا هم ، أما غيرهم فقوم جهلاء يمثلون أدوارهم كأنهم يتحدثون . هؤلاء لا يفقهون كيف يجعلون أبيات الشعر تجلجل ، أو كيف يقفون عند فقرة جميلة . فكيف تعرف الأبيات الرائعة إذا لم يقف الممثل عندها ويخبرك بهذه الطريقة أن تصفق استحسانا(١٣) ؟ » .

وأعربت فرقة الأوتيل دبوربون عن احتقارها السافر لموليير لعجزه عن إخراج المأساة ، ولقدرته على الملهاة الرخيصة دون غيرها . وعزز موليير حجتهم بتأليفه وعرضه مسلاة « فارس » متوسطة الجودة سماها « الديوث بالوهم » ولو أن الملك سر بأن يشهدها تسع مرات .

وكانت التغييرات تجرى خلال ذلك فى مبنى اللوفر القديم ، فهدمت صالة البتى بوربون فى استهتار ، ولاح حينا أن « فرقـــة المسيو » التى يرأسها موليير لن تجد لها مسرحا . ولكن الملك المعلوف دائما بادر إلى إنقـــاذه بأن خصص له فى الباليه — رويال « الصالة » التى خصصها ريشليو لعرض التمثيليات . وهناك ظلت فرقة موليير حتى مماته وكأنها جزء من جسم البلاط . وكان أول عرض له فى هذا المأوى الجديد آخر محاولاته فى المأساة ، وهى « دون جراسى » . وكان رأيه — وله فيه بعض العذر —

أن أسلوب المأساة الخطابى الفخم كما طوره كورنى ، ومثلته فرقة الأوتيل دبورجون ، أسلوب غير طبيعى ، وكان يتطلع إلى أسلوب أبسط وأكثر طبيعية . ولو سمح له تسلط النزعة الكلاسيكية على المسرح (وفواقه) لجاز أن ينتج مزيجاً موفقاً من المأساة والملهاة كما فعل شيكسبير ، فإن فى أعظم ملاهيه والحق يقال مسحة من المأساة . ولكن « دون جراسى » سقطت ، برغم جهود الملك لدعمها بحضورة ثلاث حفلات ، لقد كان قدر موليير أن يكايد للمأساة لا أن يمثلها .

وعليه فقد عاد إلى الملهاة . ولقيت « مدرسة الأزواج » نجاحاً طيب خاطره إذ عرضت يومياً من ٢٤ يونيو إلى ١١ سبتمبر ١٦٦١ . وقد آذنت بزواج موليير الوشيك ، وكان وقتها فى التاسعة والثلاثين ، من أرماند بيجار ، ذات الثمانية عشر ربيعاً ، ومشكلة المسرحية هى : كيف ينبغى أن يروض الشابة على أن تكون زوجة صالحة أمينة ؟ فالشقيقان أريست وسجاناريل محظوظان لكونهما الوصيين على الفتاتين اللتين ينويان الزواج منهما أما أريست ،البالغ من العمر ستين عاماً ،فيعامل فتاته القاصرليونور، ذات الثمانية عشرة، بغاية اللين :

« لم أنظر إلى تجاوزاتها الصغرة على أنها جرائم . ولقد لبيت على الدوام رغباتها الشابة ، ولست ولله الحمد آسفا على ذلك . فقد أذنت لها بأن تخالط الأصحاب الطيبين ، وتشهد الملاهى ، والتمثيليات ، والمراقص ، فهذه أشياء أراها على الدوام صالحة لتربية عقول الشباب ، وما الدنيا إلا مدرسةأحسبها تعلم طريقة العيش خيراً من أى كتاب . إنها تحب أن تنفق المال على الثياب ، والقمصان ، والأزياء الجديدة . . وأنا أحاول أن أشبع رغباتها ، فهذه لذات ينبغى أن نتيحها للشابات متى استطعنا توفيرها لهن(١٤) » .

وأما الأخ الأصغر سجاناريل فيحتقر أريست لأنه إنسان أحمق ضللته أحدث الأوهام . وهو يأسف على زوال الفضائل القديمة وعلى انحلال الأخلاق

الجديدة ، وعلى وقاحة الشباب المتحرر . وهو ينوى أن يأخذ فتاته القاصر إيزابيل بنظام صارم ليروضها على أن تكون زوجه مطيعة :

« لا بد أن ترتدى الملابس اللائقة ... فإذا لزمت بيتها كما تلزمه للمرأة العاقلة انصرفت بجمعها إلى شئون الزوجية ، فترفو الثياب فى ساعات فراغها أو تحبك الجوارب لتتسلى بها . ولن تخطو خطوة خارج البيت إلا إذا قام عليها رقيب ... إننى لن ألبس قروناً إذا استطعت إلى ذلك سبيلا » .

وبعد دسيسة بعيدة الاحتمال (منقولة عن ملهاة أسبانية) تهرب إيزابيل مع عاشق ذكى ، فى حين تتزوج ليونور من أريست وتظل وفية له إلى آخر التمثيلية .

وواضح أن موليير كان يحاور نفسه . ففى ٢٠ فبراير ١٦٦٢ ، وهو فى الأربعين ، تزوج بأمرأة تصغره بنصف عمره . أضف إلى ذلك أن عروسه هذه — أرماند بيجار — كانت ابنة مادلين بيجار ، التى كان موليير يعاشرها قبل عشرين عاماً . وقد اتهمه خصومه بالزواج من ابنته غير الشرعية . وكتب مونفلورى ، رئيس فرقة الأوتيل دبورجون المنافسة ، إلى لويس ينبئه بهذا فى ١٦٦٣ ، وكان جواب لويس أن جعل نفسه عراباً لأول طفل ولدته أرماند لموليير . أما مادلين ، حين لقيها موليير ، فكانت أشد احتفالا بشخصها من أن تتيح لنا أى معرفة يقينية بنسب أرماند . ويبدو أن موليير لم يعتقد أنه أبو الفتاة ، ولنا أن نفترض أن معلوماته فى هذه النقطة كانت أفضل قليلا مما يمكن أن تكون عليه معلوماتنا نحن .

كانت أرماند قد شبت كأنها حيوان الفرقة المدلل . وكان موليير يراها كل يوم تقريباً ، وقد أحبها طفلة قبل أن يعرفها امرأة بزمن طويل . وكانت الآن قد أصبحت ممثلة مكتملة النضج . أما وقد نشأت فى هذا الجو فإنها لم تخلق لتكون زوجة لرجل واحد ، لاسيما رجل قد أبلى روح الشباب .

لقد أحبت لذات الحياة واستغرقت فى معابثات فسرها الكثيرون على أنها خيانات للزوج ، وعانى موليير من جراء ذلك ، وكان أصدقاؤه وأعداؤه يلوكون الشائعات عنه . وبعد زواجه بعشرة أشهر حاول أن يهدىء جراحه ينقد غيرة الرجال والدفاع عن تحرر النساء . لقد حاول أن يكون أريست ، ولكن أرماند لم تستطع أن تكون ليونور . ولعله أخفق فى أن يكون أريست لأنه كان نافد الصبر شأنه شأن أى مخرج مسرحى . وفى « تمثيلية فرساى المرتجلة » (أكتوبر ١٦٦٣) وصف نفسه إذ يقول لزوجته «اسكتى أيتها الزوجة ، فما أنت إلا حمارة» . فتجيب « شكراً لك أيها الزوج الطيب . أنظر ما صار إليه أمرنا . أن الزواج يغير الناس تغييراً عجيباً ، فما كنت لتقول هذا قبل سنة ونصف(١٥) » .

وواصل تأملاته فى الغيرة والحرية فى مسرحيته «مدرسة الزوجات» التى عرضت أول مرة فى ١٦ ديسمبر ١٦٦٢ . ومنذ بدايتها تقريباً تراها تضرب على هذا الوتر — الزوج الديوث . فترى آرنولف الذى لعب موليير دوره هنا أيضاً طاغية من الطراز العتيق ، يؤمن بأن المرأة المتحررة امرأة فاسقة ، وأن السبيل الأوحد لضمان وفاء الزوجة هو ترويضها على الخدمة المتواضعة ، وعلى فرض الرقابة الصارمة عليها وإغفال تعليمها . وتشب أنييس ، القاصر التى كان وصيا عليها وعروسه المستقبلة ، فى براءة حلوة ، حتى أنها تسأل آرنولف فى عبارة تردد صداها فى طول فرنسا وعرضها ، « أيولد الأطفال من الأذن(١٦) ، ؟» . ولما كان آرنولف لم يتحدث إليها بشىء عن الحب ، فأنها ترحب فى سرور برىء بتودد هوراس الذى يجد طريقه إليها أثناء غيبة قصيرة للوصى . فإذا عاد آرنولف قصت عليه وصفاً موضوعياً لمسلك هوراس :

آرنولف : حسنا ، ولكن ماذا صنع حين انفرد بك ؟

آنييس : قال إنه يحبنى حباً حاراً لا نظير له . وقال لى بألطف لغة فى

الدنيا أشياء لا يمكن أن يعدلها شيء . وقد أبهجني لطف حديثه كلما استمعت إليه ، وأثار في شيئاً لا أعرفه ، عاطفة سحرتني تماماً .

آرنولف : (جانباً) يا له من تحقيق معذب في سر قتال ، يعاني فيه المحقق كل الألم ! (بصوت عال .) ولكن علاوة على هذا الحديث كله، وهذه الأساليب اللطيفة كلها ، ألم يقبلك بعض القبلات أيضاً ؟

أنييس : أوه ! إلى هذا الحد ! لقد تناول يدي وذراعي ولم يتعب قط من تقبيلها .

آرنولف : ألم يأخذ شيئاً آخر منك يا أنييس ؟ (ملاحظا حيرتها) ها ؟

أنييس : بلى ، لقد .

آرنولف : ماذا ؟

أنييس : أخذ .

آرنولف : كيف ؟

أنييس : الـــ .

آرنولف : ماذا تعنين ؟

أنييس : لا أجرؤ على إخبارك ، لأنك قد تغضب مني .

آرنولف : لا .

أنييس : نعم ، ولكنك ستغضب .

آرنولف : يا للهول ، لن أغضب .

أنييس : احلف إذن .

آرنولف : أحلف .

أنييس : أخذ ـ سيثور غضبك .

آرنولف : لا .

أنييس : نعــم .

آرنولف : لا ،لا ، لا ، لا . بحق الشيطان ما هو هذا السر ؟ ماذا أخذ منك ؟

أنييس : أنه ـ

آرنولف : (جانباً) إنى أقاسى عذاب الجحيم .

أنييس : أخذ الوشاح الذى أعطيتني،أصدقك القول أنى لم أستطع منعه .

آرنولف : (متمالكاً نفسه) : لا بأس بالوشاح . ولكنى أريد أن أعلم ألم يفعل شيئاً غير تقبيل يديك ؟

أنييس : أيفعل الناس أشياء أخرى ؟

آرنولف : لا ، لا . . . ولكنى باختصار لا بد أن أخبرك أن قبول علب الجواهر والاستماع إلى القصص العاطلة يقصها هؤلاء الغنادير المتبرجون، والسماح لهم وأنت مسترخية بتقبيل يديك وفتنة قلبك بهذه الطريقة — هذا كله خطيئة مميتة ، بل أفظع خطيئة يمكن أن ترتكبيها .

أنييس : تقول خطيئة ! والسبب من فضلك ؟

آرنولف : السبب ؟ لأنه مكتوب صراحة أن السماء تغضبها أفعال كهذه.

أنييس : تغضبها ؟ ولكن لم تغضب السماء ؟ واأسفاه ؟ إنه شيء حلو لذيذ ، تعجبنى البهجة التى أجدها فيه ، ولم أعرف من قبل هذه الأشياءَ.

آرنولف : نعم ، هناك الكثير من اللذة فى هذه العواطف الرقيقة ، وهذه الأحاديث اللطيفة ، وهذه القبل الحارة ، ولكن ينبغى تذوقها بطريقة شريفة ، والزواج كفيل بأن يمحو عنها الخطيئة .

أنييس : أفلا تعد خطيئة إذا كان الإنسان متزوجاً ؟

آرنولف : نعـم .

أنييس : أرجوك إذن أن تتزوجني حالا(١٧) .

وتهرب أنييس إلى هوراس بعد قليل طبعاً . ولـكن آرنولف يقتنصها من جديد ويوشك أن يضربها حين يوهن من عزيمته حلاوة صوتها وجمال جسدها ، وربما كان موليير يفكر في أرماند وهو يكتب عبارات آرنولف التالية :

« أن ذلك الحديث وتلك النظرة يجردان غضبي من سلاحه ، ويعيدان إلى الحنان الذى يمحو ذنبها كله . فما أعجب أن يحب الإنسان ! وأن يكون الرجال عرضة لمثل هذا الضعف أمام هؤلاء الخائنات افكلنا يعرف نقصهن ، فما هن إلا التبذير والحماقه ، وذهنهن شرير وفهمهن ضعيف ، وما من شيء أوهن منهن ، ولا أقل ثباتاً ، ولا أكذب ، ومع ذلك كله فالرجل يصنع كل شيء فى الدنيا من أجل هؤلاء الحيوانات(١٨) » .

وفى النهاية تهرب منه وتتزوج هوراس . أما آرنولف فيعزيه صديقه كريسالد بفكرة مؤداها أن امتناع الرجل عن الزواج هو الطريقة الأكيدة الوحيدة التى تقيه من أن يطلع له قرنان فى رأسه .

وأبهجت التمثيلية جمهورها ، فمثلت إحدى وثلاثين مرة فى الأسابيع العشرة الأولى ، وكان فى الملك من الشباب ما سمح له بالاستمتاع بخلاعتها ، ولـكن عناصر البلاط الأشد محافظة انتقدوا الملهاة لما فيها من مجافاة للفضيلة ، وكرهت السيدات فكرة الولادة من الأذن ، وندد الأمير كونتى بمنظر الفصل الثانى الذى سقنا حواره من قبل بين آرنولف وأنييس زاعما أنه أفضح ما عرض على خشبة المسرح . ولعن بوسويه التمثيلية برمتها ، ودعا بعض القضاة إلى حظرها باعتبارها خطراً على الأخلاق والدين، وسخرت الفرقة المنافسة من ابتذال الحوار وتناقضات رسم الأشخاص وشطحات الحبكة المتعجلة . وظلت التمثيلية حيناً « حديث كل بيت فى باريس(١٩) » .

وكان فى موليير من حب النضال مالا يدعه يترك هذا النقد كله دون تعليق منه . ففى تمثيلية ذات فصل واحد مثلت فى الباليه رويال فى أول يونيو ١٦٦٣ ، واسمها « نقد مدرسة الزوجات » عرض لنا لقاء بين نقاده وتركهم يعربون بعنف عن اعتراضاتهم ، ولم يكد يرد عليها إلا بأن يدع النقد يضعف ذاته بمبالغته ، وأن يجريه على ألسنة شخصيات مثيرة للسخرية . وواصل الأوتيل دبورجون « الحرب الكوميدية » بإخراجه هزلية قصيرة سماها « الناقد المعارض » ، وهجا موليير الفرقة الملكية فى « تمثيلية فرساى المرتجلة » (١٧ أكتوبر ١٦٦٣) . وساند الملك موليير فى وفاء ، ودعاه إلى العشاء(٢٠) ، ومنحه الآن معاشا سنويا قدره ألف جنيه ، لا بوصفه « ممثلا كوميديا » بل « شاعرا فذا(٢١) » . كذلك نصر الزمن موليير ، فمدرسة الزوجات تعتبر اليوم أول ملهاة عظيمة فى المسرح الفرنسى .

٤ — غرام طرطوف

ولكن موليير دفع ثمن حظوته لدى الملك . فلقد أحب لويس ظرفه وشجاعته ، فجعله من كبار المنظمين للملاهى فى فرساى وسان — جرمان . وقد ملأ أحد هذه المهرجانات المسمى « مباهج الجزيرة المسحورة » أسبوعا (٧ — ١٣ مايو ١٦٦٤) بألعاب السيف والولائم والموسيقى والباليه والرقص والدراما — وكلها أقيم فى حديقة فرساى وقصره تحت أضواء المشاعل والشمعدانات التى تحمل أربعة آلاف شمعة . وكوفىء موليير على جهوده فى هذا المهرجان بستة آلاف جنيه . وقد أسف بعض الأدباء لإسراف الملك فى استغلال عبقرية موليير لكى يوفر هذا اللهو الخفيف فى البلاط ، وتصوروا تلك الروائع التى كان من الجائز أن يكتمل نضجها لو أن الشاعر الكامن فى الكوميدى أتيح له مزيد من الوقت للتفكير والكتابة . غير أنه كان واقعا تحت ضغط من فرقته أيضا ، وما كانت شواغله ومسئولياته

مديرا للفرقة وممثلا بها لتسمح له على أية حال بالاعتكاف فى أى برج عاجى. وما أكثر المؤلفين الذين يكتبون تحت ضغط ملح خيرا مما يكتبون فى الفراغ ، فالفراغ يرخى الذهن ، والإلحاح يشحذه . ولقد أخرج موليير أعظم تمثيلياته أول مرة فى ١٢ مايو ١٦٦٤ ، فى قمة « مباهج الجزيرة المسحورة » ، وكانت جزءا من المهرجان .

فى هذا العرض الأول لم تكن « طرطوف » بالتمثيلية المناسبة تماما للمهرجان ، لأنها فضحت فى غير رحمة ذلك النفاق الذى يتخفى خلف رداء من التقوى والفضيلة . وكانت جماعة دينية من الإخوة العلمانيين تدعى « جمعية السر المقدس » ، وعرفت فيما بعد بـ« عصبة الورعين » قد قطعت العهود على أعضائها بأن يعملوا على حظر التمثيلية . أما الملك الذى كانت علاقته الغرامية بلافاليير قد أثارت كثيرا من نقد هؤلاء الورعين ، فقد كان مزاجه يدعوه للاتفاق مع موليير ، ولكنه بعد أن شاهد الملهاة فى عرضها الخاص بفرساى أوقف الأذن بعرضها على نظارة باريس فى الباليه — رويال . وطيب خاطر موليير بدعوته ليقرأ « طرطوف » فى فونتنبلو على نخبة مختارة تضم ممثلا للبابا لم يذكر التاريخ أنه اعترض عليها (٢١ يوليو ١٦٦٤) . فى ذلك الشهر مثلت المسرحية فى بيت دوق أورليان ودوقتها (هنرييتا آن) فى حضرة الملكة ، والملكة الأم ، والملك . وبينما كان يجرى التمهيد لعرضها على الجماهير أذاع كاهن سان — برتلمى ، بيير روليه ، فى أغسطس ثناء على الملك لحظره التمثيلية ، واغتنم هذه الفرصة ليرمى موليير بأنه « رجل ، بل شيطان متجسد فى ثوب رجل ، وأشهر مخلوق فاسق منحل عاش إلى الآن » . ثم قال الأب روليه إن جزاء موليير على تأليف طرطوف « أن يحرق على الخازوق ليذوق من الآن نار الجحيم[٢٢] » . ووبخ الملك روليه ، ولكنه ظل يحبس الإذن بعرض طرطوف علنا . ولكى يظهر حقيقة موقفه رفع معاش موليير السنوى إلى ستة آلاف جنيه ، وتلق

عن « المسيو » حماية فرقة موليير ، فأصبحت منذ الآن « فرقة الملك » .

وظل الجدل مضطرما تحت الرماد حامين . ثم قرأ موليير على الملك نسخة منقحة من التمثيلية ، أضاف إليها سطورا تذكر أن الهجاء ليس موجها ضد الإيمان الصادق بل ضد الرياء . وأيدت مدام هنريتا التماس المؤلف الإذن بعرض المسرحية . ووافق لويس موافقة شفوية ، وبينما كان منطلقا إلى الحرب فى فلاندر عرضت طرطوف لأول مرة على مسرح الباليه — رويال فى ٥ أغسطس ١٦٦٧ بعد مرور ثلاث سنين على أول عرض لها فى البلاط . وفى الغد أمر رئيس باريس ، وكان ينتمى لجماعة السر المقدس ، بغلق المسرح وتمزيق كل لافتاته . وفى ١١ أغسطس حظر رئيس أساقفة باريس قراءة الملهاة أو سماعها أو تمثيلها سرا أو علانية ، وإلا كان الحرم جزاء المخالف . وأعلن موليير أنه سيعتزل المسرح إذا استمر انتصار « الطراطيف » هذا . أما الملك الذى عاد إلى باريس فقد أمر الكاتب المسرحى الغاضب بأن يتذرع بالصبر ، ففعل ، وأثيب فى النهاية برفع الحظر الملكى . وفى ٥ فبراير ١٦٦٩ بدأت التمثيلية فترة عرض ناجحة اتصلت ثمانية وعشرين مرة . وبلغ من كثرة الراغبين فى دخول المسرح وتهافتهم عليه فى أول حفلة علنية أن الكثيرين كادوا يختنقون . لقد كانت « أشهر مسرحية » فى حياة موليير المسرحية . وقد حظيت دون جميع الدرامات الكلاسيكية الفرنسية بأكبر عدد من العروض — بلغت ٢٫٦٥٧ (حتى سنة ١٩٦٠) فى مسرح الكوميدى — فرانسيز وحده .

ولكن إلى أى حد تعلل محتويات التمثيلية تأجيلها الطويل ، وشعبيتها المتصلة ؟ أنها تعلل التأجيل بهجومها الصريح على التظاهر بالتقوى ؛ وتعلل الشعبية بقوة هجائها وبراعته . وكل مافى ذلك الهجاء مبالغ فيه بالطبع . فقلما يكون الرياء مستهترا كاملا كما كان فى طرطوف ، وقلما يكون الغباء مفرطا كما كان فى أورجون ، وليس هناك خادمة نجحت فى وقاحتها كما نجحت

دورين . وحل عقدة التمثيلية لا يصدق ، كما هى الحال عند موليير دائما تقريبا ، ولكن هذا لم يقلقه ، فبعد أن يقدم صورته واتهامه للنفاق ، تكفى أى حيلة مسرحية — كتدخل الإله أو الملك — لحل العقدة بانتصار الفضيلة وعقاب الرذيلة . وأغلب الظن أن الهجاء قصد به جماعة السر المقدس الذين أخذ أعضاؤه على عاتقهم أن يوجهوا ضمائر الناس ، حتى ولو كانوا علمانيين ، ويبلغوا الخطايا السرية للسلطات العامة ويتدخلوا فى شئون العائلات لزيادة الولاء والإخلاص للدين . وقد أشارت التمثيلية مرتين إلى « عصبة » (فى السطرين ٣٩٧ و ١٧٠٥) ، وواضح أن هذا تلميح إلى عصبة الورعين . وعقب العرض الأول للتمثيلية حلت جماعة السر المقدس .

أما أورجون ، البورجوازى الغنى ، فيرى طرطوف لأول مرة فى الكنيسة فينبهر لمرآه .

« آه لو رأيته ... إذن لأحببته كما أحببـــه . . كان يأتى كل يوم إلى الكنيسة هادىء الهيئة ثم يركع بجوارى . وقد لفت أنظار المصلين جميعا بحرارة الابتهالات التى رفعها إلى السماء . كان يتأوه ويئن أنينا شديدا ، وفى كل لحظة يقبل الأرض فى تذلل . فإذا شرعت فى الخروج تقدمنى ليقدم إلى المـاء المقدس عند الباب . وإذ أدركت . . رقة حاله . . كنت أهديه الهدايا ، ولكنه كان على الدوام يعرض أن يرد إلى بعضها . . وأخيرا حفزتنى السماء على أن آخذه إلى بيتى ، وبدا لى منذ تلك اللحظة أن كل شىء يزكو . وأنا أراه يلوم دون تفرقة بين الناس ، وألحظ أنه ، حتى فيما يتصل بزوجتى ، شديد الحرص على عرضى . فهو ينبئنى عمن يرمقها بنظرات الهيام(٢٣) » .

ولكن طرطوف لا يروع زوجة أورجون وأبناءه كما راعه . ذلك أن شهيته الطيبة ، وولعه بأطايب الطعام ، وكرشه المكور ، ووجهه المتورد

كل أولئك يذهب فى نظرهم بأثر عظاته . ويرجو كلياًنت زوج أختـه أورجون أن يميز بين الرياء والدين :

« كما أننى لا أعرف فى الحياة خلقا أعظم ولا أجل من التقوى الصادقة ، ولا شيئا أنبل ولا أجمل من حرارة الورع الخالص ، فإننى لا أرى شيئا أشد نـكراً من طلاء الغيرة الزائفة ، ومن هؤلاء الدجالين ، هؤلاء الاتقياء مظهراً . . . الذين يتجرون بالتقوى ، ويريدون أن يشتروا أسباب التـكريم وحسن الأحدوثة برفع العيون إلى السماء فى رياء ، وبانتشاءات القداسة المفتعلة » .

ولـكن أورجون يمضى فى تصديق مزاعم طرطوف ، ويخضع لأرشاده ، ويطلب له المعونة من الله إذا تجشأ ، ويقترح تزويجه من ابنته ماريان التى تؤثر عليه ڤالير فى عنف أما بطلة التمثيلية الحقيقية فهى دورين ، خادمة ماريان ، التى يبدو — كما فى كل الملاهى الـكلاسيكية — أنها تثبت أن العناية الإلهية وزعت العبقرية توزيعا يتناسب تناسبا عـكسيا مع المـال . وما أبهج استقبالها لطرطوف عند دخوله المسرح أول مرة :

طرطوف : (يـكلم خدمه بصوت عال حين يرى دورين) . يا لورنس ، اقفل على وشاحى الوبرى وسوطى ، والتمس من السماء أن تنيرك بالنعمة دائما . وإذا جاء أحـــد لزيارتى فقل إنى ذهبت إلى السجون لأوزع صدقاتى .

دورين : (جانبا) أى تصنع وأى لؤم !

طرطوف : ماذا تريدين ؟

دورين : أن أقول لك —

طرطوف : (وهو يسحب منديلا من جيبه) أوه . يا للهول . أرجوك أن تأخذى هذا المنديل منى قبل أن تتكلمى .

دورين : ولم ؟

طرطوف : غطى ذلك الصدر الذى لا أطيق رؤيته . مثل هذه الأشياء تؤذي النفس وتغرى بالأفكار الآثمة .

دورين : إذن فأنت تذوب ذوبانا أمام التجربة ، ومنظر الجسد يؤثر فى حواسك تأثيراً شديداً ؟ الحق أننى لا أعرف أى حرارة تلهبك ، ولكننى عن نفسى لست عرضة مثلك لهذا التلهف على الجسد . ففى وسعى الآن أن أراك عارياً تماماً من رأسك إلى قدمك ، دون أن يغرينى جلدك هذا كله أى أغراء (٢٤) .

والمنظر التالى لب الملهاة . ترى فيه طرطوف يطارح زوجة أورجون ـ ايلمير ـ الغرام ، ويستعمل لغة التقى فى توسلاته . وينبأ أورجون بخيانته ، ولكنه يأبى أن يصدق ، واظهاراً لثقته بطرطوف ينزل له عن أملاكه كلها . ويستسلم طرطوف لقبولها قائلا « لتكن مشيئة السماء فى كل شىء(٢٥) » وتحل ايلمير الموقف ، إذ تخبىء زوجها تحت مائدة ، وترسل فى طلب طرطوف ، وتلوح له ببارقة تشجيع ، ثم توقعه فى محاولات للاستطلاع الغرامى . وتتظاهر بالرضى ، ولكنها تزعم أنهـــا تحس وخزات الضمير ، فيتناول طرطوف هذا الزعم بفتوى الخبير ، وواضح أن موليير قرأ من قبل رسائل بسكال الريفية واستطابها :

« طرطوف : إذا لم يكن غير السماء عقبة فى طريق رغباتى ، فما أيسر أن أزيح هذه العقبة — صحيح أن السماء تنهى عن لذات معينة ، ولكن هناك طرق لتسوية تلك الأمور . فشد أوتار الضمير وفق مقتضيات الحال ، وتصحيح فساد الفعل بطهارة النية — ذلك علم أى علم(٢٦) » .

ويظهر أورجون من مخبئه ، ويأمر طرطوف غاضباً بأن يخرج من بيته ، ولكن طرطوف يبين له أن البيت أصبح ملكا له بحكم العقد الذى وقعه أورجون مؤخراً . ويقطع موليير هذه العقدة ، دون كبير براعة ، بأن يجعل

عمال الملك يكتشفون فى اللحظة المناسبة أن طرطوف مجرم تبحث عنه العدالة منذ زمن طويل . ويستعيد أرجون أملاكه ، ويظفر ڤالير بمريان ، وتختتم التمثيلية بنشيد شكر شجى يشيد بعدل الملك وإحسانه .

٥ ـ الملحد العاشق

ولكن إحسان الملك لابد قد أرهقته تمثيلية موليير الجريئة التالية . ففى ذروة الحرب المحتدمة حول « طرطوف » ، وبينما كانت جماعة الورعين لا يزالون منتصرين فى أمر حظر التمثيلية ، عرض موليير في الباليه — رويال (١٥ فبراير ١٦٦٥) مسرحية « وليمة التمثال الحجرى » التى قص فيها بنثر يطفر مرحا قصة دون جوان القديمة المكرورة ، وجعل فيها ذلك الزير المستهتر ملحداً مغروراً . وقد أخذ شكلها الظاهر عن تيرسودى مولينا وغيره ، ولكنه ملأها بدراسة رائعة لرجل يلتذ الشر لذاته وتحدياً لله . والمسرحيه صدى مدهش لذلك الجدل الكبير الذى تورط فيه الدين مع الفلسفة .

ودون جوان تينوريو مركيز يسلم بالتزاماته قبل طبقته ، ولكنه فيما عدا ذلك يريد أن يستمتع بما يشتهى من لذات . ويحصى تابعه سجاناريل عدد النساء اللاتى أغواهن مولاه ثم هجرهن فيجدهن ١٠٠٣ . يقول جوان « إن الوفاء صفة لا تصلح إلا للحمقى .. فليس فى وسعى أن أحرم قلبي من أى مخلوقة جميلة أراها[٢٢] » ومثل هذا الخلق يتوق إلى لاهوت يلائمه ، ومن ثم يصبح جوان ملحداً ابتغاء راحته . ويحاول خادمه أن يناقش الأمر معه :

سجاناريل : أيمكن أنك لا تؤمن بالجنة ؟

جوان : انس الموضوع .

سجاناريل : أى أنك لا تؤمن . وما رأيك فى جهنم ؟

جوان : إه !

سجاناريل : كإيمانك بالجنة . وما رأيك فى الشيطان من فضلك ؟

جوان : نعم ، نعم .

سجاناريل : قليلا جداً كذلك . ألا تؤمن بحياة أخرى على الأطلاق ؟

جوان : ها ، ها ، ها .

سجاناريل : هذا رجل سيشق على هدايته . ولكن قل لى ، لابد أنك تؤمن بـ « الراهب الفظ* » .

جوان : تباً للأحمق .

سجاناريل : أما هذا فلا أطيقه ، لأن ليس هناك كائن وجوده مؤكد كهذا الراهب الفظ ، وقاتلني الله أن لم يكن وجوده حقيقياً . ولكن المرء يجب أن يؤمن بشيء . فبأى شيء تؤمن ؟ . . .

جوان : أومن بأن اثنين واثنين يساويان أربعة ، وأربعة وأربعة يساويان ثمانية .

سجاناريل : يالها من عقيدة جميلة ومواد إيمان رائعة ! إذن فدينك — على قدر ما أفهمه — هو الحساب ؟ أما أنا يا مولاى ... فأفهم جيداً أن هذا العالم ليس شيئاً كالفطر نما فى ليلة واحدة . أريد أن أسألك منذا الذى صنع هذه الأشجار والصخور والأرض والسماء من فوقنا ؟ أهذا كله بنى نفسه بنفسه ؟ أنظر إلى نفسك مثلا ، فها أنتذا موجود ، أصنعت نفسك ، وألم يكن لزاماً أن يغشى أبوك أمك ليصنعك ؟ أتستطيع أن ترى كل المخترعات التى تتألف منها الآلة البشرية دون أن تعجب كيف يشغل الجزء منها جزءا آخر ؟ ومهما قلت ، فإن هناك شيئاً معجزاً فى الإنسان لن يستطيع كل المتنطعين فى العلم أن يفسروه . أليس عجيباً أن ترانى هنا، وأن فى رأسى

(*) شبح مزعوم تخوف به المربيات والأمهات الأطفال .

شيئاً يفكر فى مائة شىء مختلف فى لحظة ويأمر بدنى بأن يصنع ما أريد ؟ أريد أن أصفق بيدى ، وأرفع ذراعى ، وأنظر بعينى إلى السماء ، واخفض رأسى ، وأحرك قدمى ، وأمشى يميناً ، ويساراً ، وأماماً ، وخلفاً ، وأدور (يقع على الأرض وهو يدور) .

جوان : هذا حسن ! أن لحجتك أنفاً مكسورا (٢٨) .

وفى المشهد التالى تتخذ الخصومة بين جوان والدين صورة أخرى . فهو يلتقى بشحاذ يزعم له أنه يصلى كل يوم من أجل المحسنين إليه ، فيقول جوان : « أن رجلا يصلى كل يوم لا بد أن يكون غنياً جداً » ويجيب الشحاذ إن الأمر على العكس من ذلك « ففى أكثر الأحيان لا أجد حتى كسرة خبز » ويعرض عليه جوان جنيهاً ذهبياً « شريطة أن يجدف » ولكن الشحاذ يرفض « إنى أفضل الموت جوعا » ويذهل جوان قليلا لهذه الصلابة فيعطيه قطعة النقود وهو يقول « حبا فى الإنسانية (٢٩) » ويعرف كل رواد الأوبرات نهاية القصة ، إذ يصادف جوان تمثالا للقائد الذى أغوى ابنته وأودى بحياته . فيدعوه التمثال إلى العشاء ، فيحضر ، ويناوله يده ، فيقوده إلى الجحيم . ويظهر الجهاز الشيطانى المعهود فى المسرح الوسيط ، « فينقض الرعد والبرق بضوضاء عظيمة على دون جوان ، وتفغر الأرض فاهاوتبتلعه ، وتندلع نار هائلة من المكان الذى سقط فيه » .

وقد صدم الجمهور فى أول ليلة لما رأى من فضح موليير لكفر جوان . ولعل هذا الجمهور لم يكن يرى بأساً بأن يفضح سفالة جوان وافتقاره إلى اللاهوت ، وبأنه أماط اللثام عنه وحشا لا ضمير له ولا حنو ، ينشر الخداع والحزن أينما ذهب ، ولعله لاحظ أن المؤلف عرض ضحايا الوغد بكل ما فيه من عطف ، ولكنه لاحظ أن الرد على الكفر جاء على لسان أحمق يؤمن بالعفاريت إيمانا أرسخ من إيمانه بالله ، ولم يخفف من وقع هذا الكفر القاء جوان فى الجحيم أخيراً ، لأن الجمهور رآه يهبط إلى الجحيم

دون كلمة ندم أو خوف . وبعد العرض الأول خفف موليير من حدة أكثر الفقرات ايذاء ، ولكن هذا لم يهدىء ثائرة الرأى العام . ففى ١٨ أبريل ١٦٦٥ نشر سيد روشمون ، المحامى فى البرلمان ، « ملاحظات حول مسرحية لموليير » فيها وليمة التمثال الحجرى بأنها « شيطانية حقا . . لم يظهر قط أفسق منها حتى فى العهود الوثنية » ثم أهاب بالملك أن يحظر التمثيلية :

« فبينما يحرص هذا الملك النبيل الحرص كله على صون الدين ، نرى موليير يعمل على هدمه . . فليس فى وسع انسان مهما قل علمه بتعاليم الدين أن يؤكد بعد رؤية التمثيلية أن موليير أهل للمشاركة فى تناول الاسرار المقدسة ما دام سادرا فى عرضها ، أو يستحق أن تقبل توبته دون عقاب علنى (٣٠) » .

ولكن لويس واصل رضاءه عن موليير . ومثلت « وليمة التمثال الحجرى » ثلاثة أيام كل أسبوع من ١٥ فبراير إلى أحد السعف . ثم سحبت ، ولم تعد إلى خشبة المسرح إلا بعد موت مؤلفها بأربع سنوات ، ولم تعد إلا على صورة اقتباس شعرى بقلم توما كورنى الذى حذف المشهد الفاضح الذى نقلناه . أما النسخة الأصلية فقد اختفت ، ثم اكتشفت ثانية فى ١٨١٣ طبعة مسروقة نشرت بأمستردام فى ١٦٨٠ . وظلت نسخة كورنى تحتكر المسرح حتى ١٨٤١ ، وهى لا تزال تحتل مكان الأصل فى بعض طبعات أعمال موليير (٣١) .

٦ - موليير فى أوجه

وكأن موليير لم يكفه ما أثار عليه من خصوم ، فراح يهاجم مهنة الطب . وكان قد صور دون جوان بأنه « دجال فى الطب » ورأى أن الطب « من أكبر كبائر الإنسانية (٣٢) » وكان قد خبر بنفسه ما فى أطباء القرن السابع عشر من قصور وغرور . وخيل إليه أن الأطباء قتلوا ابنه حين وصفوا له حجر الكحل (الأنتيمون) ، ورآهم يقفون موقف العاجز من تدرنه

الذي يسير بخطى حثيثة (٣٣) . كذلك كان الملك ساخطا على ما يعطونه من مسهلات وما يفصدون من دمه كل أسبوع . ويقول موليير إن لويس هو الذي أغراه بوضع الأطباء على السفود . وعليه فقد كتب فى خمسة أيام تمثيلية « الحب خير طبيب » مستعيرا من الملاهى القديمة فى هذا الموضوع القديم . وقد أخرجت بفرساى فى ١٥ سبتمبر ١٦٦٥ فى حضرة الملك الذى « ضحك لها من قلبه » ولقيت الترحيب الحار حين مثلت بعد أسبوع فى البرليه — رويال . وهى تحكى قصة مريضة يدعى لفحصها أربعة أطباء . فيختلون للمداولة ، ولكنهم لا يناقشون إلا شئونهم الخاصة . فإذا أصر والد المريضة على قرار وعلاج ، وصف أحدهم لها حقنة شرجية ، وأقسم الآخر أن الحقنة ستقتلها لا محالة . ثم تتعافى المريضة بغير دواء ، الأمر الذى يثير سخط الأطباء ، فيصيح الدكتور باييز « خير لها أن تموت طبقاً للقواعد من أن تشفى مخالفة لها(٣٤) » .

وفى ٦ أغسطس ١٦٦٦ عرض موليير مسرحية قصيرة أخرى هى « الطبيب برغم أنفه » مقدمة مسرحية لمسرحيته « مبغض البشر » قصد بها أن يخفف من كآبة هذه التمثيلية التى تتغنى بالتشاؤم . وهى لا تجزى جهد قارئها اليوم لأن موليير لم يقصد أن تؤخذ هجائياته للطب مأخذ الجد . ويلاحظ أنه ظل على علاقات طيبة جداً مع طبيبه الخاص ، المسيو دموفلان ، وأنه توسط لدى الملك ليجد وظيفة شرفية لابن هذا الطبيب (١٦٦٩) وقد شرح مرة كيف كان هو وموفلان منسجمين تمام الانسجام فقال « إننا نناقش الأمر ، ويصف هو العقاقير ، وأنا أغفل تعاطيها ، ثم أشفى (٣٥) » .

وبينما كان موليير لا يزال فى وطيس المعركة حول طرطوف ، قدم فى ٤ يونيو ١٦٦٦ هجائية أخرى لم يقصد بها أن يسر الجمهور ولا الحاشية . وإذا كانت الحركة روح المسرحية ، فإن هذه المسرحية « مبغض البشر » أقرب إلى الحوار الفلسفى منها إلى التمثيلية وتكفى جملة واحدة لتلخيص القصة ؛ فألسيست ، الذى يطالب نفسه وغيره بالفضيلة الصارمة والصراحة

الـكاملة يحب سيليمين التي تؤثره ، ولـكن يطيب لها أن ترى العدد العديد من الخطاب وتسمع الـكثير من المديح . ويجد موليير فى هذا مجرد ذريعة لدراسة الفضيلة . فهل من واجبنا أن نقول الصدق دائما ، أم تحـل المجاملة محل الصدق لـكى نتقدم فى هـذه الدنيا ؟ أما السيست فيرفض أنصاف الحلول التى يتراضى بها المجتمع مع الصدق ، ويندد برياء البلاط ، حيث يتظاهر كل إنسان بأسمى العواطف و « أحر التحيات » فى حين يـكيـد كل لغيره سراً تحقيقاً لمصلحته الشخصية ، ويغتابهم جميعاً ، ويستمين بالتملق على نيل الحظوة أو السلطة . وألسيست يحتقر هذا كله ، ويريد أن يكون صادقاً ولو أفضى به الصدق إلى الانتحار . ويمر شويعر من رجال البلاط يدعى أورونت على قراءة أشعاره على ألسيست ، ويطلب إليه أن ينقدها نقداً مخلصاً ، وينال ما طلب ، فيهدد ويتوعد بالانتقام . وتغازل سيليمين الرجال ، فيوبخها ألسيست ، فتصفه بأنه إنسان متزمت مغرور ، ونـكاد نسمع موليير يوبخ زوجته المرحة ، والواقع انه هو الذى لعب دور ألسيست ، وهى التى مثلت سيليمين :

ألسيست : سيدتى ، أتسمحين لى أن أكون صريحا معك ؟ إنى لشديد الاستياء من تصرفاتك . . أنا لا أتشاجر معك ، ولـكن مسلـكك ياسيدتى يفتح لأول وافد أرحب سبيل إلى قلبك . إن لك عددا هائلا من العشاق الذين نراهم يحاصرونك ، ونفسى لا تستطيع الرضى بهذا .

سيليمين : أتلومنى لأنى أجذب العشاق ؟ أهو ذنبى أن الناس يجدوننى جديرة بالحب ؟ وإذا بذلوا المحاولات اللطيفة لرؤيتى أفآخذ عصا وأطردهم خارجا ؟ .

ألسيست : لا ، ليست العصا هى ما يجب أن تستعمليه ، بل روحا أقل استسلاما وذوبانا أمام عهودهم . أعرف أن جمالك يتبعك فى كل مكان ولـكن ترحيبك يزيد من تجتذبه عيناك تملقا بك ، وتلطفك مع جميع من يستسلمون لك يـكمل فى قلوبهم فعل مفاتنك (٣٦) .

والنقيض الفلسفى لألسيست هو صديقه فيلانت ، الذى ينصحه بأن يلائم فى لطف بين نفسه وبين ما فى البشر من نقائض فطرية وأن يعترف باللطف ميسراً للحياة . وسحر المسرحية فى قسمة موليير عواطفه بين السيست وفيلانت . فألسيست هو موليير الزوج الذى يخشى أن يكون ديوثا ، ومنجد حجرة الملك الذى عليه — لكى يعد سرير الملك — أن يتصدى لمائة نبيل يفاخرون بنسبهم مفاخرته بعبقريته . وفيلانت هو موليير الفيلسوف ، الذى يأمر نفسه بأن يكون معقولا متسامحاً فى الحكم على البشر . يقول فيلانت — موليير لموليير — ألسيست فى فقرة لنا أن نعتبرها نموذجا من موليير الشاعر :

« رباه : فلنقلل من ضيقنا بعادات العصر ، ولنتسامح قليلا مع الطبيعة البشرية ، ولا نفحصها بصرامة شديدة ، بل ننظر إلى عيوبها بشىء من التساهل . فالحياة فى هذه الدنيا تتطلب فضيلة مرنة طيعة ، وقد يخطىء المرء بغلوه فى الحكمة ، فالعقل الكامل يتجنب كل تطرف ، ويريدنا أن نكون حكماء فى اعتدال . إن التزمت الشديد فى فضائل القدماء يصدم كثيراً عصرنا والعرف السائد بيننا ، فهو ينشد فى البشر كمالا مفرطاً ، علينا أن نلين للزمن دون تصلب ، والحماقة كل الحماقة فى أن نورط أنفسنا فى تقويم أخطاء العالم . إنى الحظ كما تلحظ كل يوم عشرات الأشياء التى كان يمكن أن تكون خيراً مما هى لو أنها سلكت طريقاً غير طريقها ، ولكن مهما تكشف لى فى كل خطوة ، فإن الناس لا يرونى ساخطا مثلك . أننى أتقبل الناس على علاتهم فى هدوء كثير ، وأروض نفسى على التجاوز عما يفعلون ، وأعتقد أن فى برودة طبعى من الفلسفة قدر ما فى مرارة طبعك ، سواء كنت فى البلاط أو فى المدينة »(٣٧).

وفى رأى نابليون أن حجة فيلانت هى الأرجح ، أما جان جاك روسو فرأيه أن فيلانت كذاب ، وهو يحبذ فضيلة السيست الصارمة(٣٨) . وفى النهاية يهجر السيست العالم كما هجره جان جاك ويعتكف فى عزلة معتمة .

ولم تحقق التمثيلية من النجاح إلا قدراً معتدلا . فالحاشية لم تسغ هجو تظرفها ، وجمهور الصالة لم يتحمسوا لرجل كألسيست يحتقر كل شيء صراحة إلا نفسه . ولكن النقاد — الذين لا هم من جمهور الصالة ولا من الحاشية — صفقوا للمسرحية استحسانا ، وقالوا إنها محاولة جريئة لتأليف مسرحيه الأفكار ، أما النقاد المحدثون فيرونها أكمل عمل كتبه موليير . وبمضى الزمن ، وبعد أن مات جيلها الذى شهرت به ، لقيت قبولا عاماً ، ففيما بين عام ١٦٨٠ و ١٩٥٤ مثلت ١٥٧١ مرة فى الكوميدى فرانسيز — ولم يفقها فى حفلات تمثيلها سوى طرطوف والبخيل .

ولما عجز موليير عن العيش فى سلام مع زوجة شابة بدا لها الاقتصار على زوج واحد ، والجمال ، أمرين متناقضين ، هجرها (أغسطس ١٦٦٧) وذهب ليعيش مع صديقه شابلان فى أوتوى بالطرف الغربى لباريس . وقد استخف به شابلان فى رفق لأنه يأخذ الحب مأخذ الجد إلى هذا الحد ، ولكن موليير كان شاعراً أكثر منه فيلسوفاً . وقد اعترف بهذا (إذا صدقنا شاعراً يروى عن آخر) :

« لقد صممت على أن أعيش معها كأنها ليست زوجتى ، ولكن لو علمت ما أكابد لأشفقت على . فلقد بلغ بى الغرام بها مبلغاً يجعله يتغلغل بعطف فى كل اهتماماتها . وحين أتأمل استحالة تغلبى على ما أحس به نحوها ، أقول لنفسى إنها ربما تكابد نفس المشقة فى التغلب على ميلها لأن تكون لعوبا ، وعندها أجد نفسى أميل للشفقة عليها منى للومها . ستقول لى ولا ريب إن الرجل لابد أن يكون شاعراً لكى يحس بهذا ، ولكنى شخصيا أحس أنه ليس هناك سوى نوع واحد من الحب ، وأن أولئك الذين لم يحسوا بهذه الخلجات لم يحبوا حبا صادقا قط . فكل الأشياء فى الدنيا مرتبطة بها فى قلبى . . . وحين أراها يجردنى من كل قدرة على التفكير ضرب من الانفعال ، بل نشوات تحس ولا توصف ، فلا تعود لى عينان

تبصران سوءاتها ، ولا أرى غير كل جميل محبب فيها . أليس هذا منتهى الجنون(٣٩) ؟ »

وقد حاول أن يسلوها باغراق نفسه فى عمله . ففى ١٦٦٧ شغل نفسه بتنظيم حفلات الترفيـــه للملك فى سان — جرمان . وأحيت ملهاته « امفيتريون » (١٣ يناير ١٦٦٨) من جديد غراميات جوبيتر الذى يغوى الـكمين زوجة أمفيتريون . وحين قال لها جوبيتر « إن مقاسمة المرأة جوبيتر فراشه ليس فيها أى غض من شرفها » فسر كثير من السامعين العبارة بأنها تصفح عن غرام الملك بعدام دمونتسبان ، فإذا كان هذا التفسير صحيحا فهو تملق غاية فى السخاء ، لأن موليير لم يـكن مزاجه آنذاك يسمح له بالتعاطف مع من يغوون الزوجات . لقد كان كـكل إنسان آخر يداهن الملك بعبارات الزلفى كما فعل فى خاتمة طرطوف . وفى ملهاة أخرى مثلت أمام البلاط فى ١٥ يوليو ، واسمها « جورج داندان » أو الزوج المبلبل » تطالعنا مرة أخرى قصة الزوج المبلبل ، الذى يتهم زوجته بالزنا ولـكنه لا يستطيع أثبات التهمة فيأكل قلبه بالشك والغيرة ؛ لقد كان موليير يسكب الملح فى جراحه .

وكان عاما حافلا بالعمل ، فبعد بضعة أشهر لا أكثر (٩ سبتمبر) أخرج واحدة من أشهر تمثيلياته وهى « البخيل » . وقد اتخذت موضوعها وجزءاً من حبـكتها من مسرحية بلوتوس « أولولاريا » ولـكن بلوتوس كان قد نقل مسرحيته عن « الملهاة الجديدة » عند اليونان . وأغلب الظن أن البخيل وهجوه قديمان قدم المال ، ولـكن أحداً لم يتناول هذا الموضوع بحيوية وقوة أكثر من موليير . فترى آرباجون يتعلق بماله تعلقاً يحمله على ترك خيله تتضور جوعاً وتسير بغير حوافر ، وهو يـكره الطعام كراهية تجعله لا « يعطيك » نهاراً سعيداً (أى يقرئك التحية) بل « يقرضك نهاراً سعيداً » . وحين يرى شمعتين موقدتين استعداداً للعشاء يطفىء أحداهما .

وهو يرفض أن يمنح ابنته مهراً ، ويثق أن ابنه وابنته سيموتان قبله(٤٠). والهجوهنا ، كما هو فى موليير عادة ، يقرب من الكاريكاتور . ولم يسغ الجمهور الصورة ، وبعد أن مثلت المسرحية ثمانى مرات سحبت ، ولكن ثناء بوالو عليها أعان على نفخ الحياة فيها ، فعرضت سبعاً وأربعين مرة فى سنواتها الأربع الأولى ، ولا يفوقها فى عدد عروضها غير طرطوف .

أما مسرحية « البورجوازى مدعى النبل » فكانت أقل جودة وأكثر توفيقاً . وقصتها أنه فى ديسمبر ١٦٦٩ قدم إلى فرنسا سفير تركى . واتخذ البلاط كل أبهته ليقع من نفس السفير ، ولكن السفير استجاب فى جمود وصلف . وبعد رحيله دعا لويس موليير ولولى إلى تأليف كوميديا تجمع بين الباليه والملهاة وتحاكى الأتراك محاكاة ساخرة . ووسع موليير الخطة فجعلها هجائية تذم العدد المتعاظم من فرنسيى الطبقة الوسطى الذين يجاهدون للبس والحديث كمايلبس ويتحدث الأرستقراطيون بالمولد . ومثلت الملهاة أول مرة أمام الملك والبلاط بشامبور فى ١٤ أكتوبر ١٦٧٠ . ولما عرضت بالباليه — رويال فى نوفمبر ، عوضت الخسارة المالية التى الحقها بالفرقة عروض « البخيل » . ومثل موليير دور مسيو جوردان ، ومثل لولى دور المفتى . ورغبة فى خلع النبالة على مظهره ، يستأجر مسيو جوردان معلماً للموسيقى ، وآخر للرقص ، وثالثاً للمبارزة ، ورابعاً للفلسفة . ويتعارك هؤلاء ويتضاربون على أهمية فنونهم — فأيها أهم ، تحقيق التناغم ، أم الخطو الموقع ، أم القدرة على القتل المحكم ، أم الحديث بالفرنسية الرشيقة ؟ ونلحظ فى مزاعم معلم الموسيقى غمزة خبيثة قصد بها لولى المتفاخر المتسلق . ويعرف نصف العالم ذلك المشهد الذى يتعلم فيه جوردان أن اللغة كلها إما نثر وإما شعر :

مسيو جوردان : ماذا ؟ إذا قلت « إيتنى بخفى يا نيكول » ، و « ناولنى طاقيتى » أيكون هذا نثراً ؟ .

معلم الفلسفة : نعم يا سيدى .

مسيو جوردان : يقيناً ، لقد ظللت أربعين سنة أتكلم النثر وأنا لا أدرى . إنني والحق مدين لك جداً بإنبائي بهذا(٤١) .

على أن بعض رجال الحاشية الذين كانوا غير بعيدى العهد بالتخرج من التجارة إلى النبالة أحسوا أنهم المقصودون بهذا الهجاء ، فسخروا بالتمثيلية زاعمين أنها لغو فارغ ، ولكن الملك قال لموليير ، مؤكداً « أنك لم تكتب فى حياتك شيئاً أمتعنى كهذا » . يقول جيزو « إن البلاط تملكته نوبة من الأعجاب بمجرد سماعه هذا الثناء(٤٢) » .

وتعاون موليير ولولى ثانيـــة ومثلا أمام البلاط (يناير ١٦٧١) « بسيشيه » ، وهى مزيج من الباليه والمأساة ، شارك بيير كورنى وكنو بأكثر أبياتها . وكان لولى يكسب المعركة ضد موليير ، فالملهاة تخلى مكانها للأوبرا ، والحوار للآلات ، وكان لزاماً إنزال الأرباب والربات من السماء أو رفعهم من الجحيم واقتضى الأمر أعادة بناء المسرح فى الباليه ـ رويال لهذه التمثيلية ، وكلف هذا ١٫٩٨٩ جنيهاً . ولكن الأخراج حقق نجاحاً مالياً .

بيد أن الرومانس لم تكن أقوى جوانب موليير ، وكان أكثر انطلاقاً ويسراً حين يهزأ بسخافات جيله . وقد خيل إليه أن المرأة المتعلمة شذوذ متعب وعقبة فى طريق الزواج . ولقد سمع هؤلاء النسوة يشذبن الألفاظ ، ويناقشن دقائق النحو ، ويقتبسن من الآداب القديمة ، ويتكلمن فى الفلسفة ، ووقر هذا فى إذن موليير كأنه انحراف جنسى ، أضف إلى ذلك أن رجلين ـ هما الأب كوتان والشاعر ميناج ــ كانا يهاجمان بعنف مسرحيات موليير ، فها هى ذى الفرصة قد لاحت لوخزهما . وعليه ففى ١١ مارس ١٦٧٢ قدم مسرحية « النساء العالمات » . ففيلامنت تطرد خادمة لا ستعمالها لفظاً رفضه المجمع اللغوى ، وابنتها أرماند ترفض الزواج لأنه اتصال مقزز بين الأجساد لا امتزاج بين العقول ، ويقرأ تريسوتان شعره الكريه على هاتين

للرأتين المتكالفتين المعجبتين . ويملأ فاديوس الشعر بالألغاز والمعميات ، ويقرأ المزيد من شعره وشعر تريسوتان . ويدافع موليير عن هنرييت ضد هؤلاء جميعاً ، لأنها تستهجن أبيات الشعر (السداسية) وتريد زوجاً يمنحها الأبناء لا الإبجرامات . ترى هل أصبحت أرماند بيجار إحدى المتحذلقات ؟ أم أن موليير كان يعرض عصره ؟

٧ - ستار

إنه لم يجاوز الخمسين الآن ، ولكن حياته المحمومة ، وتدرنه ، وزواجه ، وأحزانه لفقد أحبائه ، استنزفت حيويته . إن مينار رسمه في ريعان شبابه : أنف كبير وشفتان شهوانيتان وحاجبان مرفوعان بشكل مضحك ، ولكن له إلى جانب هذا جبهة متجعدة وعينين حزينتين . ذلك أن انهماكه في دوامة المسرح من بلد إلى بلد ، يوماً بعد يوم ، وتعامله مع الممثلات الأوليات المتوترات الأعصاب ، ومع زوجة منعمة بالحياة ، ومع ملك حساس ، ورؤيته اثنين من أطفاله الثلاثة يموتان — كل هذا لم يكن طريقاً مفروشاً بالرياحين إلى التفاؤل ، بل طريقاً عريضاً لسوء الهضم والموت المبكر . لا عجب إذن أن يصبح موليير « بركانا يلتهم ذاته(٤٣) » ، إنساناً مكتئباً ، حاد الطبع ، نقاداً في غير مجاملة ، ولكنه رغم ذلك كريم النفس عطوف . وقد فهمته فرقته وأخلصت له الود ، موقنة أنه يفني نفسه ليوفر لها القوت ويكفل لها النجاح . وكان أصدقاؤه على استعداد دائم لخوض المعركة دفاعا عنه — لا سيما بوالو ، ولا فونتين ، اللذين كتبا مع موليير ، بمشاركة راسين أحيانا ، « الأصدقاء الأربعة » المشهورة . ولقد وجدوا فيه التعاليم الحسن والاطلاع الواسع ، وعرفوه ذكيا ظريفا وإن قل مرحه ، لقد كان المهرج الساخر على خشبة المسرح ، ولكنه في حياته الخاصة أشد حزنا من جاك (في مسرحية شكسبير « كما تشاء ») .

وبعد أن انفصل عن زوجته أربع سنوات ونصفاً عاد إليها (١٦٧١) . ومات الطفل الذى أثمره هذا التصالح بعد شهر من ولادته . وكان يعيش فى أوتوى قبل ذلك على اللبن كما أوصاه طبيبه ، فعاد الآن إلى شرب النبيذ على عادته ، وحضر سهرات العشاء المتأخر ارضاء لأرماند . وقرر أن يمثل الدور الأول برغم تفاقم سعاله ، دور أرجان ، فى آخر تمثيلياته « المريض بالوهم » (١٠ فبراير ١٦٧٣) .

وأرجان هذا يتوهم أنه مصاب بالعديد من الأمراض ، وينفق نصف ثروته على الأطباء والعقاقير . ويحتقره أخوه بيرالد :

« أرجان : فما الذى يجب أن نصنعه حين نمرض ؟

بيرالد : لاشىء يا أخى . . . علينا أن نحتفظ بهدوئنا لا أكثر . والطبيعة ذاتها إذا تركناها وشأنها ، كفيلة بأن تخلص نفسها بلطف من الخلل الذى وقعت فيه . إن الذى يفسد كل شىء هو تسكراننا لصنيعها ونفاد صبرنا ، وكل الناس تقريباً يموتون بالدواء لا بالداء[٤٤] » .

ولمزيد من السخرية بمهنة الطب يقال لأرجان إن فى استطاعته هو نفسه أن يصبح طبيباً بإجراء مختصر ، وأن يجتاز بسهولة الامتحان للحصول على الأجازة الطبية . ويلى ذلك الامتحان المزيف الذى تسأل فيه اللجنة أرجان(*) .

وكاد موت موليير أن يكون جزءاً من هذه التمثيلية . ففى ١٧ فبراير

(*) يحاول بيرالد فى هذا الفصل الأخير من الملهاة أن يسلى الأسرة ، فيكلف أصحابه الممثلين بفاصل يمثل قبول أرجان طبيباً فى الفيزياء على أنغام الموسيقى والرقص ، ويقترح اشتراك الجميع فى المهزلة ، وأن يمثل أرجان الدور الرئيسى فيها . ويدخل موكب الصيادلة والجراحين والأطباء ، ويجلس أرجان عند قدمى الرئيس الذى يخاطب لجنة الامتحان بخليط لغوى هازل طالباً إليهم أن يوجهوا اسئلتهم لأرجان . فيسألونه عن العقاقير والأمراض وعلاجها ، وعقب كل جواب يبدى الخورس استحسانه وجدارة أرجان بالمهنة ، فيحلفه الرئيس ويجيزه ، ويهتف الخورس بحياته داعياً له بطول العمر . (المترجم)

١٦٧٣ طلبت إليه أرماند وغيرها ، حين رأوا اعياءه ، أن يغلق المسرح أياما حتى يتمالك صحته . فسألهم ، ولكن كيف أصنع هذا ؟ إن هنا خمسين عاملا فقيرا ينقدون أجرهم يوما بيوم ، فماذا هم فاعلون إذا توقفنا عن التمثيل ؟ انى لألوم نفسى على انى أهملت توفير القوت لهم يوما واحدا مادام فى طاقتى أن أمثل(٤٥) » . وفى الفصل الأخير من التمثيلية ، وبينما كان موليير ، فى دور أرجان (الذى تظاهر بالموت مرتين) يلفظ بكلمة Juro (أحلف) وهو يقسم يمين المهنة ، أخذته نوبة سعال مقترنة بتقلصات . فداراها بضحكة كاذبة وأنهى التمثيلية . وهرعت به زوجته والممثل الشاب ميشيل بارون إلى بيته . وطلب كاهنا ، ولكن أحدا لم يحضر . واشتد سعاله ، وانفجر فيه عرق ، فاختنق بالدم فى حلقه ومات .

وقضى آرلى دشانفالون رئيس أساقفة باريس بأنه يستحيل دفن موليير فى أرض مسيحية مادام لم يتب توبته النهائية ويتلق غفران الكنيسة . أما أرماند ، التى كانت تحبه على الدوام حتى وهى تخدعه ، فذهبت إلى فرساى ، وارتمت عند قدمى الملك ، وقالت فى غير حكمة ، ولكن فى شجاعة وصدق « إذا كان زوجى مجرما ، فان جلالتكم باركتم جرائمه بشخصكم(٤٦) » . وبعث لويس بكلمة إلى رئيس الأساقفة سرا ، ولان آرلى ، وأمر بألا يؤخذ جثمانه إلى كنيسة لإجراء الشعائر المسيحية ، ولكنه سمح بدفنه فى هدوء بعد الغروب فى ركن قصى من جبانة سان — جوزيف فى شارع مونمارتر .

ومازال موليير بإجماع الناس علما من أعظم أعلام الأدب الفرنسى ، لا بكمال تكنيكه المسرحى ولا بأى روعة تميز بها شعره . فأكثر حبكاته مستعارة ، ومعظم نهاياتها مفتعلة وغير معقولة ، وجل شخوصه صفات مجسدة ، والعديد منها كأرباجون مبالغ فيه إلى حد الكاريكاتور ، وكثيرا ما تهبط ملاهيه إلى درك الفارص (الهزلية الصاخبة المهرجة) .

وقد قيل إن الحاشية والجمهور أحبوه أكثر ما أحبوه حين يغرق فى هذا الفارص ، ولم يستطيبوا أهاجيه اللاذعة للمثالب التي يشارك فيها الناس عموما . وأغلب الظن أنه كان مفضلا هذا اللون من الهزلية لولا شعوره بأنه مضطر إلى الحفاظ على قدرة فرقته على الوفاء بديونها .

وكما أسف شيكسبير على اضطراره أن يجعل من نفسه مهرجا للناظرين كتب موليير يقول : « أرى أن من العقوبة الفادحة فى الفنون الحرة أن يعلن الفنان عن نفسه للحمقى وأن نعرض ثمرات أقلامنا للحكم الهمجى الذى يحكم به عليها الأغبياء(٤٧) » . وقد حز فى نفسه أن يطالب على الدوام بإضحاك الناس ، فهذا كما قال أحد شخوصه « مطلب غريب(٤٨) » . وكان يتطلع لكتابة المآسى ، ومع أنه قصر دون هذا الهدف ، فإنه وفق فى أن يضفى على أعظم ملاهيه مغزى وعمقا مأساويين .

إذن فالفلسفة التى تنطوى عليها تمثيلياته ، وفكاهتها وهجوها اللاذع — هذه هى التى تجعل كل قارىء فرنسى تقريبا يقرأ موليير(٤٩) . وهى فى صميمها فلسفة عقلانية ، أبهجت قلوب « فلاسفة » القرن الثامن عشر . « فليس فى موليير أثر لمسيحية الخوارق » و « الدين الذى عرضه لسان حاله كليانت (فى طرطوف) يمكن أن يصدق عليه فولتير(٥٠) » . إنه لم يهاجم قط العقيدة المسيحية ، وقد سلم بفضل الدين فى حياة الكثيرين جداً ، واحترم التقوى الصادقة المخلصة ، ولكنه احتقر الورع السطحى الذى يخفى أنانية أيام ستة وراء نفاق اليوم السابع (يوم الأحد) .

وكانت فلسفته الأخلاقيه وثنية بمعني أنها أباحت اللذة ولم يكن فيها إحساس بالخطيئة . كان فيها رائحة أبيقور وسنيكا لا القديس بولس أو أوغسطين ، وقد انسجمت مع تحلل الملك أكثر من انسجامها مع زهد البور — رويال . وكان يستنكر الغلو حتى فى الفضيلة . كان يعجب بـ « الرجل الفاضل » ، رجل الدنيا المعقول الذى يسلك باعتدال عاقل

وسط السخافات المتعارضة ، ويوائم فى غير ضجة بين نفسه وبين نقائص البشر .

ولم يبلغ موليير ذاته ذلك المستوى من الاعتدال . فقد أكرهته مهنته مسرحيا هازلا على الهجو ، وعلى المبالغة أحيانا كثيرة . وقد عنف على النساء المتعلمات ، وغلا فى هجومه على الأطباء دون تفريق ، ولعله كان يخلق به أن يبدى احتراما أكثر للحقن الشرجية . ولكن الغلو كائن فى دم الهجو ، وقل أن تبلغ المسرحيات هدفها بدونه ، ولعل موليير يكون أجل وأعظم قدرا لو أنه وجد سبيلا لهجو الشر الأساسى الذى لوث ذلك العهد — ونعنى ذلك الجشع الحربى والاستبداد المدمر الذى ابتلى به لويس الرابع عشر ؛ ولكن هذا المستبد المنعم هو الذى حماه من أعدائه ويسر له أن يشن الحرب على التعصب . وما أسعده لأنه مات قبل أن يصبح سيده أشد هؤلاء المتعصبين كلهم تدميرا !

إن فرنسا تحب موليير ، وما زالت تمثل مسرحياته ، كما تحب انجلترا شيكسبير وتمثل مسرحياته ، ولا نستطيع كما يريد بعض الغاليين (الفرنسيين) المتحمسين أن نسوى بينه وبين شاعر انجلترة ، فلقد كان جزءا فقط من شيكسبير ، الذى كان جزءاه الآخران راسين ومونتينى . كذلك لا نستطيع كما يفعل الكثيرون أن نضعه على قمة الأدب الفرنسى . لا بل إننا لسنا على يقين من أن بوالو كان على حق حين قال للويس الرابع عشر إن موليير كان أعظم شعراء عهده ، فحين قال بوالو هذا لم يكن راسين قد كتب « فيدر » ولا « آتالى » . ولكن فى موليير ، ليس الكاتب فقط هو الذى ينتمى لتاريخ فرنسا ، بل الإنسان : مدير الفرقة المرهق الوفى ، والزوج المخدوع المصفوح ، والمسرحى الذى يخفى أحزانه بالضحك ، والممثل العليل الذى يواصل حتى الموت حربه على الفقر ، والتعصب ، والخرافة ، والنفاق .

الفصل الخامس

أوج الكلاسيكية فى الأدب الفرنسى

١٦٤٣ — ١٧١٥

١ ـ جو الكلاسيكية

لم يكن أوج الأدب الكلاسيكى الفرنسى مواكبا تماما لعصر لويس الرابع عشر ، بل جاء إبان وزارة مازاران وفى الربيع المشرق لهذا العصر (١٦٦١ — ٦٧) ، قبل أن ينحى مارس (إله الحرب) ربات الفنون إلى المؤخرة . أما أول حافز للتفجر الأدبى فقد انبعث من تشجيع ريشليو للدراما والشعر ، وجاء الثانى من الانتصارات الحربية التى حققها الفرنسيون فى روكروا (١٦٤٣) ولنز (١٦٤٨) ، وانساب الثالث من انتصارات فرنسا الدبلوماسية فى معاهدتى وستفاليا (١٦٤٨) والبرانس (١٦٥٩) ، وأتى الرابع من اختلاط الأدباء بالنبلاء والمثقفات من النساء فى الصالونات ، والحافز الأخير فقط هو الرعاية التى حظى بها الأدب من الملك والحاشية . وكثير من روائع ذلك العهد — كرسائل بسكال (١٦٥٦) وخواطره ، وطرطوف موليير (١٦٦٤) ومسرحية وليمة التمثال الحجرى (١٦٦٥) ومبغض البشر (١٦٦٦) ، وأمثال لاروشفوكو (١٦٦٥) وهجائيات بوالو (١٦٦٧) وأندروماك راسين (١٦٦٧) — هذه كلها كتبت قبل ١٦٦٧ بأقلام رجال نموا وترعرعوا أيام ريشليو ومازاران .

ومع ذلك كان لويس أسخى راع للأدب عرفه التاريخ كله . فما مضت سنتان على تسلمه مقاليد الحكم (١٦٦٢ — ٦٣) — أى قبل هذه الآثار

الأدبية كلها باستثناء اثنين منها — حتى طلب إلى كولبير وغيره أن يكلفوا أشخاصاً أكفاء بوضع قائمة بأسماء المؤلفين والأدباء والعلماء من أى بلد من يستحقون أن تقدم إليهم يد المعونة . ومن هذه القوائم تلقى خمسة وأربعون فرنسياً وخمسة عشر أجنبياً معاشات ملكية(١) . وأدهش الأديبين الهولنديين هاينسيوس وفوسيوس ،والفزيائى الهولندى كرستيان هويجنس ، والرياضى الفلورنسى فيفيانى ، وكثيراً غيرهم من الأجانب ، أن يتلقوا رسائل من كولبير تنبئهم بقرار الملك الفرنسى أن يمنحهم معاشات إذا وافقت حكوماتهم. وبلغ بعض هذه المعاشات ثلاثة آلاف من الجنيهات فى العام . فعاش بوالو عميد الشعر غير الرسمى ، على معاشاته كأنه إقطاعى كبير ، وترك لورثته ٢٨٦,٠٠٠ فرنك نقداً ، وتلقى راسين ١٤٥,٠٠٠ فرنك طوال عشر سنين بوصفه المؤرخ الملكى (٢) ولعل المعاشات الدولية كان بعض الدافع إليها الرغبة فى كسب أرباب الأقلام خارج فرنسا ، أما الهبات فى الداخل فهدفها إخضاع الفكر ، كما أخضعت الصناعة والفن للتنسيق والإشراف الحكوميين. وتحقق هذا الهدف ، فأخضع النشر كله لرقابة الدولة ، وأذعن الذهن الفرنسى للإشراف الملكى على تعبيره المطبوع ، باستثناء مقاومة متفرقة ضئيلة . يضاف إلى هذا أن الملك اقتنع بأن هذه الأقلام المأجورة ستتغنى بمديحه نثراً وشعراً وتخلف للتاريخ صورة مشرقة له . وقد بذلوا فى هذا قصاراهم .

ولم يكتف لويس بصرف المعاشات للأدباء ، بل إنه حماهم واحترمهم ورفع مقامهم الاجتماعى ، ورحب بهم فى القصر . قال مرة لبوالو « تذكر أننى سأفرد لك دائماً نصف ساعة من وقتى(٣) » . وربما كان ذوقه الأدبى مسرف الانحياز إلى الخصائص الكلاسيكية ، خصائص النظام ، والوقار ، وجمال الشكل ؛ ولكن هذه الفضائل لم تكن فى رأيه معينة على توطيد الحكم فحسب بل على إضفاء النبل على فرنسا . وكان من بعض الوجوه

متقدما على شعبه وبلاطه فى أحكامه الأدبية . وقد رأيناه يحمى موليير من غدر النبلاء ورجال الدين ، وسنراه يشجع أشد شطحات راسين .

وعملا باقتراح آخر من كولبير ، وترسماً لخطى ريشليو مرة أخرى ، أعلن لويس أنه الراعى الشخصى للأكاديمية الفرنسية ، ورفعها إلى مرتبة المؤسسات الحكومية الكبرى ، ووفر لها الأموال الكافية ، وهيأ لها مكاناً فى اللوفر . وأصبح كولبير نفسه عضوا فيها . ولما أمر عضو ، كان إقطاعياً كبيراً فى الوقت ذاته ، بأن يوضع له مقعـــد وثير فى الأكاديمية ، أرسل كولبير فى طلب تسعة وثلاثين مقعداً على شاكلته حفاظاً على المساواة فى الكرامة قبل الفوارق الطبقية ، وهكذا أصبحت « المقاعد الأربعون » مرادفاً للأكاديمية الفرنسية ، وفى ١٦٦٣ نظمت أكاديمية فرعية للنقوش والرسائل لتسجل أحداث العهد .

واستوثق كولبير من أن « الخالدين الأربعين » يكسبون رواتبهم بالانتظام فى الحضور وبالجهد فى تصنيف القاموس . وكان مشروع هـذا القاموس الذى بدأ فى ١٦٣٨ يتقدم فى بطء شديد ، حتى استطاع بواروبير أن يعبر أبجدياً عن أمنيته فى طول العمر ، « لقد أنفقوا ستة شهور وهم مشغولون بحرف F ، فليت قدرى يمهلنى حتى حرف G »(٤) .

كانت خطة القاموس معقدة شديدة التفصيل ، فقد رأت تتبع كل كلمة مسموح بها طوال تاريخ استعمالاتها وهجاءاتها ، ويشفع هذا بالكثير من الشواهد التوضيحية ، وهكذا انقضت ست وخمسون سنة بين بدء المشروع ونشر القاموس لأول مرة (١٦٩٤) . ولقد أسرف فى فحص لغة الشعب ، والمهن ، والفنون ، وشذب رابليه ، وآميو ، ومونتينى ، ورفض مئات التعبيرات التى تمين على الحديث الحى . فذات المنطق ، والدقة ، والوضوح الذى جعل من الهندسة المثل الأعلى لعلم القرن السابع عشر وفلسفته ، وذات السلطان والانضباط اللذان هيمن بهما كولبير على الاقتصاد ولبرون على

الفنون ، وذات الوقار والتأنق اللذان سيطرا على بلاط الملك ، وذات التشبث الكلاسيكي بالقواعد الذى شكل أسلوب بوسويه ، وفينيلون ، ولاروشفوكو ، وراسين ، وبوالو — كل أولئك أملى قاموس الأكاديمية .

ولقد نقح وأعيد نشره دورياً ، وكافح للاحتفاظ بالنظام فى جسم نام حى ، وهاجمت قلعته الكلاسيكية المرة بعد المرة ، وكثيراً ما اقتحمتها ، أخطاء الشعب ، ومصطلحات العلوم ، ورطانة الحرفيين ، وعامية الشوارع ؛ والقاموس ، شأنه شأن التاريخ والحكومة ، مزاج من القوى بين ثقل الكثرة وقوة القلة . وقد خسرت اللغة شيئاً من حيث الحيوية ، وكسبت الكثير من حيث النقاء ، والدقة ، والأناقة ، والمكانة . أنها لم تنجب شيكسبيراً هائجاً مائجاً ، ولكنها أصبحت أعظم لغات أوربا احتراما ، وغدت أداة الدبلوماسية ، ولسان الارستقراطيات . وظلت أوربا قرناً وأكثر تهفو إلى أن تكون فرنسية .

٣ — تذييل لكورني : ١٦٤٣ — ٨٤

بلغت اللغة أوجها فى السهولة المرنة التى اتسم بها حوار موليير ، وفى بلاغة كورني الطنانة ، وفى تأنق راسين الشجى .

أما كورني فكان يبدو فى ربيع أدبه — وهو فى السابعة والثلاثين — حين اعتلى لويس العرش : وقد بدأ العهد بملهاة « الكذاب » التى رفعت نبرة الملهاة الفرنسية كما رفعت « السيد » نبرة المأساة . ثم راح يدفع إلى المسرح بالمآسى كل عام تقريبا بعد ذلك ، رودوجون (١٦٤٤) ، وتيودور (١٦٤٥) ، وهيراقليوس (١٦٤٦) ودن سانشو الأراجونى (١٦٤٩) وأندروميد (١٦٥٠) ونيكوميد (١٦٥١) وبرتاريت (١٦٥٢) . ولقى بعض هذه التمثيليات استقبالا حسنا ، ولكن حين تعاقبت كل منها سريعا خلف سابقتها ، وضح أن كورني يتعجل الإنتاج ، وأن عصارة

عبقريته آخذة فى النضوب . وضاع ولعه بتصوير النبالة وسط بحر من الجدل، وهزمت بلاغته ذاتها باستمرارها دون توقف . قال موليير « إن لصديقى كورنيى رفيقاً يلهمه أروع شعر فى الدنيا . ولكن يحدث أن يتركه رفيقه ليرعى شئونه ، وعندها يتعثر شر تعثر(٥) . » وقد لقيت « بارتاريت » من سوء الاستقبال ما حمل كورنيى على أن يعتزل المسرح ست سنوات (١٦٥٣ — ٥٩) ، وتناول نقاده فى سلسلة من « الفحوص » ، وفى ثلاثة أحاديث عن الشعر المسرحى . وقد دلت هذه الأحاديث على صعود موهبته النقدية بهبوط ملكته الشعرية ، وأصبحت ينبوعاً للنقد الأدبى الحديث ، واتخذها درايدن نماذج حين دافع عن شعره المتوسط الجودة فى نثر رائع .

وفى ١٦٥٩ ردت كورنيى إلى خشبة المسرح لفتة تلقاها من فوكيه . وظفرت مسرحيته « أوديب » ببعض الاستحسان عقب ثناء الملك الشاب عليها ، ولكن المسرحيات التى تلتها — سرتوريوس (١٦٦٢) ، وسوفونيسب (١٦٦٣) ، وأوتون (١٦٦٤) ، وآجيسيلاس (١٦٦٦) وأتيلا (١٦٦٧) — هذه كلها كانت قاصرة قصوراً لم يستطع فونتنبل إزاءه أن يصدق أن كاتبها هو كورنيى ؛ وقال بوالو فى بيت ساخر :

« بعد أجيسيلاس ، وا أسفاه ! ولكن بعد أتيلا ، قف ! » وزادت مدام هنرييتا الطين بلة ، مع أنها كانت عادة آية العطف والرقة ، حين دعت كلا من كورنيى وراسين ، بعلم من كل ، إلى أن يكتب تمثيلية فى ذات الموضوع — وهو بيرنيس ، الأميرة اليهودية التى وقع فى حبها تيطس الإمبراطور القادم . ومثلت بيرنيس التى ألفها راسين فى الأوتيل دبورجون فى ٢١ نوفمبر ١٦٧٠ بعد خمسة أشهر تقريباً من موت هنرييتا ، ولقيت نجاحاً كاملا . أما مسرحية كورنيى « تيطس وبرينيس » فقدمثلتها فرقة موليير بعد ذلك بأسبوع ، ولم تلق غير استقبال فاتر : وحطم فشلها روح كورنيى . وجرب حظه ثانية بمسرحيتى « بولشيرى » (١٦٧٢) وسورينا (١٦٧٤) ،

ولكن الفشل كان نصيبهما أيضا . وأنفق كورنيي بعد ذلك السنين العشر التى بقيت له من أجله فى تقوى هادئة مكتئبة .

وكان متلافا ، مات فقيرا برغم ما أجرى عليه لويس الرابع عشر من معاش وما نفحه به من هبات ، وقد قطع معاشه دون قصد أربع سنوات ، فلجأ كورنيي إلى كولبير ، فأمر برده إليه ، ولكنه انقطع ثانية بعد موت كولبير . فلما نمى الأمر إلى بوالو أعلم به لويس الرابع عشر ، وعرض أن ينزل عن معاشه لكورنيي . ولكن الملك بادر بإرسال مائتى جنيه للشاعر العجوز ، الذى مات بعدها بقليل (١٦٨٤) بالغا الثامنة والسبعين وأبنه فى الأكاديمية الفرنسية مزاحمه الذى كان قد خلفه ، ورفع المسرحية والشعر الفرنسيين إلى ذروة تاريخهما ، والتأبين مازال مذكورا لما حوى من سماحة وبلاغة .

٣ — راسين : ١٦٣٩ - ٩٩

ولد مثل موليير فى أسرة متوسطة . وكان أبوه مراقبا لاحتكار الدولة للملح فى لافيرتى — ميلون ، على نحو خمسين ميلا شمال شرق باريس ، وكانت أمه ابنة محام فى فيليه — كوتريه . وقد ماتت عام ١٦٤١ وجان لم يبلغ الثانية بعد ، وبعد سنة مات أبوه ، فكفل الصبي جده لأبيه . وكان فى الأسرة نزوع قوى إلى الجانسنية ، فقد التحقت جدة وعمة لراسين بأخوات البور — رويال ، وأرسل جان نفسه حين ناهز السادسة عشرة إلى « المدرسة الصغيرة » التى يديرها « المتوحدون » وقد تلقى عنهم تعليما مركزاً فى الدين واليونانية — وهما مؤثران قدر لهما أن يسيطرا الواحد بعد الآخر على حياته . واستهوته تمثيليات سوفوكليس ويوريبيديس فترجم بعضها بنفسه . ثم تعلم شيئا من الفلسفة ومزيدا من الثقافة الكلاسيكية فى كلية آركور بباريس ، واكتشف المفاتن الخفية للأنوثة الشابة ، الجديد منها

والمستعمل . وعاش عامين على شاطىء الجزانز أوجوستان مع ابن عمه نيكولا فيتار ، الذى كان يتردد بين البور — رويال والمسرح . واستمع راسين إلى عدة تمثيليات ، وكتب تمثيلية ، وعرضها على موليير . ولم تكن من الجودة بحيث تستحق الأخراج ، ولكن موليير نفحه بمائة جنيه ذهبى ، وشجعه على أن يعيد الكرة . واستقر رأى راسين على اتخاذ الأدب حرفة له .

وهال هذا الجنون أقرباءه ، وراعهم ما نمى إليهم من أنباء غرامياته ، فأرسلوه إلى أوزيس بجنوبى فرنسا (١٦٥٩) مساعداً لعم له كان كاهنا لكتدرائية ، فوعده بوظيفة كنسية ذات وقف إن هو درس اللاهوت ورسم قسا . أما الشاعر الشاب ، الذى ما زال باطنه يضطرم بنار باريس ، فقد ظل عاماً يسدل على هذه النار عباءة سوداء ، وقرأ القديس توما الأكوينى — وقليلا من أريوستو ويوربيديس بجانبه . وكتب الآن إلى لافونتين يقول :

« كل النساء رائعات . . . لحم غض طرى ، ولكن بما أن أول شىء قيل لى هو أن آخذ حذرى ، فلست أريد أن أقول المزيد عنهن . أضف إلى ذلك أنه سيكون امتهانا لبيت كاهن ذى وقف أعيش فيه أن أخوض فى حديث طويل عن هذا الموضوع ، « بيتى بيت الصلاة يدعى » . . . لقد قيل لى « كن أعمى » فإذا لم أستطع أن أكون ذلك كلية ، فإنى أستطيع على الأقل أن أكون أبكم . . . لأن على المرء أن يكون راهباً مع الرهبان ، كما كنت ذئباً معك ومع غيرك من ذئاب قطيعك(٦) » .

ولقى الكاهن شدائد وأصبحت الوظيفة الكهنوتية الموعوده أملا بعيداً وتبين راسين أنه لا يملك موهبة القسوسية . فبدل ثوبه ، وطوى كتاب « خلاصة اللاهوت » وعاد إلى باريس (١٦٦٣) .

فلما بلغها نشر نشيداً أتاه بمائة جنيه من جيب الملك . واقترح عليه موليير موضوعاً حوله راسين إلى تمثيليته الثانية « طيبة » (التيبابييد) . وأخرجها

موليير فى ٢٠ يونيو ١٦٦٤ ، ولكنه اضطر لسحبها بعد أربعة عروض ، على أنها أحدثت من الضجة ما كفى لسماعها فى البور — رويال — دوشان ، وأرسلت إليه عمته من هناك رسالة تستحق أن نوردها باعتبارها جزءاً من دراما تعدل فى بلاغتها وتأثيرها فى النفس أى شىء كتبه راسين :

« حين نمى إلى أنك تنوى الحضور إلينا طلبت إلى أمنا الإذن لى برؤيتك ... ولكننى سمعت مؤخراً خبراً أثار فى أشجانا عميقة . وانى أكتب إليك فى مرارة قلبى ، وأذرف الدمع الذى أرجوان أسكبه غزيراً أمام الله لأنال منه خلاصه الذى أتوق إليه أشد مما أتوق لأى شىء آخر فى العالم . فقد علمت بالأسف أنك تخالط أكثر من أى وقت مضى معشراً اسمهم بحق رجس عند كل من له أى نصيب من تقوى ، « لأنهم محرومون من دخول الكنيسة » أو تناول الأسرار المقدسة .. فانظر الآن يا ابن أخى إلى أى حال صرت ، لأنك لابد عليم بما أشعر به نحوك من حنـــان ، وبأنه لم يكن لى من سؤل إلا أن تتبع الله فى وظيفة شريفة . لذلك أتوسل إليك يا ابن أخى العزيز أن ترحم نفسك ، وتفحص قلبك ، وتتأمل بجد أى هوة ترديت فيها . أنى لأرجو ألا يكون صحيحا ما أنبئت به ، ولكن إذا كان سوء طالعك قد بلغ مبلغا يحملك على مواصلة تجارة تشينك أمام الله والناس ، فعليك ألا تفكر فى المجىء لرؤيتنا ، لأنك تفهم جيداً أننى لن أستطيع فى هذه الحالة أن أكلمك لعلمى بأنك فى حالة مؤسفة جداً ، مناقضة كل المناقضة للمسيحية . ولن أكف فى الوقت نفسه عن التضرع لله ليرحمك ، فيرحمنى برحمته إياك ، لأن خلاصك عزيز على جداً(٧) » .

فهاهنا عالم شديد الاختلاف عن ذلك الذى تسجله صفحاتنا عادة — عالم من الإيمان العميق بالعقيدة المسيحية ، والولاء المحب لدستورها الأخلاقى . ونحن لا نملك غير التعاطف مع امرأة استطاعت أن تكتب بمثل هذا الأخلاص فى العاطفة ، ولم تخل من العذر لرأيها فى المسرحية الفرنسية كما

كانت فى شبابها . ولم تبلغ عبارة نيكول العلنية التالية هذا المبلغ من الرقة والحنو ، وكان قد علم راسين فى البور — رويال :

« كل الناس يعرفون أن هذا السيد قد كتب .. تمثيليات المسرح ... وهذه المهنة فى نظر ذوى العقول الراجحة ليست فى ذاتها مهنة شريفة جداً ، ولكن إذا نظر إليها فى ضوء الدين المسيحى وتعليم المسيح كانت فى الحق مهنة رهيبة . فالروائيون تجار سموم يقتلون نفوس الناس لا أجسادهم[٨] » .

واجاب كل من كورني وموليير وراسين على هذا الاتهام على حدة ، وكان فى جواب راسين من العنف الغاضب ما جعله يندم عليه اشد الندم فى سنوات لاحقة .

وتلا خصامه مع البور — رويال خصام مع موليير بعد قليل . ففى ديسمبر ١٦٦٥ قدمت فرقة موليير تمثيليه راسين الثالثة « الإسكندر » وكان موليير كريما كعادته ، فهو عليم بأن راسين لم يعجب به ممثلا تراجيديا، وان المؤلف الشاب يهيم بأجمل ممثلاته وإن لم تكن اكفأهن ، لذلك اخرج نفسه والمرأتين بيجار من شخصيات المسرحية ، واعطى الدور النسائى الأول لتريز دبارك ، ولم يضن بمال على الأخراج . وقد لقيت استقبالا حسنا ، ولكن راسين لم يرض عن التمثيل . فرتب حفلة خاصة مثلت الفرقة الملكية فيها المسرحية ، وحمله سروره بهذا التمثيل على سحبها من موليير واعطائها لهذه الفرقة المنافسة . وأقنع الآنسة دبارك التى أصبحت عشيقته بأن تترك فرقة موليير وتنضم إلى الفرقة الأقدم وعرضت المسرحية فى مكانها الجديد بالأوتيل دبورجون ثلاثين مرة فى أكثر قليلا من شهرين . ولم تكن من روائع راسين ، ولكنها وطدت مكانته خلفا لكورني ، وأكسبته صداقة الناقد بوالو المرشدة . فحين قال له راسين مفاخراً « انى أنظم شعرى فى يسر مدهش » أجابه بوالو « أريد أن أعلمك كيف تنظمه فى عسر[٩] » . ومنذ ذلك الحين علم الناقد العظيم الشاعر قواعد الفن الكلاسيكى .

ولا علم لنا بمدى العصر الذى نظم به راسين « أندروماك » ، على أية حال بلغ فيها أوج قوته المسرحية وأسلوبه الشعرى . وهو يذكر فى إهدائه المسرحية إلى مدام هنريتا أنه قرأها عليها ، وأنها بكت . ومع ذلك فهى مسرحية رعب لا مسرحية عاطفة ، وفيها كل الكارثة المحتومة التى نتوقعها فى إسخيلوس أو سوفوكليس . والحبكة شبكة معقدة من العلاقات الغرامية . فأوريست يحب هرميون ، التى تحب بيروس ، الذى يحب أندروماك ، التى تحب هكتور ، الذى مات . وقد منح بيروس بن أخيل ثلاث جوائز لما أبلى فى انتصار اليونان على طروادة : منح أبيروس مملكة له ، وأندروماك (أرملة هكتور) أسيرة له ، وهرميون (ابنة منيلاوس وهيلانه) زوجة له . أما أندروماك فلا تزال شابة وجميلة ، وإن لم تكف عن البكاء ، وهى لا تحيا إلا لتذكر زوجها النبيل ، وتخاف على طفلهما أستيانا كس ، الذى ينقذه راسين — بانحراف مسرحى عن القاعدة — من الموت الذى كان يصيبه فى يوريبيديس ليستعمله هنا أداة فى يد القدر . ويفد أوريست — بن كليتمنسترا وقاتلها — على إبيروس مبعوثا من اليونان ليطلب إلى بيروس تسليم استيانا كس وموته باعتباره المنتقم المحتمل لطروادة فى المستقبل . ويرفض بيروس الاقتراح فى فقرة تمتنع موسيقاها على الترجمة . يقول ما معناه :

« إنهم يخشون أن تولد طروادة بهكتور من جديد ، وأن ابنه قد ينتزع منى الحياة التى حفظتها عليه . سيدى ، إن الأفراط فى التدبر يجر أفراطا فى الحذر . إننى لا أستطيع أن أبصر المكاره من هذا البعد الكبير . وأنا أفكر فيما كانت عليه هذه المدينة (طروادة) فيما مضى ، جبارة فى حصونها ، شديدة الخصوبة فى أبطالها ، سيدة على آسيا ، ثم أتأمل فى النهاية ما صارت إليه وما انتهى إليه حظها — فلا أرى غير أبراج غطاها الرماد ، ونهر صبغت مياهه الدماء ، وحقول هجرت ، وطفل مقيد بالأغلال ، ولست أظن أن طروادة تقوى على الثأر وهى على هذه الحال . آه ، لو كان ابن

هكتور قدر عليه الموت ، فلم أبقينا عليه طاما كاملا ؟ ألم نكن قادرين على تقديمه قربانا على صدر بريام ؟ كان يجب أن يسحق تحت مئات القتلى فى طروادة ؛ يومها كان كل شيء مباحا ، وعبثا كانت تحتج الشيخوخة والطفولة بضعفهما فى الدفاع عن نفسيهما ، فالنصر والقدرة . وهما أشد منا قسوة ، حرضانا على القتل وأفقدانا التمييز فى ضرباتنا . إن غضبى على المغلوبين جاوز حد الصرامة ، ولكن أيجب أن تبقى قسوتى بعد غضبى ؟ أينبغى أن أغتسل متلبثاً فى دم طفل برغم ما يتملكنى من شفقة عليه ؟ لا يا سيدى ، فليبحث اليونان عن فريسة أخرى ، وليلاحقوا ما بقى من طروادة فى غير هذا المكان . لقد بلغت نهاية الشوط فى عدائى . ان ابيروس ستنقذ ما أبقت عليه طروادة »[١٠] .

هنا مأخذ واحد ، ذلك أن بيروس ، وربما راسين ، لا يدركان مبلغ ماتدين به شفقة الفاتح لغرامه بأم الطفل — إلى حد عرضه الزواج منها (مع أنه كان يستطيع أن يتخذها جارية له) ، واتخاذه أستيانا كس ولدا ووريثا له . ولكنها ترفضه ، فهى لا تستطيع أن تنسى هكتور ، الذى قتله أبو بيروس . وهو يهدد بأن يسلم الطفل لليونان ، فيروعها تهديده ، وترضى بالزواج منه ، ولكن هرميون — وهى فى تصور راسين لها تضارع الليدى مكبث قوة — ، تشتعل غضبا لأنها نبذت ، فهى تعتزم قتل بيروس رغم أنها لا تزال تحبه ، وتقبل ما يعرضه أوريست من حب وولاء ، شريطة أن يقتل بيروس . فيوافق كارها . وفى كل خطوة وكل شخص من شخوص هذه المسرحية صراع فى الدوافع يرقى إلى أدق العقد النفسية المعروفة فى الأدب . ويقتحم الجند اليونان الهيكل ويقتلون بيروس عند المذبح الذى يتبادل فيه عهود الزواج مع أندروماك . وتحتقر هرميون أوريست ، وتجرى إلى المذبح ، وتغمد مدية فى جسد بيروس الميت ، ثم تطعن نفسها وتموت . هذه أعظم مسرحيات راسين ، وهى خليقة بأن تثبت للمقارنة مع شيكسبير

أو يوريبيديس : حبكة متينة البناء ، وشخوص كشف عنها فى عمق ، ومشاعر مدروسة فى كل تعقيدها وحدتها(*) ، وشعر فيه من الروعة والتناغم مالم تسمعه فرنسا منذ رونسار .

واعترف الناس بأندروماك للتو رائعة من روائع الأدب ، فوطدت مقام راسين خليفة لكورنى وربما متفوقا عليه . ودخل الآن أسعد عقد فى عمره ، متنقلا من نصر إلى نصر ، بل متحديا موليير بملهاة من قلمه . والملهاة ، واسمها « المتخاصمون » ، وهى تقليد ساخر (برلسك) للمحامين الجشعين ، وشهود الزور ، والقضاة الفاسدين — هذه الملهاة كانت صدى لتجربة راسين مع القانون . ذلك أنه التمس رهنا على دخل دير وحصل عليه ؛ ولكن راهبا نازعه دعواه ، وتلا ذلك دعوى قضائية امتد بها الأجل حتى ضاق بها راسين ذرعا فتخلى عنها وثأر لنفسه بكتابة المسرحية . ولم تسر النظارة فى أول عرض لها ؛ ولكن حين مثلت فى البلاط ضحك لويس الرابع عشر من قلبه على نكتها ضحكا جعل الجمهور يغير رأيه ، وأدت هذه الملهاة المتوسطة الجودة دورها فى ملء جيب راسين .

على أن نغمة صغيرة قطعت عليه هناءه . ذلك أن خليلته دبارك ماتت فى ظروف غامضة — سنفصلها فى موضع لاحق — فى ١١ ديسمبر سنة ١٦٦٨ . وبعد أن توقف فترة مناسبة اتخذ ممثلة أخرى تدعى مارى شانمسليه . وكان لها زوج يقظ وصوت ساحر ، وتحاشى راسين الأول واستسلم للآخر . واتصل هذا الغرام من برينيس حتى فيدر ، وبعد ذلك انتزعها الكونت دكليرمون — تونير من جذورها (déracinée أى من راسين) كما قال أحد الظرفاء .

ومسرحية راسين « بريتانيكوس » (١٦٦٩) فى رأيه أكثر أعماله اتقانا ، وكثيرا ماتفضل على اندروماك ، شأنها شأن « فيدر » و « اتالى » .

(*) انفجر عرق فى مونفلورى وهو يمثلها ومات بعد قليل .

على أن القارىء المصرى لن يلتذها فى أغلب الظن مهما كان غارقا فى تاسيتوس ففيها أجربين السليطة ، وبريتانيكوس الشكاء وبوروس المتخبط ، ونارسيس القذر ، ونيرون الممتلىء شراً — فما من شخص هنا يظهر لنا تعقداً أو تطورا ، أو يبدى لنا أثرا من نبل خليق بأن يخفف فى موضع ما من أى مأساة جديرة بقلم شاعر .

وكما أن بريتانيكوس فتشت عن قصتها فى « قاعة الفظائع » التى ذكرها تاسيتوس ، فكذلك أخذت برينيس (١٦٧٠) قصة غرام امبراطور عن سطر موجز لسويتون يقول فيه « فأرسل لتوه كارها برينيس الكارهة من المدينة(١٢) » وتفصيل المسرحية أن تيطس الذى كان يحاصر أورشليم (٧٠ م) كان قد أغرم بالأميرة اليهودية . ومع أنها تزوجت من قبل ثلاث مرات ، إلا أنها تتبعه إلى روما خليلة له ، ولكنه حين يرث العرش يدرك أن الإمبراطورية لن تسمح بملكة أجنبية ، فيصرفها بعبارات ملكية متدفقة تتميز بالإدراك السليم . وقد حفلت المسرحية بالعاطفة الحارة وحظيت برضاء الجمهور والملك ، الذى لا بد قد استشف بسرور بلاطه وانتصاراته فى وصف برينيس لعظمة الإمبراطور الشاب :

« أرأيت بهاء هذه الليلة ؟ ألا تمتلىء عيناك بعظمتها وأبهتها ؟ هذه المشاعل ، وهذا الحطب ، وهذا الليل ذو اللهب المقدس ، وهاتيك النسور ، وتلك الشارات ، وهذا الجمع من الناس ، وهذا الجيش ، وذلك الحشد من الملوك ، هؤلاء القناصل ، وهذا السناتو — أولئك الذين قبسوا نورهم الساطع من حبيبى ، وهذا الأرجوان والذهب الذى يزداد تألقا بمجده ، وهذا الغار الذى مازال يقوم شاهدا على انتصاره ، وهذه العيون التى نراها قادمة من كل فج لتلتقى فيه وحده نظراتها الملهوفة ؛ هذه الطلعة الجليلة ، وهذه الحضرة الحلوة . وحق السماء ! بأى اجلال وبأى رضى تؤكد له كل القلوب سرا ثقتها به ! تكلم : أيستطيع إنسان أن يراه دون أن يخطر له

كما يخطر لى ، أنه لو كان القدر قضى بأن يولد مغموراً لتبين فيه العالم سيده بمجرد النظر إليه(١٣) » .

أمن العجب إذن أن نرى راسين ، وهو على هذا الحذق فى الزلفى ، ينال الحظوة السريعة عند الملك ؟

ونمر فى احترام ببعض مسرحياته الأقل شأنا ، وكلها ما يزال يحتل خشبة المسرح الفرنسى : بايزيد (١٦٧٢) ، ومتردات (١٦٧٣) التى فضلها لويس على كل مسرحياته ، وإفجينى (١٦٧٤) ، التى وضعها فولتير فى صف واحد مع أتالى باعتبارها من أروع ما كتب من الشعر(١٤) . وقد عرضت أفجينى أول مرة فى حدائق فرساى على ضوء الشمعدانات البلورية المعلقة فى أشجار البرتقال والرمان ، وعزف العازفون على الكمان وانعطفت قلوب نصف النخبة المتفرجة ، وتقدم راسين ليشكر النظارة على أغلى تصفيق لقيه فى حياته . وحين أخرجت فى باريس امتد عرضها أربعين مرة فى شهور ثلاثة . وكان قد انتخب أثناء ذلك عضواً فى الأكاديمية الفرنسية (١٦٧٣) . وبدا أن سعادته قد اكتملت .

على أن السعادة لم تكتب إلى الآن للشعراء ، إلا أن يكون الجمال فرحة لا تنتهى ، والثناء لا يقطعه صوت ناشز . قال راسين لابنه « لقد طالما أبهجنى جداً ذلك الاستحسان الذى قوبلت به ، ولكن أقل لوم ناقد . . . كان يسبب لى دائماً من الضيق قدرا أكبر من كل السرور الذى يدخله على المديح(١٥) » . فهو لم يكن شديد الحساسية فحسب ، كما لم يكن بد من أن يكون ، بل ضيق الخلق ، يرد على كل كلمة نابية . وفى ذروة نجاحه وجد نصف باريس تنتقده ، لا بل تعمل على إسقاطه . كان كورنى قد عمر فوق ما ينبغى ، ولكن مريديه تذكروا ما اتسمت به مآسيه الأولى من نبرة بطولية وموضوعات ملحمية ، وما شاع فى بلاغته من نبل ، وذلك المستوى السامى الذى رفع إليه دواعى الشرف والدولة ، فوق أهواء القلب . واتهموا راسين بتلويث المأساه بعواطف نصف مجنونة تنفعل بها مخلوقات خسيسة ،

وبادخال مغازلات حب القصور إلى المسرح ، وإغراقه بدموع بطلاته ، فصمموا على إسقاطه .

فلما عرفت أنه يكتب «فيدر» أقنع فريق من خصومه نيكولا برادون بأن يكتب مسرحية منافسة فى الموضوع نفسه . وكان للمسرحيتين نفس العنوان فى الأصل — فيدر وهيبوليت — وانبثقتا من أسطورة رواها يوريبيديس من قبل بما عهد فيه من قصد كلاسيكى فى العاطفة. ففيدر ، زوجة تيسيوس ، تولع ولعاً شديداً بهيبوليت بن ثيسيوس من زوجة سابقة ، ولكنها تجده بارد العاطفة نحو النساء فتشنق نفسها بعد أن تترك خطاباً اتهمته فيه بمحاولة الاعتداء على عفافها انتقاماً منه ، ونفى ثيسيوس ابنه البرىء ، الذى لم يلبث أن قتل وهو يسوق الخيل على شواطىء تروزين . ولكن راسين غير ترتيب الأحداث ، فجعل فيدر تتجرع السم بعد سماعها بموت هيبوليت . ومثلت مسرحية راسين فى الأوتيل دبورجون فى أول يناير سنة ١٦٧٧ ، ومثلت مسرحية برادون بعد يومين على مسرح جينيجو . ولقيت التمثيليتان نجاحاً متكافئاً إلى حين ، ولكن تمثيلية برادون طواها النسيان ، فى حين تعتبر تمثيلية راسين عادة رائعته الكبرى ؛ ودور فيدر تصبو إلى تمثيله كل الممثلات الفرنسيات ، كما يستهوى دور هاملت الممثلين التراجيديين فى المسرح الانجليزى* . ولقد بارى راسين الرومانسيين مع أنه المثل المحتذى فى الأسلوب الكلاسيكى ، فى عاطفية غرام فيدر ، وجعل هيبوليت يتحرق شوقا للأميرة أريسيا (وهذا مناقض للأسطورة) . وتعلم فيدر بنبأ هذا الغرام ، ويعطينا راسين فى تفصيل منفعل دراسة للمرأة إذا ازدريت . وهو يخفف من هذه التحليقات الرومانسية بوصف قوى لخيل هيوليت المذعورة وهى تجره حتى يلقى حتفه .

وفى المقدمة التى يصدر بها راسين تمثيليته فيدر (إذ بدأ يشتد فيه

(*) عند آدم سميث أن فيدر « ربما كانت أروع مأساة فى أى لغة » (١٦)) .

الحافز الدينى كلما ضعف الحافز الجنسى) يلوح بغصن الزيتون للبور — رويال فيول :

« لست أجروء على أن أؤكد لنفسى أن هذه . . . خير مآسى . . . ولكنى وأثق أننى لم أكتب مأساة عرضت فيها الفضيلة فى ضوء أفضل . فأتفه الذنوب تعاقب هنا عقاباً صارماً ، ومجرد التفكير فى الجريمة ينظر إليه هنا نظرة الاستهجان التى ينظر بها إلى الجريمة ذاتها ، وعثرات الحب ينظر إليها هنا كأنها عثرات حقيقية ، والعواطف المشبوبة لا تعرض على الأنظار إلا لترى الخلل التى هى السبب فيه ، والرذيلة مصورة فى المسرحية كلها بألوان تتيح لنا أن نراها ونكره شكلها الشائه . وتلك هى الغاية الصحيحة التى ينبغى أن يستهدفها كل من يعمل لجمهور الشعب . ولعل هذه أن تكون وسيلة المصالحة بين الدراما المأساوية ، وكثيرين من الأشخاص المعروفين بتقواهم وتعاليمهم ، والذين أدانوها مؤخراً ، ولكنهم سيحكمون عليها حكماً أكثر عطفاً لو عنى المؤلفون بتعليم جمهور النظارة عنايتهم بالترفيه عنهم ، ولو ترسموا فى هذا التعليم القصد الصحيح من المأساة(١٧) » .

ورحب آرنو ، المعروف بتقواه وتعاليمه ، بهذه النغمة الجديدة ، وأعلن رضاءه عن فيدر . ولعل راسين وهو يكتب المقدمة ، وقد بلغ الثامنة والثلاثين ، كان يتطلع إلى حياة من الاستقرار يسكن فيها إلى امرأة واحدة بدل النساء الكثيرات . ففى أول يونيو سنة ١٦٧٧ تزوج زوجة أتته بمهر كبير . وقد اكتشف ما فى الحياة العائلية من أسباب الراحة ، ووجد من البهجة فى ابنه البكر أكثر مما وجد فى أكثر مسرحياته توفيقاً . وكانت غيرة مزاحميه ودسائسهم قد نفرته من المسرح ، فألقى جانباً الخطط والمذكرات التى كان قد أعدها لأربع مسرحيات ، واقتصر طوال اثنى عشر عاماً على كتابة الشعر والنثر بين الحين والحين . لاسيما تأليف تاريخ للبور — رويال طابعه التبجيل والولاء البنوى .

ونغص عليه هذا الهدوء المثالى حادث مؤسف أليم . ذلك أن الحكمة

الخاصة التي كانت تحقق عام ١٦٧٩ فى تهم التسميم الموجهة ضد كاترين مونفوازان استلت منها اتهاما لراسين بأنه سمم خليلته تريز دبارك . وأدلت «لافوازان» بتفاصيل الاتهام ولكن لم يكن هناك ما يعززه . وإذ كانت واثقة من أنه سيحكم عليها بالاعدام ، فأنها لم تكن تخسر شيئا باتهام غيرها زوراً ، وقد لوحظ أن إحدى زبائنها وصديقاتها هى الكونتيسة سواسون ، وكانت عضوا فى العصبة التى قاومت راسين فى «غرام فيدر[١٨]» . ومع ذلك كتب لوفوا فى أول يناير سنة ١٦٨٠ إلى المفوض بازان دبيزون يقول « إن الأمر الملكى بالقبض على السيد راسين سيرسل إليك حالما تطلبه » ولكن حين تقدم التحقيق وبدا أنه سيورط مدام دمونتسبان ، أمر الملك بحظر نشر سجل المحاكمة ، ولم يتخذ أى إجراء ضد راسين[١٩] .

وأظهر لويس ثقته المستمرة فى الكاتب المسرحى . ففى سنة ١٦٦٤ رتب له معاشا ؛ وفى سنة ١٦٧٤ خلع عليه وظيفة شرفية تغل له ٢٫٤٠٠ جنيه فى العام فى إدارة المالية ؛ وفى سنة ١٦٧٧ عين راسين وبوالو مؤرخين رسميين للبلاط ؛ وفى سنة ١٦٩٠ أصبح الشاعر موظفا دائما فى معية الملك ، فأتته الوظيفة بمورد إضافى قدرة ألفان من الجنيهات . وفى سنة ١٦٩٦ بلغ من الثراء مبلغا أتاح له شراء وظيفة سكرتير الملك .

وقد أعان اداؤه النشيط لواجباته مؤرخا ملكيا على سحبه من المسرح . وكان يرافق الملك فى حملاته ليسجل الأحداث تسجيلا أدق . وفيما عدا ذلك كان يلزم داره شاغلا نفسه بتربية ولديه و بناته الخمس ، وكان يود أحيانا ، وسط صخبهم وضجيجهم ، لو أنه كان راهبا . وما كان ليكتب أى مسرحية أخرى لولا أن مدام دمانتنون لجأت إليه فى أن يكتب مسرحية دينية بريئة من كل مايتصل بالغرام ، تمثلها الفتيات اللائى جمعتهن فى أكاديمية سان سير . وكانت أندروماك قد مثلت هناك من قبل ، ولكن دمانتنون الفاضلة لاحظت أن الفتيات استمتعن بالفقرات الغرامية الحارة . ورغبة فى ردهن إلى التقوى كتب راسين مسرحيته « إستير » .

ولم يكن قد اقتبس موضوعاً من الكتاب المقدس من قبل ، ولكنه درس الكتاب أربعين سنة ، وأحاط بكل التاريخ المعقد المدون فى العهد القديم . وقام هو نفسه بتدريب الفتيات على أدوارهن ، وتبرع الملك بمائة ألف فرنك لتوفير الملابس الفارسية المطلوبة . فلما أخرجت (٢٥ يناير سنة ١٦٨٩) كان لويس أحد الرجال القليلين الذين شهدوها بين النظارة . واشتد الطلب على مشاهدتها ، من الكهنة أولا ، ثم من الحاشية ، وعرضتها أكاديمية سان — سير اثنتى عشرة مرة أخرى . ولم تصل إستير إلى جماهير المتفرجين إلا سنة ١٧٢١ بعد موت الملك بست سنين ، وعندها (بعد أن فقد الدين الرعاية الملكية) لم تلق إلا نجاحاً متوسطا .

وفى ٥ يناير سنة ١٦٩١ أخرجت سان — سير أحدث مسرحيات راسين وهى « أتالى » . وأتاليا هى الملكة الشريرة التى ظلت ست سنوات تقود يهوداً كثيرين إلى عبادة البعل الوثنية ، حتى عزلتها ثورة قام بها الكهان(٢٠) وجعل راسين من القصة مسرحية لا يشعر بقوتها غير أولئك الذين يشهدونها وهم على علم بقصة الكتاب المقدس ، يدفىء صدورهم الإيمان اليهودى أو المسيحى الأصيل ، أما غيرهم فسيجدون أحاديثها الطويلة وروحها القاتمة مثبطة لهم . وبدا أن التمثيلية صفقت لطرد الهيجوتوت وانتصار الكهنوت الكاثوليكى ، ولكنها من جهة أخرى حوت — فى إنذار رئيس الكهنة الملك الشاب جود — تنديدا قوياً بالحكم المطلق :

« إنك وقد نشئت بعيداً عن العرش لم تشعر بفتنته السامة ، إنك لا تعرف الانتشاء بالسلطان المطلق ، وسحر المتملقين الجبناء . عما قليل سيقولون لك إن أقدس القوانين ... ينبغى أن تطيع الملك ، وأنه لا ضابط للملك غير مشيئته ، وأنه يجب أن يضحى بكل شىء فى سبيل مجده الأعلى ... وا أسفاه ! لقد ضللوا أحكم الملوك(٢١) » .

وقد ظفرت هذه الأبيات بالاستحسان الكثير إبان القرن الثامن عشر ،

ولعلها حدت بفولتير وغيره(٢٢) إلى أعتبار أتالى أعظم الدرامات الفرنسية. على أن الأبيات التالية لهذه توحى بأن رئيس الكهنة إنما كان يحاج دفاعاً عن خضوع الملوك للكهنة .

أما لويس ، الذى بز الآن راسين فى تقواه وورعه ، فلم ير بالتمثيلية بأساً . وواصل استقبال راسين فى القصر رغم ما عرف عن الشاعر من تعاطف مع البور — رويال . ولكن فى سنة ١٦٩٨ حجب الملك رضاه . ذلك أن راسين ، بناء على طلب مدام دمانتنون ، وضع بياناً بألوان العذاب التى ابتلى بها الشعب الفرنسى فى أواخر الحكم . وفاجأها الملك وهى تقرأ الوثيقة ، وأخذها منها ، وانتزع منها اسم كاتبها ، وأخذته سورة الغضب وقال « ألكونه شاعراً خلا يحسب أنه يعرف كل شىء ؟ ألأنه شاعر كبير يريد أن يكون وزيراً أيضاً ؟ » أما مانتنون فقد أكدت لراسين وهى تفيض فى الاعتذار له أن الزوبعة ستمر سريعاً . ولقد مرت ، وما لبث راسين أن عاد إلى البلاط واستقبل استقبالا كريماً ، وإن بدا له أقل حرارة من ذى قبل(٢٣)* .

أما الذى قتل الشاعر فلم يكن نظرة فاترة من الملك بل خراجاً فى الكبد . وقد أجريت له جراحة ، وخف ألمه فترة ، ولكنه لم يكن واهما حين قال : لقد أرسل الموت لى كشف حسابه(٢٦) وجاء بوالو ، وهو يشكو المرض ، ليلازم صديقه العليل . وقال راسين « إنى مغتبط لأنه سمح لى أن

(*) يقول ابن راسين : « لقد عاد إلى القصر غير مرة ، وكان على الدوام يتشرف بالحديث إلى جلالته(٢٤) » أما سان — سيمون فيروى قصة غير هذه : فهو يزعم أن راسين فقد الحظوة لأنه انتقد ملاهى سكارون فى حضرة مدام دمانتنون والملك « وهنا احمر وجه الأرملة المسكينة ، لا لا نيل من سمعة الرجل المشلول ، بل لسماعها اسمه ينطق به فى حضرة خلفه . كذلك ارتبك الملك ... وانتهى الأمر بأن صرف الملك راسين زاعما أنه ذاهب إلى عمله ... ولم يكلم الملك ولا مدام دمانتنون بعدها راسين حتى ولا نظرا إليه » . وهذا التعليل لسخط الملك على راسين مرفوض الآن عموما (٢٥) .

أموت قبلك(٢٧) » وكتب وصية بسيطة كان أهم فقرة فيها هذا الرجاء إلى البور — رويال :

« أود أن تحمل جثتي إلى البور ـ رويال ـ دى ـ شان ، وأن تدفن فى مقبرته .. إننى بكل تواضع ألتمس من الأم الرئيسة والراهبات أن يمنحننى هذا الشرف ، وإن كنت عليما بأنني لا أستحقه ، سواء لما شاب حياتى الماضية من مخاز ، أو لتقصيرى فى الإفادة من ذلك التعليم الممتاز الذى تلقيته من قبل فى ذلك الدير ، وما رأيت فيه من مثل رائعة فى التقوى والتوبة ... ولكن كلما ازدادت إساءتى لله ازدادت حاجتى لصلوات هذه الجماعة العظيمة الورع(٢٨) » .

ومات فى ٢١ إبريل سنة ١٦٩٩ وقد بلغ التاسعة والخمسين . وأجرى الملك معاشاً على أرملته وأبنائه حتى مات آخرهم .

وتضع فرنسا راسين فى صف أعظم شعرائها ، لأنه هو وكورنى يمثلان أرقى ماوصلت إليه الدراما الكلاسيكية الحديثة من تطور . ولقد تقبل ـ بناء على حض بوالو — تفسيراً دقيقاً للوحدات الثلاث : فبلغ بذلك تركيزاً لا يبارى للوجدان والقوة من خلال عمل واحد يقع فى مكان واحد ويكمل فى يوم واحد . وقد تجنب تطفل الحبكات الثانوية ـ وكل مزج بين المأساة والملهاة ، وأخرج العامة من مآسيه ، ولم يتناول عادة غير الأمراء والأميرات والملوك والملكات . وقد نقى لغته من كل الألفاظ التى قد تعد نابية فى الصالونات أو البلاط ، أو تكون محل استنكار فى الأكاديمية الفرنسية . وشكا من أنه لا يجرؤ على أن يورد فى تمثيلياته عملية مبتذلة كعملية تناول الطعام ، وإن حفل بها شعر هوميروس(٢٩) » وكان الهدف هو بلوغ أسلوب يعكس فى الأدب حديث الأرستقراطية الفرنسية وعاداتها . وقد حدت هذه القيود من مجال راسين . وكانت كل درامة من دراماته قبل إستير ، على شاكلة سابقاتها — وفى كل منها كانت العواطف واحدة .

على أن راسين شارف الرومانسية فى طابع المشاعر التى عبر عنها وفى حدتها، وذلك رغم الفكرة الكلاسيكية، فكرة العقل يطغى على الحياة ويضبط العاطفة والحديث. وبينما نجد العاطفة فى كورنى تؤكد على الشرف، والوطنية، والنبالة، نجدها فى راسين تتركز إلى حد كبير حول الحب أو العاطفة المشبوبة؛ ونحن نحس فيه تأثير رومانسيات دورفيه، ومدام دسكوديرى، ومدام دلافاييت. وكان سوفوكليس أكثر من يعجب بهم من المسرحيين قاطبة، ولكنه يذكرنا أكثر بيوربيديس، الذى تحول فيه قصد سوفوكليس وجلال عبارته بين الحين والحين إلى أفراط فى الحماسة والوجدان. وفى هاملت أو مكبث من القصد فى الحديث أكثر مما فى أندروماك أو فيدر. وقد أعرب راسين صراحة عن رأيه فى أن «أول قاعدة» للدراما «هى أن تسر وأن تمس القلب(٣٠)» وقد فعل هـــذا بتعامله مع القلب، وباختياره شخوصه الرئيسيين من بين أفراد — كانوا عادة من النساء — مرهفى العاطفة، وتحويله تمثيلياته إلى سيكولوجية العاطفة.

وقد وافق على الحظر الكلاسيكى للحركة العنيفة على المسرح، ومن ثم أخذ نفسه بالتعبير عن العاطفة بالكلام فقط، وألقى هذا عبئاً ثقيلا على أسلوبه، فأصبحت المسرحية سلسلة من الخطب، وكان استرساله فى الأبيات السكندرية المتتابعة — وهى ذات المقاطع الاثنى عشر والقوافى المزدوجة — هذا الاسترسال أشرف بشعره على الرتابة المملة؛ فنحن نفتقد فى راسين وكورنى ما يطالعنا فى الشعر الإليزابيثى المرسل من مرونة، وطبيعية، وتنوع لا آخر له. وياله من جهد عبقرى ذلك الذى اقتضاه رفع هذا الشكل الضيق من تماثله الممل، بقوة الأسلوب وجماله! أن راسين وكورنى ينبغى ألا يقرءا، بل يجب أن يسمعا، وحبذا أن يكون ذلك ليلا فى فناء الأنفاليد أو اللوفر.

والمفاضلة بين راسين وكورنى هواية قديمة لدى الفرنسيين. أما مدام دسفينييه، فأنها بعد أن شهدت «بايزيد» وقبل أن تمثل — إفجينى

أو فيدر — انحازت إلى كورنى بحماستها المألوفة . وقد تنبأت فى تهور ، ولكن ربما بحق ، بأن :

«راسين لن يستطيع أبدا أن يتجاوز .. أندروماك ... فتمثيلياته مكتوبة للانسة شانمسليه . . وسوف يتضح حين يكبر ، ويكف عن الحب ، هل اخطأت الحكم أم أصبت . إذن فليعش صديقنا كورنى طويلا ، ولنغتفر له الأبيات الرديئة التى نصادفها فى شعره من أجل تلك الفقرات الإلهية التى كثيراً ماننتشى بها » . . .

وهذا على العموم رأى كل ذى ذوق سليم[٣١] . ولكن فولتير الذى اضطلع بنشر أعمال كورنى والتعليق عليها ، صدم الأكاديمة الفرنسية بنقده لأخطاء المسرحى الكبير وفجاجاته ولغته الطنانة . كتب يقول « أعترف أنى بنشرى كورنى أصبحت من عباد راسين[٣٢] » وقد أقر الزمن بهذه الأخطاء ، واغتفرها لرجل لم يحظ بما حظى به راسين من ميزة المجىء بعد كورنى . فالارتفاع بالدراما الفرنسية من مستواها السابق إلى مكانة «السيد» « وبوليوكت » كان إنجازاً أشق من بلوغ النشوات المشبوبة والجمال المنغوم الذى نجده فى « أندروماك » « وفيدر . إن كورنى وراسين هما الموضوعان الذكر والأنثى فى شعر القرن العظيم ـ التعبير القوى عن الشرف والحب . . وعلينا أن نأخذهما معاً إن أردنا أن نحس باتساع الدراما الكلاسيكية الفرنسية وقوتها ، تماماً كما يجب ان نأخذ ميكلانجلو ورفائيل معاً إن اردنا ان نحكم على النهضة الإيطالية ؛ او بيتهوفن وموتسارت إن اردنا ان نفهم الموسيقى الألمانية فى ختام القرن الثامن عشر .

قال ديفدهيوم ، وكان اسكتلنديا حكيما ، ضليعاً فى لغة الفرنسيين وآدابهم ، « فى المسرح تفوق الفرنسيون حتى على اليونان ، الذين تفوقوا كثيراً على الإنجليز[٣٣] » وذلك حكم كان خليقا بأن يدهش راسين ذاته ، الذى عبد سوفوكليس باعتباره الكمال مجسماً ، وان جرؤ على منافسة

يوربيديس . وفى هذا نجح ، وهو مايستحق عليه الثناء حقاً . فلقد احتفظ بالدراما الحديثة على مستوى لم يبلغه سوى شيكسبير وكورنى ، ولم يدن منه إنسان بعد ذلك سوى جوته .

٤ - لافونتين : ١٦٢١ - ١٦٩٥

فى ذلك العصر ، عصر الخصومات الأدبية الصارخة ، يطيب للمرء أن يسمع بتلك الصداقة المشهورة ، نصف الأسطورية ، بين بوالو ، وموليير ، وراسين ، ولافونتين — « شلة » الأصدقاء الأربعة .

أما جان دلافونتين فكان العضو المغمور بين الجماعة . ولد كأصحابه لأسرة متوسطة ؛ ولا غرو فالأستقراطية فى شغل بفن الحياة عن الفن . وكان مسقط رأسه شاتو — تييرى فى شمبانيا ، وأبوه المدير المحلى للمياه والغابات ، لذلك شب جزءاً حساساً من الطبيعة المحيطة به ، وعشق الحقول ، والغابات ، والأشجار ، والأنهار ، وكل ساكنيها ، وتعلم عادات العشرات من أنواع الحيوان ، وتكهن فى تعاطف بغاياتها ، وهمومها ، وأفكارها ، فكان كل ما عليه أن يفعله وهو يكتب أن يجرى الكلام على السنة هؤلاء الفلاسفة متعددى الأرجل ، وأصبح « إيزوبا » آخر مذاباً بقصصه الخرافية فى ذاكرة الملايين .

وكانت نية ابويه أن يعداه للكهانة ، ولكن لم يكن به ميل للخوارق . وحاول ان يمارس القانون ، ولكنه وجد الشعر أيسر فهما . وتزوج فتاة غنية (١٦٤٧) وانجب منها ولدا . ثم اتفق مع زوجته على الانفصال (١٦٥٨) وذهب الى باريس ، وأبهج فوكيه ، وتلقى من ذلك المختلس اللطيف معاشا قدره ألف جنيه ، شريطة ان يتحفه بأشعاره اربع دفعات فى السنة . فلما سقط فوكيه وجه لافونتين الى الملك التماسا شجاعا يرجوه فية الصفح عن رجل المال . وكانت النتيجة انه لم يصطل قط بعدها فى شمس الملك . فلما جرد من

معاشه ولم يكن لديه اى فكرة عن كسب قوته ، آوته واطعمته الدوقة دبويون التى التقينا بها من قبل فى صفوف الفروندبات . واصدر وهو مستظل بجناحها (١٦٦٤) أول كتاب فى « حكاياته » وهو مجموعه من الأقاصيص الشعرية ، مكشوفة على الطريقة البوكاشية ، ولكنها مروية فى بساطة ساحرة مالبثت ان جعلت نصف فرنسا ، حتى العذارى الخجولات ، يقرأنهـــا (*) .

وبعد قليل أسكنته مارجريت اللورينية ، دوقة أورليان الارملة ، قصر اللكسمبورج بوصفه وصيفا لها . وهناك كتب مزيدا من حكاياته ، ومن هناك دفع الى المطبعة بالكتب السته الاولى من قصصه الخرافية (١٦٦٨) . وقد زعم انها صياغة جديدة لخرافات إيزوب اوفيدروس ، وكذلك كان بعضها ، وبعضها اخذ عن قصص الهند الاسطورية Bidpai وبعضها من خرافات فرنسا ، ولكن اكثرها خلق من جديد فى ذلك الغدير الذى يتدفق فى ذهن لافونتين وشعره . وكانت اول قصة خرافية تلخيصا غير مقصود لحياته الخلية الطروب :

« بعد أن أنفقت الجرادة الصيف كله غناء ، ألفت نفسها حين أقبل الشتاء مملقة لاتملك ذبابه ضئيلة ولادودة حقيرة ، فمضت تشكو جوعها لجارتها النملة وتسألها ان تقرضها شيئامن الحب تقتات به حتى يقبل الموسم الجديد . وقالت « سأرد لك دينى قبل الحصاد ، واقسم على ذلك بدين الحيوان ومصلحته ومبدئه . اما النملة فلم تكن ممن يقرضون ، وهذا اقل عيوبها . لذلك قالت للسائلة «أوماذا كنت تفعلين فى الصيف ؟ »

(*) خذ مثلا قصة « صانع الآذان » . فالسير وليم يذهب لقضاء مصلحة فى المدينة ويترك زوجته أليكس حبلى . وينذرها قريبها أندريه بأنه يستنتج من لون وجهها أن طفلها سيولد ناقصاً أذنا . ويعرض عليها أن يكون جراحاً لها ، ويفهمها أن نوبة غرام كفيلة بتزويد الطفل بالأذن الناقصة . وتقبل الوصفة ، وتتناول منها عدة جرعات ، حتى ليخطر لها أن الطفل سيكون له من الآذان أكثر من اثنتين . فاذاعاد وليم صحح التوازن الأخلاقى باغوائه زوجة أندريه (٣٤) .

« كنت أغنى ليل نهار لكل وافد ، فلا يسؤك هذا » . « كنت تغنين : يسعدنى أن أسمع هذا . عليك اذن أن ترقصى الآن » .

كان لافونتين أحكم من ديكارت ، الذى ظن أن كل الحيوانات كائنات آلية لا تفكر ، فقد أحبها الشاعر ، وأحس بتفكيرها ، ووجد فيها كلها دروس الفلسفة العملية . وافتتنت فرنسا بتلقى الحكمة فى جرعات سهلة الهضم كهذه . وأصبح كاتب هذه الخرافات اكثر المؤلفين قراء فى بلاده . واتفق النقاد مرة فى حياتهم مع الشعب ، وأثنوا عليه فيمن أثنوا ، ذلك أنه برغم بساطته الخالصة كان عليما بالفرنسية فى لونها الريفى ورائحتها الترابية ، وقد خلع على شعره من الرشاقة الطيعة ، وطرق التعبير الحلوة ، والصورة الحية المحكمة ، ماجعل كل البورجوازيين مدعى النبل فى فرنسا يغتبطون لأن حيواناتهم ، بل حشراتهم ، تنطق بالشعر طوال الوقت . قال فونتين « إنى استخدم الحيوانات لتعليم الناس(٣٥) » .

وفى ١٦٧٣ ماتت مرجريت اللورينية وألفى الشاعر نفسه غارقا فى الديون ، وهو الذى كان يغنى فى غير تدبر للمستقبل ، ولم يحسن التصرف فى الأجور المتواضعة التى أتت بها كتبه . على أنه كان اكثر حظا من جرادته ، لأن مدام دلاسابليير ، المرأة المثقفة العطوف ، آوته وأطعمته ورعته بحدب الأم الرءوم فى بيتها بشارع سانت - أونورية ، وهناك عاش فى قناعة هادئة الى أن ماتت فى ١٦٩٣ . يقول إن وقته كان قسمة بين شطرين : اولهما ينام فيه ، والاخر لا يعمل فيه شيئا . ووصفه لابرويير بأنه رجل يستطيع أن ينطق الحيوان والهجر والحجر بكلام رشيق أنيق ، ولكنه (٣٦) هو نفسه كان « متبلدا ، ثقيلا » ، غبيا فى الحديث(٣٧) . على أن هناك روايات مناقضة زعمت أن فى وسعه أن يكون محدثا مرحا إذا وجد آذانا تلائم مزاجه(٣٨) . وقد أذاعت شرود ذهه عشرات النوادر ، الأسطورية الى حد كبير . من ذلك أنه قال مرة معتذرا عن وصوله الى العشاء متأخرا « عدت لتوى من جنازة

نملة ، وقد سرت وراء الموكب حتى المقبرة ، ثم رافقت الأسرة في رجوعها للبيت . (٣٩)»

وقد قاوم لويس الرابع عشر انتخابه عضوا في الأكاديمية بحجة أن حياة الشاعر وحكاياته لم تكن بالمثل الذي يحتذى ، ثم لانت قناته في النهاية (١٦٨٤)، وقال ان لافونتين وعد بأن يصلح من سلوكه . ولكن الشاعر الهرم لم يعرف فرقا بين الفضيلة والخطيئة ، انما عرف الفرق بين الطبيعي وغير الطبيعي ، فقد تعلم أخلاقياته في الغابات . وكان كموليير لا يشعر بأي انجذاب للبور — رويال ، هؤلاء « المجادلون البارعون » كما وصفهم ، الذين « تبدو لي دروسهم باعثة على الغم بعض الشيء (٤٠)» وانضم حينا إلى « شلة » أحرار الفكر في « التامبل » ، ولكن حين أصيب بنقطة كادت توقعه على الطريق ، لاح له أن قد آن الأوان ليصلح ما بينه وبين الكنيسة ، ومع ذلك فقد تساءل « أكان القديس أوغسطين حكيما حكمة رابليه (٤١) ؟ » ومات في ١٦٩٥ وقد بلغ الرابعة والسبعين . وكانت ممرضته على ثقة من خلاصه الأبدي ، لأنه على حد قولها « كان فيه من البساطة ما يجعل الله يتردد في الحكم عليه بالهلاك (٤٢) » .

٥ — بوالو : ١٦٣٦ - ١٧١١

في اللقاءات التي جمعت الأصدقاء الأربعة في شارع فيو كولومبييه كان نيقولا بوالو المسيطر عادة على الحديث ، وهو الذي وضع قواعد الأدب والأخلاق بكل سلطان الدكتور جونسون وثقته في حانة « رأس التركي » بحي سوهو . وكان كجونسون محدثا أهم منه مؤلفا ؛ وخير أعماله شعر وسط ، ولكن أحكامه كان لها في ميدان الأدب أثر أبقى مما كان لأحكام لويس الرابع عشر في السياسة . وقد أعانت صداقته وتقريظه الناقد لموليير وراسين على التغلب على مكائد الجماعات المعادية لهما .

كان الطفل الرابع عشر لكاتب فى برلمان باريس . وإذ كان منذور للكهانة فقد درس اللاهوت فى السوربون . ولكنه تمرد ، ودرس القانون وكان على وشك الاشتغال بالمحاماة حين مات أبوه (١٦٥٧) ، مخلفا له ميراثا يكفيه وهو يقرض الشعر . وأنفق عشر سنين يشحذ قلمه ، ثم راح يصدر أحكامه على زملائه فى اثنتى عشرة اهجية (١٦٦٦ وما بعدها) . ذلك أن هذا الحشد الرهيب من النظامين الجياع(٤٣) روعه ، فهاجمه كأنه جيش من الجراد ، وسمى بعضهم بأسمائهم ، فخلق له أعداء بقوافيه . وجر على رأسه أيضا سخط النساء بسخريته من القصص الرومانسية التى كانت السيدتان سكوديرى ولافاييت تضيعان بها ورق فرنسا ووقتها . وقد امتدح القدامى ، وامتدح من بين المحدثين ماليرب وراكان ، وموليير وراسين . قال « أحسبه من حقنا ان نسمى الشعر الردىء رديئا دون أن نؤذى الضمير أو الدولة ، وأن يكون لنا مطلق الحق ان نستشعر الضجر من قراءة كتاب غبي(٤٤) » . على أن هذه الاهاجى تضجرنا هى الأخرى لأن هدفها قد تحقق : فالشعراء الذين أدانتهم هدموا هدما لم يبق على أثرلهم فى ذاكرتنا أو فى اهتمامنا ؛ يضاف الى هذا أن أصحاب العقول الغضة منا ، لاسيما اذا كنا مؤلفين ، يؤثرون النقاد الذين يرشدوننا الى الطيب على أولئك الذين يسخرون من الخبيث .

وبعد أن ذهب بوالو فى اهاجيه مذهب جوفينال الصارم ، خفف من غلوائه بالتزام مذهب هوراس الأكثر اعتدالا ، ووصل الى أسلوب ألين فى سلسلة من الرسائل (١٦٦٩ ــ ٩٥) . وهذه الرسائل الشعرية هى التى أغرت لويس بدعوته الى البلاط . وسأله الملك ما أفضل شعره فى ظنه . أما بوالو الذى كان يترقب فرصته الكبرى فلم يقرأ شيئا من شعره المنشور ، ولكنه تلا بعض شعره فى مدح الملك العظيم ، وكان أبياتا لم تطبع بعد قال عنها إنها أقل شعره رداءة . وأجازه لويس بمعاش قدره ألفان من الجنيهات(٤٥) ، وأصبح شخصا « مرضيا عنه » فى البلاط . قال لويس « أحب بوالو لأنه سوط تأديب ضرورى نصلته على ذوق كتاب الدرجة

الثانية السقيم (٤٦) » . وكما أن لويس ساند موليير فى حملته على المتعصبين ، كذلك لم يفه بأى احتجاج حين نشر بوالو ملحمة ساخرة سماها « لوتران » (١٦٧٤) ، هزأ فيها برجال الكنيسة الغافلين النهمين . وفى ١٦٧٧ عين الشاعر الهجاء مؤرخا رسميا مع راسين ، وفى ١٦٨٤ قبل نهائيا فى الأكاديمية بأمر صريح من الملك ، ورغم احتجاجات أولئك الذين سلخ جلودهم .

أما القصيدة التى طفت به فوق دوامات الزمن فهى « فن الشعر » (١٦٧٤) التى ضارعت فى تأثيرها النموذج الذى نسجت على منواله ، وهو كتاب هوراس Ars poetica ، ويستهل بوالو قصيدته بتنبيه شباب الشعراء الى أن « بارناس » جبل وعر ، فليستوثقوا اذن قبل أن يشرعوا فى ارتقاء جبل ربات الشعر والفن أن لديهم شيئا يستحق أن يقال ، شيئا يعزز الحقيقة ويعين على الادراك والذوق السليمين . وهو يقول لهم ناصحا : نوعوا حديثكم ، فان أسلوبا بالغ التكافؤ شديد التماثيل (كأسلوب بوالو) يحملنا على النوم ، و « حبذا الشاعر الذى ينتقل ، بلمسة رقيقة ، من الخطير الى الخفيف ، ومن السار الى العنيف (٤٧) » . « وأرهفوا آذانكم لايقاع ألفاظكم . واتبعوا قواعد ماليرب فى اللغة والأسلوب . وادرسوا القدامى لا المحدثين : هومر وفرجل فى شعر الملاحم ، وسوفوكليس فى المأساة ، وتيرانس فى الملهاة ، وهوراس فى الهجاء ، وتيوقريطس فى شعر الرعاة » . « اسرعوا فى بطء ، وضعوا انتاجكم على السندان عشرين مرة دون أن يفت ذلك فى عضدكم . . . وأضيفوا اليه قليلا ، واحذفوا منه (٤٨) كثيرا . أحبوا من ينتقدونكم ، وصححوا أخطاءكم دون تذمر وأنتم تنحنون لحكم العقل (٤٩) . واعملوا للمجد ، ولا تجعلوا الكسب الخسيس هدفا لجهدكم (٥٠) . فاذا كتبتم درامات فراعوا الوحدات ، واجعلوا الفعل الواحد ، المكتمل فى مكان واحد ويوم واحد ، يبقى المسرح ممتلئا بجمهوره الى النهاية (٥١) . ادرسوا البلاط وتعرفوا على المدينة ،

فكلاهما غنى بالنماذج ، ولعل هذا هو السر فى الفوز الذى حققه موليير لفنه (٥٢) » .

وانضم بوالو الى موليير فى السخرية من « المتحذلقات » واحتقر شعر الحب المتكلف الذى أضعف الشعر الفرنسى وقابل بين هذه العاطفية الكاذبة وبين تمجيد ديكارت للعقل وغرس الاداب القديمة لضبط المشاعر . وصاغ مبادىء الأسلوب الكلاسيكى ، وأجملها فى بيتين شهيرين «أحبوا العقل اذن ، ولتقبس كتاباتكم منه بهاءها وقيمتها (٥٣) » فلازيف فى العاطفة ، ولا انفعال ، ولا كلام طنان ، لاتحذلق ، لا تكلف ، ولاغموض التباهى والغرور . فالمثل الأعلى فى الأدب ، كما فى الحياة ، هوضبط رواقى للنفس و « لاتزيد أو افراط » .

وقد أحب بوالو موليير ، ولكنه أسف على هبوطه الى درك المسلاة « الفارص » . وأحب راسين ، ولكن يبدو أنه لم يفطن الى تمجيده الرومانسى للوجدان ، ولم يلحظ بطلاته المتفجرات بالانفعالات ـ هرميون ، وبرينيس ، وفيدر . والمقاتل لابد مبالغ فى نصيبه من الحقيقة . ولقد كان فى بوالو من قوة المحارب ما أعجزه عن فهم ما قاله بسكال من أن للقلب دواعيه التى لايفهمها الدماغ ، وأن الأدب بغير وجدان قد يكون له ملاسة الرخام وبرودته . لقد سمح هوراس بالوجدان فقال « إن أردتنى أن أبكى » أى أن أحس مما تكتب ، « فعليك أن تبكى أنت أولا » أى عليك أن تحس أنت بالأمر . ان فن العصور الوسطى وأدبها ظـلا محجوبين عن عين بوالو .

وكان اثر تعليمه هائلا . فقـد حاول الشعر والنثر الفرنسيان التزام قواعده الكلاسيكية طوال قرون ثلاثة . وشاركت هذه القواعد فى تشكيل أسلوب الأدب الانجليزى فى « العصر الأغسطى » الذى قلد شاعره بوب فى صراحة « فن الشعر » فى كتابه « مقال فى النقد » . وكان تأثير بوالو ضارا ونافعا . فهو باستنكارة الخيال والوجدان ، وضع صماما

على الشعر فى فرنسا بعد راسين ، وفى انجلترة بعد درايدن . واتخذ الشعر فى أفضل نماذجه شكل النحت بالازميل ، ولكنه فقد دفء التصوير ولونه .
ومع ذلك كان من الخير أن يدخل هدف العقل الى ساحة الأدب المحض ، فقد كتب الكثير جدا من اللغو عن الحب والرعاة ، واحتاجت أوربا الى احتقار بوالو الغاضب حتى تطهر ذلك الجو الأدبى ، جو السخف والتكلف والعاطفة السطحية . وربما كان الفضل لبوالو فى ارتفاع موليير من « الفارس » الى الفلسفة ، وفى محاولة راسين البلوغ بفنه الى مرتبة الكمال .

وكان مما يتلاءم وطبيعة بوالو تماما مسلكه بعد أن اشترى بيتا وحديقة فى أتوى نفضل نفحة من نفحات الملك (١٦٨٧) ، فهو لم يذكر شيئا فى كتاباته عن الطبيعة المحيطة به اللهم الا أنه من تلك الحقول اتخذ الآن اسم « دسبريو » . هناك عاش أكثر ما بقى له من أجل فى هدوء بسيط ، لا يزور البلاط إطلاقا ، ويرحب ترحيبا حارا بأصدقائه . وقد لاحظ الناس ان « له أصدقاء كثيرين رغم أنه تكلم بسوء عن كل انسان(٥٤) » . وكان فيه من الشجاعة ما حمله على الإعراب عن عطفه على البور رويال ، وعلى أن يخبر يسوعيا بأن رسائل بسكال الاقليمية احدى روائع النثر الفرنسى . وقد عمر بعد موت جميع أفرد الجماعة التى كان منظرها المرموق : فموليير لقى ربه منذ أمد بعيد ، ثم لحق به لافونتيين فى ١٦٩٣ ، ثم راسين فى ١٦٩٩ ، وتحدث الهجاء العجوز العليل بتأثر عن « الأعزاء الذين فقدناهم ، والذين اختفوا كأنهم حلم انسان استيقظ من نومه (٥٥) » وحين دنت منيته غادر أوتوى وذهب ليموت (١٧١١) فى مسكن كاهن اعترافه بصومعة النوتردام ، مؤملا ألا يجرؤ الشيطان على أن يمسه بسوء هناك .

٦ - الاحتجاج الرومانسي

لم تقبل سيدات المجتمع على القواعد الكلاسيكية — قواعد العقل ، والاعتدال ، وضبط النفس — إقبال كورنى العجوز وراسين الشاب . ذلك أن عالمهن كان عالم الوجدان والرومانس ، وقد حفزت « زيجات المصلحة » التى كن يعقدنها أوهام الغرام أكثر مما صدتها . ومن ثم نرى الرواية الرومانسية تنمو — جنبا إلى جنب مع الدراما الكلاسيكية — حتى تتضخم حجما وتلقى استحساناً واسعاً وتؤثر تأثيراً دولياً . ولم تكن سيدات المجتمع فى فرنسا ليشبعن من مثل هذه الروايات ، ولا كن يجدنها مفرطة فى الطول ، وآية ذلك أنه حين توقف « جوتييه دلا كالبرونيد » عن المضى فى روايته « كليوبطرة » بعد أن كتب فيها عشرة أجزاء (١٦٥٦) ، رفضت خطيبته أن تتزوجه إلا إذا ختمها بجزأين آخرين (٥٦) .

وقد استرقت الآنسة مادلين دسكوديرى قلوب نصف فرنسا بروايتها « آرتامين أو كورش الكبير » (١٦٤٩ - ٥٣) ، و « كليلى » (١٦٥٤ - ٦٠) وكلتاهما فى عشرة مجلدات . وأشبع غرور المجتمع الفرنسى أن يجد الشخوص فى هذا الإنتاج الرومانسى الغزير ، تحت أسماء مستعارة ، تصف أعلام العصر وأقطابه المشهورين وتميط اللثام عنهم . وما لبثت سيدات الصالونات وسادته أن أطلقوا على أنفسهم أسماء من هذه الروايات ، وتعلموا فنون التنهد والإنكار شأن أبطالهم وبطلاتهم ، وأصبحت الآنسة دسكوديرى نفسها تسمى « سافو » ، وكذلك كانت تنادى فى الصالونات إلى نهاية عمرها الذى بلغ أربعة وتسعين عاماً . وقد كتبت لتسر أخاها جورج ، ونشرت كتبها تحت اسمه ، وآثرت أن ترعاه على أن تتزوج . وظل سلطانها على النساء المثقفات والرجال المعطرين إلى أن غيرت مسرحيتا موليير « المتحذلقات المضحكات » و « النساء العالمات » من اتجاه الأذواق الأدبية ، وهنا حبست مادلين فى شجاعة آخر مجلد من مجلداتها التسعين عن النشر . والذين يشكون

القراغ قد يجدون إلى اليوم فى صفحات « كورش الكبير » الخمس عشرة ألف ، أو صفحات « كليلى » ، العشرة الآلاف ، فقرات تتميز برقة العاطفة ، أو تنفرد بتحليل الخلق . كذلك تستحق لا سكوديرى أن تتذكرها لما قامت به من جهد فى سبيل النهوض بتعليم النساء فى فرنسا .

وأما « مارى مادلين بيوش دلافيرن » ، التى أصبح اسمها بعد الزواج الكونتيسة لافاييت ، فهى شخصية أكثر فتنة ، لأنها لم تكتب قصة رومانسية شهيرة فحسب ، بل عاشت أيضاً قصة أشهر . وقد أتيح لها تعليم مكتمل على غير العادة ، ثم ذهبت لتعيش فى أوفرن بعد زواجها (١٦٥٥) . ولكنها حين وجدت الحياة هناك مملة اتفقت مع زوجها على الانفصال (١٦٥٩) ، وذهبت إلى باريس ، وانضمت إلى الجماعة التى تلتقى فى قصر رامبوييه . ثم أصبحت وصيفة الشرف لمدام هنرييتا ، وخلدتها بعد حين فى مذكرات تفيض محبة . وكانت قريبة وصديقة لمدام دسفينييه التى كتبت تقول فيها بعد عشرة أربعين عاماً « لم تحجب سماء صداقتنا أقل سحابة ، ولا أبلى طول الألفة من فضائلها فى نظرى ، فقد كان شذاها على الدوام نضراً جديداً(٥٧) » . وتلك تحية للطرفين قل أن تجد لها نظيراً ، لأن الصداقات تبلى كالحب الرومانسى . وسنلتقى بمزيج نادر من الحب والصداقة فى علاقات مدام دلافاييت بلاروشفوكو .

وقد وقعت على الجديد الثورى حين قررت أن تبارز بقلمها الآنسة دسكوديرى . ذلك أنها كتبت رواية فى مجلد واحد لا يزيد طولها على مائتى صفحة . واعتنقت مبدأ مؤداه أنه إذا تساوت كل الاعتبارات الأخرى فإن خير الكتب ما حذف أكثر ما فى نصه الأصلى ، فكل جملة تحذف تضيف جنيها ذهبياً لقيمة الكتاب ، وكل كلمة تحذف تضيف عشرين فلساً . وبعد أن نشرت أعمالا صغيرة ألفت (١٦٧٢) ونشرت (١٦٧٨) رائعتها المسماه « أميرة كليف » . وحبكة الرواية (إن شئنا أن نخلط بين الاستمارات) هى.

مثلث ذو مماس . فالآنسة شارتر فتاة بارعة الجمال ولكن فى تواضع يجمل من أمير كليف عبداً لها لأول نظرة . وتتزوجه عملا بنصيحة أمها ، ولكنها لا تشعر نحوه شعوراً أحر من الاحترام . وما يلبث دوق نيمور أن يراها فيهيم بها لتوه ، وتصده هى فى إحساس بالفضيلة ، ولكن الحاحه المحموم يمس قلبها ، وشيئاً فشيئاً تتحول الشفقة فيها حباً . وتعترف بهذا التطور لزوجها ، وتتوسل إليه أن يبعدها عن القصر وعن التجربة ، ولكنه لا يستطيع أن يصدق أنها وفية له ، فيخترمه الهم حتى يقتله ، وكأن قرنيه الوهميين خرقا حلقه . أما الأميرة فتصد الدوق وضميرها يبكتها على موت الأمير ، وتكرس ما بقى لها من عمر لأعمال البر . وقد علق « بيل » الشكاك على القصة بقوله : لو أن امرأة بهذا الطهر والوفاء وجدت فى فرنسا لمشى ألفا ومائتى ميل ليراها (٥٨) .

ونشر الكتاب غفلا من اسم المؤلفة ، ولكن سرعان ما استقر رأى الأوساط الأدبية على أنه إحدى ثمرات علاقة حميمه مشهورة آنذاك . قالت الآنسة سكوديرى : (لقد كتب مسيو دلاروشفوكو ومدام دلافاييت رواية ... قيل لى أنها كتبت على نحو يثير الأعجاب(٥٩)) ، ولكنها أضافت « أنهما لم يعودا فى سن تسمح لهما بالاشتراك معاً فى أى عمل غير هذا (٦٠)) . ولكن كلا المؤلفين المزعومين أنكر تأليف الزواية . وكتبت لاسكوديرى تقول « إن الأميرة كليف أرملة مسكينة تبرأ منها أبوها وأمها » . أيا كان الأمر ، فقد أجمع الكل على انها أروع رواية كتبت فى فرنسا إلى ذلك الحين . واعترف فونتنيل بأنه قرأها اربع مرات ، وكان رأى بوالو ، عدو الرومانس ، فى مدام دلافاييت انها « ابدع عقل وافضل كاتبة بين نساء فرنسا » . ويقر التاريخ لأميرة كليف بأنها من اول الزوايات السيكولوجية وما زالت من أفضلها . وهى الرواية الفرنسية الوحيدة من روايات ذلك العصر التى ما زال فى الإمكان قراءتها دون ما ألم .

٧ - مدام دسفينييـــه

١٦٢٦ — ٩٦

ولكن بقى من آثار ذلك العصر عشرة مجلدات — من تأليف امرأة أيضا — فى الامكان قراءتها فى بهجة مستسلمة حتى فى نبض زماننا السريع . والمؤلفة ، وهى مارى درابوتان — شانتال،فقدت أبويها فى طفولتها وورثت ثروتهما الكبيرة . وقد شارك فى تعليمها نفر من خيرة العقول فى فرنسا ، ونشأتها خيرة الأسر فى فرنسا على فنون الحياة . فلما بلغت الثامنة عشرة تزوجت هنرى ، مركيز دسفينييه ، ولكن هذا الزير كان يحب مالها أكثر من شخصها، وبدد بعضه على خليلاته ، وبارز خصما بسبب إحداهن ،وقتل فى المبارزة (١٦٥١) . وحاولت مارى أن تنساه ، ولكنها لم تتزوج بعده ، بل فرغت لتربية ابنها وابنتها . ولعلها كما ألمح ابن عمها الحقود بوسى — رابوتان كانت «ذات مزاج بارد» (٦١) أو لعلها تعلمت أن الجنس يستنزف الذات أما الامومة فتحققها . وخطاباتها تفيض سعادة ،كلها تقريبا سعادة الامومة.

ولقد أحبت المجتمع بقدر ماتشككت فى الزواج . وكان لها ، وهى الارملة الشابة التى تملك ثروة بلغت ٣٥٠،٠٠٠ جنيه (٦٢) ، خطاب كثيرون من النبلاء - تورين ، وروهان، وبوسى... ولم ترمعنى لطردهم جميعا الا واحدا، ومع ذلك لم تلوث سمعتها كلمة فضيحة أو علاقة محرمة واحدة . وكان اصدقاؤها يحبونها باخلاص أكثر صدقا — ومنهم دريتز ، ولا روشفوكو ، ومدام دلافاييت ، وفوكيه . أما الأول والثانى فقد أقصيا عن القصر لاشتراكهما فى حرب الفروند ، واما الأخير فالمثروة التى لم يستطع تحليلها ، ولم تلق مدام دسفينييه ، الوفية وفاء حارا للاربعة على السواء ، ترحيبا فى الرحاب الملكية المقدسة وإن نالت كلمات متفضلة من الملك فى حفلة مثلت فيها مسرحية إستير بسان - سير . اما فى خارج البلاط فكانت دوائر كثيرة

تبتهج بصحبتها ، لأنها كانت تملك كل مفاتن المرأة المثقفة ، كانت تتكلم بنفس الحيوية التي تكتب بها ، وذلك اطراء يناقض إطراء ألفناه أكثر منه ، فطالما يسدي الينا النصح ، ربما في غير تبصر ، بأن نكتب كما نتكلم .

وقد بقي من رسائلها أكثر من الف وخمسمائة ، وجلها موجه لابنتها ، فرنسواز مارجريت . التي تزوجت السكونت دجرينيان (١٦٦٩) ، وسرعان مارحلت الى بروفانس لتعيش معه ، وكان نائبا لحا كمها . فظلت الأم من ١٦٧١ الى ١٦٩٠ تبعث بخطاب مع كل بريد تقريبا — وأحيانا مرتين في اليوم — الى هذه الزوجة الشابة التي فصلتها عنها ارض فرنسا كلها طولا . كتبت تقول لها « ان مراسلتي لك هي عافيتي ، ولذة حياتي الوحيدة ، وكل اعتبار آخر يتضاءل بالقياس الى هذا (٦٣) » . ذلك أن الحب الذي لم يجد رجلا يشبعه أصبح غراما مشبوبا بابنة أحست أنها غير جديرة به ، لأن فرنسواز كانت ذات خلق اكثر تحفظا ، ولم تعرف كيف تعرب عن مشاعرها بحرارة . ثم كان لها زوج وأطفال يتطلبون العناية بهم ، وكانت أحيانا تصبح ضيقة الخلق أو مكتئبة المزاج ، و مع ذلك ظلت طوال خمس وعشرين سنة ، إلا في فترات مرضها ، تكتب لأمها مرتين في الأسبوع ، لايفوتها بريد الا نادرا ، حتى لقد أقلق لأم المتيمة بها ان تكون قد جارت على وقت ابنتها .

وأبلغ مافي هذه الرسائل تأثيراً في النفس ما روى حياة طفلة مدام جرينيان البكر ونهاية هذه الحياة في الدير . ذلك أنها قدمت باريس لتلد في كنف أمها . وما لبثت أن أرسلت الى زوجها اعتذارا لأنها ولدت بنتا — لابد من تربيتها بجهد أليم ، ومهرها بمهر غال ، ثم فقدها ، ولما عادت فرنسواز الى بروفانس تركت ماري بلانش الصغيرة حينا مع جدتها التي افتتنت بها . وكتبت مدام دسفنييه للأب تقول « ان كنت تريد ولداً فاعكف على صنعه (٦٤) » كتبت للوالدين اللذين لم يقدرا طفلتهما تفاصيل نشوانة عن العجيبة التي أنجباها كارهين :

« ان ابنتكما الصغيرة تغدو محببة للنفس . . . بيضاء كالثلج ، ضاحكة على الدوام . . . ولون بشرتها ، وعنقها ، وجسدها الصغير ـ كلها عجيب . وهى تقوم بعشرات الحركات الصغيرة ـ تثرثر ، وتلاطف ، وتضرب ، وترسم علامة الصليب ، وتطلب العفو ، وتنحنى ، وتقبل يدها ، وتهز كتفيها ، وترقص ، وتتملق ، وتشد الأذن ... وأنا ألهو معها ساعات بطولها(٦٥) » .

وقد ذرفت الجدة دموعا كثيرة لتدع هذه العجيبة الريانة البدن تذهب الى بروفانس ، ودموعا أكثر حين أودعها الأبوان ديرا وهى لم تتجاوز الخامسة . ولم تعد الطفلة بعدها ، ففى الخامسة عشرة قطعت على نفسها عهد الرهبنة واختفت من العالم .

وكان نائب الحاكم رجلا متلافا ، يولم الولائم فوق ما يسمح به مركزه . وكانت زوجته تنبىء أمها بانتظام بما تتوقعه من قرب إفلاسهما ، أما الأم فكانت توبخهما فى محبة وترسل لهما المبالغ الكبيرة من المال « كيف ، بحق محبة الله والناس ، يستطيع انسان أن يحتفظ بهذا القدر الكبير من الذهب والفضة والحلى والأثاث وسط الفقر المدقع الذى ابتلى به من يحيط بنا من الفقراء فى هذه الأيام(٦٦) » . ورغبة فى الاحتفاظ بقدرتها المالية بعد هذه الاستقطاعات ، كانت مدام دسفينييه تعنى بتفقد أملاكها فى لى روشيه باقليم بريتنى لتستوثق من أنها تلقى الرعاية الواجبة ، ومن أن ريعها يصلها بعد اختلاسات معقولة . ووجدت سعادة جديدة فى الحقول ، والغابات ، وفلاحى بريتنى ، وكتبت عنهم بنفس الحيوية التى كتبت بها عن المجتمع الباريسى الذى كانت له أشبه برسالة نصف أسبوعية لابنتها .

وكان ابنها مشكلة من نوع آخر . فهى شديدة التعلق به لأنه فتى طيب ، يملك كما قالت « معينا من الذكاء وروح الفكاهة . . . وقد ألف أن يقرأ علينا فصولا من رابليه يكاد يموت السامع من الضحك عليها » (٦٧) . وكان شارل ابنا مثاليا ، الا اذا استثنينا ترسمه خطى أبيه فى التنقل من اغراء إلى إغراء ، الى أن — ولكن لندع مدام دسفينييه ، وهى تكتب

لابنتها ، تتحمل تبعة باقى القصة ، فلا شىء أكثر ايضاحا لطابع العصر :

« بقيت كلمة أو كلمتان عن شقيقك . . . فبالأمس أراد أن يقص على نبأ حادث مروع وقع له . ذلك أنه صادف لحظة سعيدة ، ولكن حين وصل إلى بيت القصيد — كان شيئا عجيبا ! فإن الفتاة المسكينة لم يرفه عنها أحد فى حياتها قط بمثل هذا أما الفارس فقد تقهقر بعد أن هزم شر هزيمة ، وظن أن سحرا التى عليه ، وألطف مافى القصة أنه لم يشعر بالراحة إلا بعد ان انبأنى بكارثته . وضحكنا عليه حتى استلقينا ، وقلت له انى مغتبطة جداً لأنه عوقب حيث أثم . . . . . لقد كان منظرا يستحق أن يسجله موليير (٦٨) » .

وأصيب الفتى بالزهرى ، فعنفته ؛ ولكنها مرضته فى حب . وحاولت أن تبث فيه شيئا من الدين ، ولكن نصيبها من الدين كان من الضآلة بحيث لم تستطع أن تعطيه الكثير منه . وقد تأثرت بمواعظ بوردالو ، وخبرت دفقات فجائية من التقوى ، ولكنها كانت تبتسم حين ترى المواكب الدينية التى أبهجت أهل المساكن الفقيرة . وقرأت آرنو ، ونيكول ، وبسكال ، وتعاطفت مع البور — رويال ، ولكن صدها تركيزهم على تجنب الهلاك الأبدى ، ذلك أنها لم تستطع أن تقنع نفسها بالإيمان بالجحيم (٦٠) . وكانت على العموم تجفل من التفكير الجاد ، فمثل هذه الأمور ليست للنساء ، ومن شأنها أن تعكر جمال الحياة الوادعة . ومع ذلك كانت ذواقة فى قراءاتها — تقرأ فيرجل وتاسيتوس والقديس أوغسطين باللاتينية ، ومونتينى بالفرنسية ، وتعرف مسرحيات كورنى وراسين معرفة وثيقة . أما فكاهتها فكانت أعمق وأبهج من فكاهة موليير . فلنستمع إليها تتحدث عن صديق مدمن للتأمل الشارد :

« انقلب برانكا قبل أيام فى مصرف وجد نفسه فيه مرتاحا جداً حتى لقد سأل من سارعوا ليخرجوه منه أبهم حاجة إلى خدماته . وقد كسرت نظارته ، ولولا أن حظه كان خيراً من حكمته لكسر رأسه أيضا ، ولكن هذا كله لم يقطع تأملاته قط . وقد أرسلت له كلمة هذا الصباح ... أنبئه

فيها أنه انقلب وكاد عنقه يدق ، لأنى اعتقدت أنه الشخص الوحيد الذى لم يسمع بالحادث فى باريس(٧٠) » .

وهذه الرسائل فى مجموعها تؤلف صورة من أكثر الصور كشفا فى الأدب ، لأن المركيزة تسجل فيها أخطاءها وفضائلها دون تحفظ . فهى الأم المحبة ، التى تجد نفسها على سجيتها سواء فى صالونات العاصمة أو فى حقول بريتنى ، وهى تكتب لابنتها عن أتفه أحاديث الاستقراطية وقيلها وقالها ، ولكنها تقول ايضا « إن البلبل ، والوقواق ، والهزار — كلها بدأت تصدح فى ربيع الغابات » ، وندر أن تفوه بكلمة سوء عن مئات الأشخاص الذين يرفون خلال صفحاتها الألفين ، وهى على الدوام مستعدة لمديد المعونة للمكروبين ، مجملة حديثها بالرقيق من التحية والمجاملة ، مذبذبة بين الحين والحين بالمرح القاسى (كضحكها على شنق بعض المتمردين المساكين فى برتنى) ، ولكنها مرهفة الاحساس بالآم الفقراء ، وهى تغضى عن فساد زمانها وطبقتها ، ولكنها بلا لوم فى سيرتها الشخصية ؛ إنها روح تفيض بالنية الطيبة وحب الحياة ، فيها من التواضع ما يمنعها من نشر كتاب ، ولكنها تكتب أفضل فرنسية فى عصر أفضل فرنسية كتبت على الإطلاق .

ترى هل خطر ببالها أن رسائلها قد تنشر يوما ما ؟ كانت أحيانا تسترسل فى تحليقات من البلاغة كأنها تشم مداد المطابع ، غير أن رسائلها حافلة بتفاصيل العمل ، وبالمصارحات العاطفية ، والمكاشفات المحرجة التى لا يمكن أن تكون قصدت إذاعتها على القراء . كانت تعلم أن ابنتها تطلع أصدقاءها على رسائلها ، ولكن مثل هذه المشاركة كانت كثيرة فى تلك الأيام ، حين كادت المراسلة أن تكون وسيلة الاتصال الوحيدة بين المسافات الطويلة ، وقد ورثت وحفظت الرسائل حفيدتها بولين ، التى منعتها من أن تدخل ديرا كما فعلت شقيقتها بلانش مارى ، ولكنها لم تنشر إلا عام ١٧٢٦ ، بعد موت المركيزة بثلاثين عاما . وهى اليوم من أغلى عيون الأدب الفرنسى ، وكأنها باقة زهر غنية يزداد عبيرها انتشارا على الأيام .

وازداد تفكيرها فى الدين كلما دنت نهايتها ، وقد اعترفت بخوفها من الموت والحساب . وبين ضباب بريتنى ومطر باريس أصابها الروماتزم ، ففقدت فرحتها بالحياة ، وأدركت أنها بشر فان .

« لقد ولجت الحياة دون رضاى ، ويجب أن أخرج منها ؛ هذه الفكرة تطغى على . . وكيف أخرج ؟ . . . ومتى ؟ . . اننى أدفن نفسى فى هذه الأفكار ، وأجد الموت شديد الرهبة حتى لابغض الحياة لأنها تفضى بى إلى الموت أكثر من بغضى لها لما يملؤها من أشواك . ستقولين اننى أريد أن أحيا إلى الابد . ليس الأمر كذلك مطلقا ، ولكن لو أخذ رأيى لآثرت أن أموت بين ذراعى مربيتى ، فقد كان هذا خليقا بأن يوفر على اضطرابات الروح ويكفل لى الجنة فى كل يقين ويسر(٧١) » .

وليس صحيحا أنها ابغضت الحياة لأنها تفضى إلى الموت ، إنما هى أبغضت الموت لأنها استمتعت بالحياة استمتاعا شديداً قرابة سبعين عاما . وإذ كانت أمنيتها أن تموت فى بيت ابنتها الحبيبة ، فإنها عبرت فرنسا خلال أربعمائة ميل فى رحلة عذاب إلى شاتو جرينيان . فلما أقبل الموت لقيته بشجاعة أدهشتها ، ووجدت العزاء فى تناول الاسرار المقدسة ، وعللت نفسها بالخلود . ولقد وهب لها الخلود حقا .

٨ ـ لاروشفوكو : ١٦١٣ ـ ٨٠

شتان ما بين هذا الروح ، وروح أشهر الكلبيين المحدثين ، وأقسى من مزق القناع عن نقائصنا ، ذلك العليل المكتئب الذى شوه سمعة النساء وافترى على الحب ، والذى أحبته ثلاث نساء حتى الموت .

كان النبيل السادس المسمى فرانسوا دلاروشفوكو ، سليل أسلاف كثيرين من الأمراء والكونتات ، والابن البكر للرئيس الأكبر لإدارة الملابس والحلى للملكة والوصية مارى دمديتشى .

وكان اسمـــه الأمير مارسياك إلى أن ورث لقب الدوقية عند وفاة أبيه (١٦٥٠) . وقد تلقى التعليم فى اللاتينية والرياضيات والموسيقى والرقص والمبارزة والأنساب والاتيكيت . فلما ناهز الرابعة عشرة تزوج بتدبير أبيه من أندريه دفيفون ، الابنة الوحيدة والوريثة لبازيار فرنسا الكبير المتوفى . وحين بلغ الخامسة عشرة أمر على فوج من الفرسان ، وفى السادسة عشرة اشترى رتبة الكولونيل . وكان يختلف إلى صالون مدام درامبوييه الذى هذب عاداته وصقل أسلوبه . ومع كل مثالية الشباب وإيثاره للنساء الناضجات نراه يعشق الملكة ، ومدام دشفروز ، والآنسة دهوتفور . وحين تآمرت آن النمساوية على ريشليو استخدمت فرانسوا ، ثم كشف أمره ، وأودع الباستيل أسبوعا (١٦٣٦) . فلما أفرج عنه سريعا نفى إلى ضيعة أسرته بفيرتوى . وراض نفسه حينا على العيش مع زوجته ، ولاعب ولديه الصغيرين فرانسوا وشارل ، وتعلم أن للريف مباهج لا تستطيع فهمها غير المدينة .

فى تلك الأيام لم يكن ممكنا فصم عرى الزواج الشرعى بين الطبقات العليا الفرنسية ، ولكن كان من الممكن تجاهلها . وبعد أن قضى الأمير عشر سنوات فى زواج المرأة الواحدة الذى أضجره ، انطلق للمغامرة فى الحب والحرب . وحين استهدفت عيناه مدام دلونجفيل (١٦٤٦) لم يعد دافعه إلى ذلك حب مثالى ، بل تصميم على الاستيلاء على قلعة منيعة مشهورة ، لأنه مما يرفع من قدره أن يغوى زوجة لدوق وأختا لكونديه العظيم . أما هى فلعلها ارتضته لأسباب سياسة ، فقد يكون حليفا نافعا فى التمرد الاستقراطى الذى اعتزمت أن تلعب فيه دوراً نشيطا . ولما أخبرته أنها حبلت منه (٧٢) ، منح كل تأييده للفروند . وفى ١٦٥٢ نبذته واتخذت الدوق نيمور عشيقا ، وحاول لاروشفوكوا قناع نفسه بأن ذلك ما كان يصبوا ليه ، وكما قال بعد ذلك « حين نحب إنسانا إلى درجة الملل ... فإننا نرحب أشد الترحيب ... بفعل من أفعال الخيانة يبرر تحللنا من ذلك الحب (٧٣) » فى ذلك العام ، وفيما كان يحارب فى صفوف الفروند فى ضاحية

سانت أنطوان ، أصابه رش بندقية فى عينيه وخلف به عمى جزئيا . فانكفأ راجعا إلى فيرتوى .

وكان الآن فى الأربعين ، يحس بوادر النقرس ، ويشعر بالمرارة من كوارث أكثرها من صنعه . أما مثاليته فماتت فى إثر مدام دلونجفيل ، وفى مؤامرات الفروند الخداعة والنهاية الحقيرة التى انتهت إليها . وقد أزجى فراغه ودافع عن سيرته فى « مذكرات » (١٦٦٢) دل فيها على عظيم تمكنه من الأسلوب الكلاسيكى . وفى ١٦٦١ سمح له بالعودة إلى البلاط ، ومنذ ذلك التاريخ قسم وقته بين زوجته فى فيرتوى وأصحابه فى صالونات باريس .

وكان أحب الصالونات إليه صالون مدام دسابليه . هناك كانت هى وضيوفها يلعبون أحيانا لعبة « العبارات » . يعلق أحدهم بعبارة على الطبيعة البشرية أو سلوك الإنسان ، فتتقاذف الجماعة العبارة فيما بينها تأييداً واعتراضا . وكانت مدام دسابليه جارة وصديقة مخلصة للبور — رويال — دبارى ، فاعتنقت رأيه فى شر الإنسان الفطرى وخواء الحياة الدنيوية ، ولعل تشاؤم لاروشفوكو الناجم عن خيبته فى الحب والحرب ، وعن الخيانة السياسية والألم البدنى ، وعن خدعه غيره وانخداعه بالغير — نقول لعل هذا التشاؤم وجد مساندة قليلة من جانسنية مضيفته . وكان يجد لذة قائمة فى تهذيب عباراته وعبارات غيره وغربلتها على مهل ، وسمح لمدام دسابليه وغيرها من الاصدقاء بأن يقرءوا هذه الحكم ، وأن يعدلوا فيها أحيانا . وقد نسخها أحد هؤلاء ، وطبع ناشر لص هولندى ١٧٩ منها ، غفلا من اسم المؤلف ، حوالى سنة ١٦٦٣ ، وتبين فيها رواد الصالونات حكم لاروشفوكو ، ثم أصدر المؤلف نفسه طبعة أفضل اضاف إليها ٣١٧ مثــلا عام ١٦٦٥ تحت عنوان « عبارات وأمثال اخلاقية » . وأصبح هذا الكتيب الذى اختزل الناس اسمه بعد قليل إلى « الأمثال » ، من عيون الأدب للتو تقريبا . ولم يعجب القراء بأسلوبه الدقيق المحكم الأنيق فحسب ، بل إنهم استمتعوا بما حوى

من فضح لأثرة الغير ، ولم يفطنوا إلى أن القصة إنما تروى عنهم ، إلا فيما ندر .

ووجهة نظر لاروشفوكو أوردها ثانى أمثاله : « إن حب الذات هو حب الإنسان لنفسه ، ولأى شىء آخر لأجله . وحياة الإنسان كلها ليست إلا ممارسة متصلة لهذا الحب وتحريضا قويا له » وليس الغرور إلا شكلا من الأشكال الكثيرة التى يتخذها حب الذات ، ولكن حتى هذا الشكل يدخل فى كل فعل وفكر تقريبا وقد تنام شهواتنا أحيانا ، ولكن غرورنا لا يهدأ أبداً « ان الذى يرفض الثناء أول مرة يرفضه لأنه يريد سماعه ثانية(٧٤) » . والتلهف على استحسان الناس لنا هو الأصل لكل الأدب والبطولات الواعية . « وكل الناس يستوون كبرياء ، والفرق الوحيد هو أنهم لا يتبعون كلهم نفس الطرق فى إبدائها(٧٥) » . « ان الفضائل تضيع فى المصلحة الذاتية كما تضيع الانهار فى البحر(٧٦) » . « ولو تاملنا أفكارنا الخفية لوجدنا فى صدورنا بذرة كل الرذائل التى نستنكرها فى غيرنا » ولا ستطعنا أن نحكم من واقع فسادنا الشخصى على الفساد المتأصل فى الإنسان (٧٧) . وما نحن إلا عبيد شهواتنا ، وإذا قهرت شهوة منها فقاهرها ليس العقل بل شهوة أخرى (٧٨) ، « والعقل يستغفله الوجدان دائما » ، « والناس لا يشتهون شيئا بلهفة إذا طلبوه انصياعا لاوامر العقل فقط(٧٩) » ، « وابسط الناس إذا أعانته العاطفة المشبوبة سينتصر أكثر من أفصح الناس بدونها (٨٠) » .

وفن الحياة يكمن فى إخفائنا حب ذواتنا بقدر يكفى لتجنب إغضاب حب الغير لذواتهم . وعلينا أن نتظاهر بقدر من الإيثار « إن النفاق ضرب من الاحترام الذى تقدمه الرذيلة للفضيلة (٨١) » . واحتقار الفيلسوف للمزعوم للثراء أو عراقة النسب ليس إلا طريقته فى الترويج لبضاعته . وما الصداقة « إلا تجارة لا يفتأ حب الذات يطلب الكسب من ورائها(٨٢) » وقد نقيس إخلاصها إذا لاحظنا أننا نجد فى نكبات أصدقائنا شيئا ليس كله

مسيئا(٨٣) . ونحن نبادر إلى الصفح عمن أساءوا إلينا بأسرع من صفحنا عمن أسأنا إليهم ، أو عمن تفضلوا علينا — فألزمونا — بخدماتهم(٨٤) . والمجتمع حرب بين الفرد والكل . « والحب الصادق أشبه الاشباح — شيء يتحدث عنه كل انسان ولكن نادرا ما رآه أحد (٨٥) » ، و « ما كنا لنقع فى الحب قط لولا سماعنا الناس يتكلمون فى الحب(٨٦) » . ومع ذلك فالحب إذا كان صادقا تجربة فيها من العمق ما يجعل النساء اللاتى عرفن الحب مرة ضعيفات القدرة على الصداقة ، لأنهن يجدنها باردة غثة بالقياس إلى الحب (٨٧) ومن هنا لم يكن للنساء وجود تقريبا إلا وهن فى الحب « قد تلقى نساء لم يسبق لهن غرام قط ، ولكن من العسير جدا أن تجد نساء لم يقعن إلا فى غرام واحد لا أكثر (٨٨) » . « وأكثر النساء المحصنات كالكنوز المخفاة ، التى لم تكن فى مأمن إلا لأن أحداً لم يفتش عنها(٨٩) » .

وكان هذا الكلبى العليل عليما بأن هذه الحكم البارعة ليست وصفا منصفا للبشر . لذلك راح يتجنب الجزم فى الكثير منها بألفاظ مثل « تكاد » أو « تقريبا » إلى غير ذلك من التحفظات الفلسفية ، وقد اعترف أنه « أسهل أن يعرف المرء النوع الإنسانى عموما من أن يعرف انسانا واحداً بالذات (٩٠) » ، وسلمت المقدمة بأن أمثاله لا تصدق على « المحظوظين القلائل ، الذين سرت السماء بأن تحفظهم . . . بنعمة خاصة(٩١) » . ولا بد أنه سلك نفسه فى زمرة هؤلاء القلائل ، لأنه كتب : « انى أخلص لأصدقائى إخلاصا لا أتردد معه لحظة فى التضحية بمصالحى فى سبيل مصالحهم(٩٢) » . — ولو أنه كان بلا شك يفسر هذا بأنه راجع لأنه يجد فى بذل مثل هذه التضحية لذة أكثر مما يجده فى منعها . وقد تحدث بين الحين والحين عن « عرفان الجميل ، فضيلة العقول الحكيمة السمحة (٩٣) » و « الحب ، النقى الذى لا تشوبه شهوة (إذا وجد إطلاقا) ، الذى يكمن فى أعماق قلوبنا (٩٤) » و « مع أنه يمكن القول ، بقدر كبير من الصدق . . . ان الناس لا يفعلون شيئا دون

مراعاة لمصلحتهم ، إلا أنه لا يستتبع هذا ان كل ما يفعلونه فاسد ، وأنه لم يبق فى الدنيا شىء اسمه العدالة أو الأمانة . فالناس قد يحكمون أنفسهم بوسائل شريفة ، ويختطون (لأنفسهم) مصالح كلها الخير والنبل[٩٥] » .

وقد ألانت الشيخوخة جانب لاروشفوكو ، حتى وهى تزيده شجنا على شجن . ففى ١٦٧٠ ماتت زوجته بعد ثلاثة وأربعين عاما من الوفاء الصابر ، وبعد أن أنجبت له ثمانية أطفال ، وقامت على تمريضه طوال الأعوام الثمانية عشر الأخيرة . وفى ١٦٧٢ ماتت أمه ، وقد اعترف أن حياتها كانت معجزة طويلة من المحبة وفى تلك السنة جرح اثنان من أبنائه فى غزوة هولندة ، ومات أحدهما من جروحه . كذلك سقط فى نفس الحرب الفاجرة ابنه غير الشرعى الذى ولدته له مدام دلونجفيل ، والذى لم يؤذن له بأن يطالب به ابنا رغم أنه أحبه حبا عميقا . روت مدام دسفينييه « رأيت لاروشفوكو يبكى فى حنان جعلني أعبده[٩٦] » . ترى أكان حبه لأمه وأولاده حبا لذاته ؟ أجل ، إذا نظرنا إليهم على أنهم جزء من ذاته وامتدادا لها . وهذا هو التصالح بين الإيثار والأثرة — فالايثار توسيع للذات ، ولمحبة الذات ، للأسرة ، أو الأصدقاء ، أو الجماعة . وفى وسع المجتمع أن يقنع بمثل هذه الأنانية السمحة الشاملة .

ومن أكثر ملاحظات لاروشفوكو سطحية قوله « ان فضل القليل من النساء يدوم أطول من جمالهن[٩٧] » . لقد كانت أمه وزوجته استثنائين ، ولم يكن من الكرم تجاهل آلاف النساء اللاتى ضيعن جمالهن الجسدى فى خدمة الرجل والأطفال . وفى ١٦٦٥ بذلت له امرأة ثالثة معظم حياتها . ولاشك فى أن مدام دلافاييت أرضت قلبها هى وهى تحاول أن تسرى عنه . فلقد كان يومها فى الثانية والخمسين ، يشكو النقرس ونصف العمى ، أما هى فكانت فى الثالثة والثلاثين ، محتفظة بجمالها ، ولكنها عليلة تشكو حمى الملاريا . ولقد روعها ما فى امثاله من كلبية ، ولعل فكرة سارة بإصلاح هذا الرجل الشقى والتسرية عنه خالطت رأيها فيه ، فدعته الى بيتها فى باريس ،

لجاء محمولا على محفة ، فعصبت قدمه الموجوعة ووسدتها ، وأتت بأصحابها ، ومنهم مدام دسفينييه المتدفقة العاطفة ليساعدنهافى الترويح عنه . وعاد إليها ثانية ، وكثرت زياراته حتى لغطت بها باريس . ولا علم لنا هل دخلت فى هذه الزيارات الألفة الجنسية ، ولكنها على أية حال كانت جزءاً صغيراً فى علاقة أصبحت تبادلا بين الأرواح . قالت « لقد اعطانى الفهم ، ولكننى أصلحت قلبه (٩٨) » . ولعله ساعدها فى روايتها « أميرة كليف » وان بعدت رقتها وحنانها عن قسوة « أمثاله » بعد السماء عن الأرض .

وبعد أن ماتت مدام دلاروشفوكو أصبحت هذه الصداقة التاريخية ضربا من الزواج الروحى ، وفى الادب الفرنسى صور كثيرة لهذه المرأة القصيرة الضعيفة الجسد ، تجلس فى هدوء إلى جوار الفيلسوف العجوز الذى أقعده الألم عن الحركة . قالت مدام دسفينييه « لا شىء يمكن أن يقارن بسحر صداقتهما وثقتها (٩٩) » . وقال بعضهم ان المسيحية تبدأ حيث ينتهى لاروشفوكو (١٠٠) ، وقد تبينت صحة القول فى هذه الحالة ، ولعل مدام دلافاييت الصادقة الورع أقنعته بأن الدين هو الكفيل بالإجابة عن مشكلات الفلسفة . ولما شعر بدنو أجله طلب إلى الأسقف بوسويه أن يناوله الأسرار المقدسة الأخيرة (١٦٨٠) . وقد عمرت صديقته بعده ثلاثة عشر عاما حافلة بالألم .

٩ — لابروبير ١٦٤٥ — ٩٦

بعد موت لاروشفوكو بثمانية أعوام اكد جان دلابروبير تحليله الساخر للآدميين من أهل باريس . وكان جان ابن موظف صغير فى الحكومة . درس القانون ، واشترى وظيفة حكومية صغيره ، واصبح معلما خاصا لحفيد كونديه العظيم ، وخدم أسرة كونديه وصيفا ، وتبعها إلى شانتى وفرساى . وقد ظل أعزب الى نهاية حياته .

وقد عذبته حدة الفوارق الطبقية فى فرنسا لما فطر عليه من حساسية

وجياه ، ولم يستطع الاستعانة بمظاهر الغرور الطيبة التي ربما كانت تيسر له طريقه بين النبلاء وفي البلاط ، وذلك رغم انتمائه الى الطبقة الوسطى .
وقد لاحظ معرض الوحوش الملكى بعين معادية نفاذة ، وانتقم منها بوصفها فى كتاب صب فيه كل عصارته الفكرية تقريبا ، وقد سماه « الاخلاق لتيوفراست مترجمة عن الاغريقية ، مع اخلاق أو عادات هذا العصر » . وأصبح الكتاب حديث باريس ، لانه صور تحت أقنعة شفافة أشخاصا مشهورين فى المدينة أو البلاط ، وجعل كلا منهم يجد المتعة البالغة فى فضح الباقين . ونشرت « مفاتيح » للكتاب تزعم انها تطابق الصور مع اصولها ، واحتج لابروبير بأن أوجه الشبه عارضة ، ولكن أحدا لم يصدق ، وذاع صيته ، ونفدت ثمانى طبعات قبل موت المؤلف فى ١٦٩٦ ، وقد اضاف الى كل طبعة « أخلاقا » جديدة تبينت فيها باريس مرآة العصر .

ونحن الذين فقدنا اليوم مفتاح متحف الصور هذا تبدو لنا مادته هزيلة بعض الشيء ، وأفكاره قديمة مبتذلة ، وروحه يشوبها بعض الحسد ، وهجاؤه سطحيا جدا ، كهجائه لمينا لكاس الرجل الشارد الذهن (١٠١) .
ولا يطلب لابروبير أى تغيير فى دين فرنسا أو حكومتها . وقد رأى أن من الخير أن يكون هناك فقراء ، والا لكان العثور على الخدم عسيرا ، ولما وجد أحد يستخرج المعادن أو يفلح الأرض ، والخوف من الفقر لاغنى عنه لانتاج الثروة (١٠٢) . وكان يسلك بوسويه فى عداد أصدقائه مفاخرا بذلك ، وقد أعاد فى القسم الأخير من كتابه (« فى أحرار الفكر ») الحجج التى أعرب عنها الواعظ العظيم بحكم افضل ونثر أرفع ، وردد البراهين التى ساقها ديكارت عن الله والخلود ، واستشهد بشىء من الحذق ، فى رده على اللاأدريين فى زمانه ، بنظام السماوات وجلالها ، وعلامات الهدف المرسوم فى الكائنات الحية ، والاحساس بتقرير المصير فى الارادة وباللامادية فى الذهن . وهاجم غرور النبلاء ، وجشع رجال المال ،

وخنوع الحاشية الذين صورهم ينظرون الى لويس لا الى المذبح فى كنيسة فرساى ؛ ولكنه حرص على أن يقدم للملك باقات زهر يتقى بها غضبه (١٠٣) . وفى فقرة واحدة على الأقل ازاح الحذر جانبا وتسامى فى جرأة ليصف درك البهيمية الذى تردى فيه فلاحو فرنسا من جراء حروب الحكم وضرائبه . يقول : « انتشرت فى أرجاء الريف حيوانات ضارية ، ذكور واناث ، سوداء ، ممتقعة ، أحرقتها الشمس تماما ، والتصقت بالأرض التى تحفرها وتقلبها فى اصرار لا يقهر ، ولها ما يشبه الصوت المنطوق ، فاذا انتصبت على قوائمها بدت فى سحنة البشر ، والواقع انها ناس من الناس (١٠٤) » .

وما زالت هذه الصفحة من أبلغ ما كتب فى عصر فرنسا الكلاسيكى .

١٠ — مزيد من الأدباء

هل نحشد الآن بغير نظام ، بعد أن أصابنا الاعياء ، فى ملحق هياب بعض الخالدين الذين بدأوا يموتون ؟

هناك جان شابلان ، الذى أعان على تنظيم الأكاديمية الفرنسية ، واعتبر فى زمانه (١٥٩٥ — ١٦٧٤) أشعر شعراء فرنسا . وهناك جان باتيست روسو ، الذى كتب شعرا ينسى ، ولكنه كتب أيضا إبجرامات مقذعة جرت عليه النفى من فرنسا (١٧١٢) عقابا على تشهيره بالأشخاص . وقد كتب معظم النبلاء الذين اشتغلوا بالسياسة مذكرات ، فرأينا مذكرات دريتز ولاروشفوكو ، وسنرى فى موضع لاحق مذكرات سان — سيمون . ويلى أولئك مرتبة تلك المجلدات الثلاثة التى سجلت فيها مدام دموتفيل بتواضع خلاب وقائع سنيها الاثنتين والعشرين التى قضتها فى بلاط آن النمساوية . ونلاحظ أنها وافقت لاروشفوكو على رأيه اذ كتبت « ان تجربتى القاسية فى صداقة البشر الزائفة أكرهتنى على الايمان بأنه ليس فى الدنيا شىء أندر من الأمانة والاستقامة ، أو من

القلب الطيب القادر على عرفان الجميل[١٠٥] . » لقد كانت هى هـذا الانسان النادر الوجود .

وقد حقق روجيه درابوتان ، كونت بوسى ، نجاحا فى دنيا الفضائح بكتابه « تاريخ غراميات الغاليين » (١٦٦٥) الذى وصف غراميات معاصريه مستخفية وراء قدامى الغاليين . وغضب الملك لكونه سخر فيها من مدام هنرييتا ، فزج به فى الباستيل ، ثم افرج عنه بعد ضمنة شريطة أن يعتكف فى ضيعته ، وهناك ألف « مذكراته » النابضة بالحياة ، والغيظ يبريه إلى نهاية حياته . وأقل من هـذا الكتاب جدارة بالتصديق كتاب « الأقاصيص » الذى رسم فيه تالمان دى ريو صوراً موجزة خبيثة لشخصيات شهيرة فى الأدب أو الغرام . وقد جاهد كلود فلورى ، بكتابه الامين « التاريخ الكنسى » (١٦٩١) ، وسباستيان تيلمون بكتابه « تاريخ الأباطرة » (١٦٩٠ وما بعدها) ، وكتابه « مذكرات ينتفع بها فى التاريخ الكنسى للقرون الستة الأولى » (١٦٩٣) ذى الستة عشر مجلدا — هذان جاهـدا فى معاناة ، ودون وعى منهما ، ليمهدا الطريق وينقياه لكتاب جيبون « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » (١٧٧٦ وما بعدها) .

ثم هناك أخيرا شارل دماركتيل شريف سانت — افريمون الذى كان ألطف تلك « العقول القوية » التى صدمت الكاثوليك والهيجونوت ، واليسوعيين والجانسيين على السواء ، بالتشكك فى التعاليم الأساسية لإيمانهم المشترك . وكانت حياته العسكرية الحافلة بالمغامرات تقوده إلى عصا الماريشالية حين غضب عليه الملك لأنه كان صديقا لفوكيه وناقدا لمازاران . فلما نمى إليه أن قد تقرر القبض عليه فر إلى هولندة ، ثم إلى انجلترة (١٦٦٢) . وقد جملته عاداته المهذبة وذكاؤه الشكاك أثيرا فى صالون هورتنزى مانشينى بلندن ، وفى بلاط تشارلز الثانى . وكان كالماريشال دو كنسكور ، فى واحد من أكثر حواراته مرحا[١٠٦] ، يحب الحرب أولا ، ثم النساء ، ثم الفلسفة . وإذ رشف كل المباهج التى فى مونتينى ، ودرس أبيقور مع جاسندى ، فقد

خلص مع الاغريقى المفترى عليه إلى أن لذة الحس طيبة ، ولكن لذة الافكار أطيب ، وأنه لا داعى يدعونا لشغل أنفسنا بالآلهة أكثر مما تشغل أنفسها بنا . وقد بدا له الأكل الطيب والكتابة الجيدة مزيجا معقولا . وفى ١٦٦٦ زار هولنده ثانية ، والتقى بسبينوزا وتأثر تأثرا عميقا بالحياة المسيحية التى كان يحياها اليهودى القائل بوحدة الوجود(١٠٧) . وقد أتاح له معاش أجرته عليه الحكومة الإنجليزية ، بالإضافة إلى ما استنقذه من فضلات ثروته ، أن يكتب سلسلة طويلة من الكتب الصغيرة ، كلها بأسلوب خفيف رشيق شارك فى تكوين فولتير . وقد أعان كتابه « تأملات فى مختلف أجناس الشعب الرومانى » مونتسكييه ، وشاركت رسائله إلى نينون دلانكلو بجزء من ذلك العبير الذى يتضوع خلال الرسائل الفرنسية . ولما بلغ الثامنة والخمسين ، ودون وعى منه بأنه سيعمر اثنتين وثلاثين سنه أخرى ، وصف نفسه بأنه متقلقل بصورة لاشفاء له منها . « اننى لولا فلسفة مسيو ديكارت التى تقول أنا أفكر فإذن أنا موجود لما صدقت اننى موجود ، وهذا كل ما أفدت من دراسة ذلك الرجل الشهير(١٠٨) » وقد كاد ينافس فونتنيل فى طول عمره ، إذ لم يمت إلا عام ١٧٠٣ بعد ان بلغ التسعين ، وقد نال تشريفا ندر ان حظى به فرنسى ، وذلك هو دفنه فى دير وستمنستر .

كتب فردريك الأكبر إلى فولتير : « بعد قرون سيترجمون الكتاب المجيدين فى عصر لويس الرابع عشر كما نترجم نحن كتاب عصر بركليس وأوغسطس » . وقبل أن يموت الملك بسنين طويلة شبه الكثيرون من الفرنسيين فن العصر وأدبه بخير ماأنتج القدماء فى الفنون والآداب . وفى ١٦٨٧ قرأ شارل بيرو (أخو كلود بيرو الذى صمم من قبل واجهة اللوفر الشرقية) على الأكاديمية الفرنسية قصيدة سماها « قرن لويس المظيم » رفع فيها العهد فوق أى حقبة فى تاريخ اليونان أو الرومان . ولكن بوالو الناقد العجوز ابرى للدفاع عن القدامى رغم ان بيرو سلكه فى زمرة للعاصرين

الذين فضلهم على نظرائهم القدامى ، فقال للأكاديمية ان من العار الاستماع إلى هذا اللغو . وحاول راسين ان يخمد النار بزعمه أن بيرو كان (١١٠) يمزح ؛ ولكن بيرو أحس أن لديه موضوعا مجزيا . فعاد إلى المعركة فى ١٦٨٨ بكتابه « نظائر القدامى والمحدثين » وهو حوار طويل حى يؤيد تفوق المحدثين فى العمارة والتصوير والخطابة والشعر — وذلك باستثناء الالياذة ، التى هى فى رأيه أروع من الالياذة أو الاوديسة أو أى ملحمة أخرى . وقد ناصره فونتنيل بذكاء وبراعة ، أما لا بروبير ولا فونتين وفينيلون فوقفوا فى صف بوالو .

لقد كان شجاراً صحيا، عين نهاية نظرية « الانحطاط » المسيحية الوسيطة ، ونهاية تواضع النهضة والحركة الإنسانية أمام الشعر والفلسفة والفنون القديمة . وكان هناك اتفاق عام على أن العلم قد تقدم متجاوزا أى مرحلة أدركها اليونان أو الرومان ، وحتى بوالو اعترف بهذا ، وسلم بلاط لويس الرابع عشر فى غير تردد بأن فن الحياة لم يطور قط من قبل بمثل هذا الجمال الذى طور به فى مارلى وفرساى . ولن نزعم أننا فاصلون فى هذه المشكلة ؛ فلنتركها الآن حتى نعرض كل جوانب هذا العصر فى أوربا بأسرها . ولا حاجة بنا إلى الإيمان بأن كورنيى كان متفوقا على سوفوكليس ، أو راسين على يوربيديس ، أو بوسويه على ديموستينيس ، أو بوالو على هوراس ؛ وما ينبغى أن نسوى بين اللوفر والبارثينون ، أو بين جيراردون وكوازفوكس وبين فيدياس وبراكستيليس . ولكن من اللطيف أن نعرف أن هذه المفاضلات تقبل المناقشة ، وان تلك النماذج القديمة لا تمتنع على المنافسة .

لقد وصف فولتير عصر لويس الرابع عشر بأنه « أكثر العصور التى شهدها العالم استنارة (١١١) » دون ان يتوقع أن عصره هو سيسمى « عصر التنوير » . ولكن ينبغى أن نخفف من غلو هذا الاطراء . فالعصر من الناحية الرسمية كان عصر ظلامية وتعصب بلغا أوجهما فى إلغاء مرسوم نانت الرحيم ؛ و « التنوير » كان وقفا على قلة قليلة لم يرض عنها البلاط وعابها سرفها الابيقورى أحيانا . والتعليم كان يهيمن عليه أكليروس ملتزم بعقيدة العصر

الوسيط ، وأما حرية الطباعة والنشر فلم يكد أحد يحلم بها ، وحرية الكلام كانت مغامرة سرية وسط رقابة شاملة . لقد كان فى عهد ريشليو من المبادرة والجرأة ومن مولد العبقرية قسط أكبر مما كان فى عهد الملك العظيم . إن العصر لم يكن له ضريب فى الرعاية الملكية للادب والفن ، وفى خضوعهما البليغ للملك . وقد بلغ الفن والأدب كلاهما العظمة والجلال كما يشهد بذلك صف أعمدة اللوفر ومسرحية اندروماك ، ولكنهما انحدرا أحيانا إلى المبالغة فى الفخامة والابهة كما نرى فى قصر فرساى أوفى بلاغة كورنيى فى آخر أنتاجه . وكان يشوب المأساة والفنون الكبرى فى هذا العهد بعض التكلف والافتعال ، فقد أفرطا فى الاتكاء على النماذج اليونانية أو الرمانية أو نماذج النهضة . واتخذا موضوعاتهما من عصر قديم دخيل لامن تاريخ فرنسا ودينها وطابعها ، وعبرا عن التعليم الكلاسيكى الذى حظيت به طبقة خاصة لاعن حياة الشعب وروحه . ومن ثم نجد موليير ولافونتين العاميين يفيضان اليوم حياة وسط هذا الحشد المزوق، لأنهما نسيا اليونان والرومان وتذكرا فرنسا . صحيح ان العصر الكلاسيكى نقى اللغة ، وصقل الادب ، وهذب الحديث ، وعلم العاطفة المشبوبة أن تفكر ، ولكنه إلى ذلك فرض على الشعر الفرنسى (والإنجليزى) برودة امتدت قرابة قرن بعد هذا العهد العظيم .

ومع ذلك كان عهدا عظيما . فلم يشهد التاريخ من قبل حاكما سخا مثل هذا السخاء على العلوم والآداب والفنون . لقد اضطهد لويس الرابع عشر الجانسنيين والهيجونوت ، ولكن فى عهده كتب بسكال ، ووعظ بوسويه ، وعلم فينيلون . ولقد جند الفن ليخدم به مآربه ومجده ، ولكن هذا الفن منح فرنسا بفضل تشجيعه روائع فى العمارة والنحت والتصوير . ولقد حمى موليير من جيش من الخصوم ، وآزر راسين من مأساة إلى مأساة . ولم تكتب فرنسا من قبل مسرحية أفضل ، ولا رسائل أفضل ، ولا نثرا أفضل ، مما كتبت فى عهده . وقد أشاعت عادات الملك المهذبة ، وضبطه

لنفسه . وصبره ، واحترامه للنساء — أعانت كلها على انتشار الاداب المحببة والمجاملات اللطيفه فى البلاط ، وعنه إلى باريس وفرنسا وأوربا . ولقد أساء استعمال بعض النساء ، ولكن تحت حكمه بلغت النساء فى الادب والحياة مقاما اضفى على فرنسا ثقافه ثنائيه الجنس يفوق جمالها أى ثقافه أخرى فى العالم . وبعد كل التحفظات ، وبعد الاعراب عن أسفنا لان هذا الجمال الكثير لوثته هذه القسوة الكثيرة ، يحق لنا أن نضم صوتنا إلى أصوات الفرنسيين فى الأشادة بعصر لويس الرابع عشر بوصفه عصراً يقف على قدم المساواة مع اليونان فى أيام بركليس ، والرومان فى أيام أوغسطس ، وإيطاليا فى أيام النهضه ، وانجلترة فى أيام اليزابيث وجيمس الاول — يقف مع هؤلاء جميعا قمة شامخة بين الشوامخ فى مسار الإنسانية المتعثر .

الفصل السادس

مأساة فى الأراضى المنخفضة

١٦٤٩ — ١٧١٥ *

شهد القرن الممتد من ١٥٥٥ إلى ١٦٤٨ الدفاع البطولى الذى قامت به الأراضى المنخفضة ضد إمبراطورية أسبانيا العالمية ، أما الفترة من ١٦٤٨ إلى ١٧١٥ فقد شهدت دفاع الجمهورية الهولندية الرائع ضد بحرية إنجلترة وجيوش فرنسا التى لم يسبق لها مثيل . وفى كلتا الحالتين صمدت هذه الدولة الصغيرة بشجاعة ونجاح من حقهما أن يتبوءا مكاناً مرموقاً فى التاريخ . وقد واصلت وسط هذه الأعباء والمحجات تطويرها للتجارة والعلوم والفنون ، وكانت مدنها ملاذاً للفكر المضطهد ، وتحدت نظمها الجمهورية الملكيات القوية المحدقة بها تحدياً ملهماً .

١ ــ الأراضى المنخفضة الأسبانية

ظلت الأراضى المنخفضة الجنوبية ، أو الأسبانية ، حتى ١٧١٣ خاضعة للحكم الأسبانى وكانت شعوبها المختلفة سلالياً يدين معظمها بالكاثوليكية وقد آثرت أن تخضع لأسبانيا النائية التى حل بها الضعف ، عن أن تخضع للبروتستنت الذين فى شمالها ، أو لجارتها فرنسا التى هددت بابتلاعها فى أى لحظة . وقد أعطى صلح البرانس (١٦٥٩) معظم أرتوا لفرنسا ، وأعطاها صلح إكس لا شابل (١٦٦٨) دويه وتورنيه ، وصلح نيميجن (١٦٧٨) فالنسين وموبوج وكبرى وسانت أومير وايبر . ولم تكن الجمهورية

(*) أرجأنا تاريخ الأراضى المنخفضة السياسى والحربى بعد ١٦٨٨ إلى فصل تال (الفصل ٢٤) .

الهولندية أقل قسوة من الملكية الفرنسية . وبمقتضى معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) لم تكتف أسبانيا ، فى حرصها على إطلاق يد جيوشها لتفرغ للحرب المتصلة مع فرنسا — لم تكتف بأن تنزل الأقاليم المتحدة عن المناطق التى استولت عليها فى فلاندر ، ولمبورج ، وبرابانت ، ولكنها وافقت كذلك على قفل نهر الشلت فى وجه التجارة الأجنبية . فأصاب هذا الإذلال الخانق أنتورب وكل اقتصاد الأراضى المنخفضة الأسبانية بالشمال . « إن السياسة لا قلب لها » كما يقولون .

وفى داخل هذه الأسوار المعادية اعتزت هذه البلاد التى نعرفها اليوم باسم بلجيكا بثقافتها المتوارثة ، ورحبت باليسوعيين ، وتبعت قيادة لوفان الفكرية . ولما قصف الفرنسيون بروكسل بمدافعهم (١٦٩٥) تحول قسم كبير من المدينة أطلالا ، ودمر كل المعمار البديع الذى ازدان به الميدان الكبير ، اللهم إلا قاعة للحرفيين والأوتيل دفيل البديع ، وقد أعيد بناء « الميزون دورا » (الذى كان يقرأ فيه الخطاب الملكى على مجلس الطبقات) بطراز قوطى كثير الزخرف (١٦٩٦) ، وهو والأوتيل دفيل من أجمل العمائر فى أوربا اليوم . وقد أفاض النحاتون من فنهم على تجميل واجهات الكنائس والمبانى المدنية ، والمنابر ، ومقاصير الاعتراف ، والمقابر التى بداخل الكنائس . وواصلت بروكسل صنع النسيج المرسوم البديع(١) .

واضمحل التصوير الفلمنكى اضمحلالا حادا بعد روبنز وفانديك ، وكأن حياة هذين الفنانين قد استنفدت العبقرية التصويرية لقرن كامل . واجتذب نهوض الفن فى فرنسا وازدياد ثرائها الكثير من الرسامين الفلمنك أمثال فيليب دشامبين . ولكن فنانا اعظم منه ، وهو دافيد تنييه الابن ، مكث فى بلده . وكان أبوه قد تولى تعليمه ، فأصبح « معلما » فى طائفة القديس لوقا الحرفية حين بلغ الثالثة والعشرين ، وبعد أربع سنوات (١٦٣٧) ضمن نجاحه بالزواج من آن بنت جان بروجل « المخملى » ،

والقاصر الموضوعة تحت وصاية روبنزذاته . وفى ١٦٥١ دعاه الارشيدوق ليوبولد وليم من أنتورب الى بروكسل ليكون مصور البلاط وأمين المتحف الملكى ، وترينا احدى لوحات تنيبه الأشيدوق والمصور بين صور هذا المتحف (٢) . وقد صور فى براعة مترددة موضوعات قديمة كالابن الضال (٣) وتجربة القديس انطونيوس . (٤) . ولكنه كمعاصريه الهولنديين آثر أن يلتقط داخل اطارات صغيرة حياة الفلاحين ، لاهابطا بهم الى درك الأنعام كما فعل بيتر بروجل ، بل مشاركا اياهم فى رياضاتهم وأعيادهم . وأظهرت لوحته « داخل كاباريه » المامه بتفاصيل موضوعه (٥) ، ولكنه كان يستطيع أيضا أن يرسم المناظر الطبيعية الريفية التى تغير هيئتها سماء لاتكف عن التغير . وقد أحب الضوء كما أحب رمبرانت الظل ، والتقطه على فرشاته برقة حساسة لم تفقها رقة .

٢ — الجمهورية الهولندية

كانت الأقاليم الهولندية السبعة قد توحدت الآن فى جمهورية عزيزة ظافرة أثار غناها واتساعها عجب جيرانها وحسدهم . فهنا أمة شذت على العرف ، إذ لم يكن لها ملك ، وكانت كل مدينة يحكمها فى استقلال تقريبا مجلس من أعيانها ، وكل مجلس بلدى يوفد مندوبين لمجلس اقليمى ، وكل مجلس اقليمى يوفد ممثلين للمجلس التشريعى الذى يهيمن على ما بين الأقاليم من علاقات وعلى شئونها الخارجية . وكانت الى ذلك الحد حكومة مثالية لأقطاب التجارة الذين كانت ثرواتهم تتضخم بنمو التجارة الهولندية . ولكن قوة ارستقراطية واحدة وقفت أمام أوليجركيه التجار هذه : ذرية وليم الأول (والصامت) أمير أورنج وناسو ، الذى قاد البلاد فى أحلك ايام كفاحها ضد أسبانيا ، وكان المجلس التشريعى قد كافأه بلقب رئيس الدولة وبقيادة جيوشها ، واستطاع أن يورث ذريته ذلك اللقب وتلك القيادة ، وكانت الهيمنة على رجال الجيش الآن قوة لا تفتأ تهدد بتحويل الجمهورية الاوليجركية الى ملكية .

ارستقراطية . وفى يوليو ١٦٥٠ حاول وليم الثالث أمير أورنج ، بوصفه رئيسا للدولة وقائدا عاما ، أن يبسط سلطانه المطلق على جميع الأقاليم المتحدة بانقلاب . فقاومه عـدة زعماء اقليميين ، واودع وليم وجنده ستة منهم فى السجون ، ومنهم يعقوب دى ويت عمدة دوردريشت . ولـكن الجدرى هزم وليم فى انتصاره ، فمات فى ٦ نوفمبر ١٦٥٠ غـير متجاوز الرابعة والعشرين : وبعد أسبوع ولدت أرملته مارى ستيوارت (ابنة حفيدة آخر ملـكة للاسكتلنديين) الطفل وليم أورنج الثالث ، الذى قدر له أن يحقق فوق ماحلم به أبوه ، اذ أصبح ملـكا على انجلترة .

اما الزراع وصيادو الاسمـاك الأدنى من هــذه الطبقات الحاكمة المتنافسة ، هؤلاء الذين كانوا يطعمون الشعب ، فلم يشاركوا الا فى فضلات ثرائها التى لم يعبأ بالتهامها التجار ورجال الصناعة وملاك الأرض . واذا صدقنا الرسامين الهولنديين تبين لنا أن الحرب والاستغلال قد طحنا الفلاحين بفقر كاد يقربهم من حياة البهائم ، فقر خففت منه الأعياد وخدره الشراب . وكان الحرفيون فى حوانيتهم ، والعمال فى مصانع امستردام وهارلم وليدن ، أعلى أجورا من نظرائهم فى انجلتره (٦) ، ولـكنهم قاموا باضراب عنيف فى ١٦٧٢ . واثرى المهاجرون الهيجونوت الوافدون من فرنسا الصناعة الهولندية بمدخراتهم ومهاراتهم . فلم تأت سنة ١٧٠٠ حتى حلت الأقاليم المتحدة محل فرنسا بوصفها الامة الصناعية القائدة فى العالم .

اما اعظم الثروات فجادت بها التجارة مـــع أقطار ما وراء البحار وتطويرها . ففى ١٦٥٢ استوطن الهولنديون أول مستعمرة لهم فى رأس الرجاء الصالح وأسسوا مدينـــة الـكاب . وكانت شركة الهند الشرقية الهولندية تدفع ارباحا لمساهميها بلغت نسبتها فى الموسط ١٨ ./. طوال ١٩٨ عاما (٧) . وكان الوطنيون فى المستعمرات الهولنـدية يباعون او يشتغلون عبيدا ، أما المستثمرون فى أرض الوطن فلم يسمعوا بهذا الا قليلا ، وأخذوا ارباح أسهمهم بهـدوء هولندى . وظلت التجارة

الخارجية الهولندية حتى ١٧٤٠ تفوق تجارة أى أمة أخرى [٨] ، ومن بين عشرين الف سفينة كانت تنقل تجارة أوربا فى ١٦٦٥ ، كانت خمسة عشر ألف هولندية [٩] . وأجمع الناس على أن تجار هولندة وماليها أكفأ من انجبه ذلك العصر . وكان بنك أمستردام قد استنبط عمليا كل تقنيات المالية المصرية ، وقدرت ودائعه بما يعادل الآن مائة مليون دولار [١٠] ، وكان فى الامكان أن تسوى فيه حسابات تصل الى الملايين فى ساعة واحدة ، وبلغت الثقة بقدرة الهولنديين المالية وامكان الاعتماد عليهم مبلغا يسر للجمهورية الهولندية أن تقترض المال بفائدة أقل من أى حكومة أخرى ، وقد تهبط الفائدة أحيانا الى ٤ ٪ [١١]. ولعل أمستردام كانت أكثر مدن اوربا فى هذا العصر جمالا وتحضرا . وقد رأينا ثناء ديكارت عليها ، وكذلك تحدث عنها سبينوزا [١٢] . وبمثل هذه الحماسة تحدث بيبيس عن لاهاى « مدينة غاية فى النظافة من جميع الوجوه ، بيوتها أنظف مايستطاع فى كل أماكنها ومحتوياتها [١٣] » .

ولولا طبيعة البشر لكانت هذه الأقاليم الرخية جنة فى الأرض ذلك أن ثراءها أغرى انجلترة وفرنسا بالهجوم عليها ، وقد أفضى الصراع على السلطة فى الداخل الى مأساة جان دى ويت ، ومزقت المنافسة بين العقائد الدينيا شعبا لطيفا فى غير هذا ، وبعثت الخصومات العنيفة . ومنع الكلفنيون الغالبون ممارسة الشعائر الكاثوليكية حيثما استطاعوا منعها . وفى ١٦٨٢ ، وضع مجمع دورت (الدوردريشت) اعترافا بالكلفنية القديمة — ربما انتقاما من الغاء مرسوم نانت وألزم كل راع بالتوقيع عليه والا طرد ، وعين بيير جوريو وهو هيجونوتى فرنسى سابق — ليرأس محكمة تفتيش كلفنيه ، واستدعى المهرطقين ، وحاكمهم ، وحرمهم ، واهاب بـ « الذراع الدنيوية » (السلطة الزمنيه) أن تزج بهم فى السجون . ولكن هرطقه أرمينيوس نمت رغم ذلك ، واجترأ الشجعان من الرجال على الاعتقاد بأن الله لم يقدر على الكثرة من بنى البشر الهلاك فى النار

الأبدية ، ووجدت المذاهب المنشقة — مينونيين ، وكلبين (ممن آووا سبينوزا) ولو سيانيين ، وتقويين ، وحتى التوحيديين — هؤلاء جميعا وجدوا أن فى إمكانهم العيش فى هولندة بين ثغرات القانون وغفواته . وكان السوسينيون قد التمسوا فى الاقاليم المتحدة ملاذا من الاضطهاد فى هولندة ، ولكن عبادة التوحيديين حرمت بقانون هولندة فى ١٦٥٣ . ونشر دانيال زفيكر بأمستردام فى ١٦٥٨ رساله تشككت فى ألوهيه المسيح ، وأخضعت الكتاب المقدس لـ « عقل البشرية العام » ، ومع ذلك استطاع أن يموت فى هدوء وسلام كما يموت الجنرالات . على أن رجلا يدعى كيرباج حكم عليه فى ١٦٦٨ بالسجن عشر سنوات لأنه أفصح عن أفكار كهذه ، ومات فى سجنه . وقد سجن أوريان بيفرلاند لإلماعه الى أن خطيئه آدم وحواء الأصليه كانت الاتصال الجنسى ولم تمت للتفاح بسبب .

وازداد التسامح الدينى قرب ختام القرن السابع عشر . ذلك أن الهولنديين الذين كانوا يتعاملون مع دول كثيرة ذات ثقافات مختلفة ، ويفتحون موانيهم وسوقهم الماليه لتجار يدينون بديانات كثيرة أو لا يدينون بأى دين ، هؤلاء الهولنديون وجـدوا من الأنفع لهم أن يمارسوا ضربا من التسامح كان ، رغم ما شابه من نقص ، أرحب بكثير منه فى أى بلد مسيحى . ومع أن الكلفنيين كانوا الغالبين سياسيا ، الا أن الكاثوليك بلغوا من الكثرة مبلغا جعل قمعهم امرا غير ممكن عمليا . أضف الى ذلك أن السيطرة الاجتماعيه والسياسيه التى كانت تتمتع بها الطبقات التجارية والصناعية جعلت الإكليروس — كما قال : سر وليم تمبل — أقل نفوذا بكثير من الاكليروس فى الدول الأخرى . وطالب المهاجرون من أقطار أخرى ، الذين أسهموا بقسط فى الاقتصاد أو الثقافة ، بقدر محدود من الحرية الدينية وظفروا به . وحين استولى كرومويل على السلطه فى انجلترة التمس أنصار الملكية فيها السلامة فى هولندة ؛ ولما رد تشارلز الثـانى الى العرش ، التجأ الجمهوريون الانجليز الى الجمهورية الهولندية . ولما اضطهد لويس الرابع عشر الهيجونوت فر بعضهم الى الأقاليم

المتحدة ، ولماخشى لوك وكولنز وبيل الاضطهادفى انجلترة أوفرنسا ، وجدوا الملاذ فى هولنده ، ولما حرم مجمع أمستردام البرتغالى (اليهودى) سبينوزا ، رحب به العلماء الهولنديون وقدموا له العون ، ورتب له جان دى ويت معاشا . وأصبحت هولندة الصغيرة « مدرسة أوربا (١٥) » فى التجارة والمال والعلم والفلسفة .

ولولا ما أتيح لهذه الحضارة من حرية دينية ، ومن علم وأدب وفن ، لأصبحت حضارة مادية الى حد محزن . وسنلتقى فى فصل لاحق بهويجنس وغيره عن العلماء الهولنديين . وكان هناك شعراء ومسرحيون ومؤرخون هولنديون ، ولكن لغتهم حدت من شهرتهم . وقد حفلت المدن الهولندية بالكتب والناشرين . وبينما لم يكن فى انجلترة سوى مركزين اثنين للنشر هما لندن واكسفورد ، وفى فرنسا باريس وليون ، كان فى الاقاليم المتحدة مراكز فى أمستردام وروتردام وليدن وأوترخت ولاهاى ، تطبع الكتب باللاتينية واليونانية والالمانية والانجليزية والفرنسية والعبرية كما تطبعها بالهولندية . وكانت أمستردام وحدها تملك أربعمائة دار تطبع الكتب وتنشرها وتبيعها (١٦) .

ونافس الولع بالفن الغرام بالمال والمساومة على الخلاص الأبدى . وخلع ساكنو المدن الهولنديون ، الذين عروا كنائسهم البروتستانتية من الزخرف ، خلعوا على نسائهم وبيوتهم الزينه التى انتزعوها من بيوت الرب . فاسترضوا زوجاتهم بالمخمل والحرير والجواهر ، ونشروا على موائدهم صحاف الذهب والفضه ، وزينوا جدرانهم بالنسيج المرسوم ، ورفوفهم أوصواوينهم بالخزف أو الزجاج المحفور . وفى ديفلت كان الخزافون الهولنديون بعد عام ١٦٥٠ ، الذين استوحوا الخزف الصينى واليابانى ، يصنعون فخارا مزججا . أكثره أزرق على قاعدة بيضاء ، أضفى الجمال المشرق على بيوت كانت من قبل عارية عرى التزمت الصارم . وقل أنه وجدت أسرة هولندية لم تملك على الأقل واحدة من تلك الصور

الصغيرة التى جعلت حلم المسكن الهادىء النظيف ، وبهجة الأشجار والأزهار والجداول ، قريبي المنال على جدران البيوت .

٣ - ازدهار صور الحياة اليومية

كان العصر البطولى للتصوير الهولندي قد ولى . فالزبائن الجدد أكثر نفرا ولكنهم أقل مالا ، لذلك طلبوا صورا صغيرة تتيح لهم أن يشهدوا حياتهم اليومية فى خلاصة مقطرة مهذبة ، منقولة بواقعية تبعث لذة التعرف ، أوملموسة بعاطفة رقيقة ولكنها مالوفة ، أو مغريه للنفس باستشراف مشهد محرر من مشاهد الطبيعة . وقد لبى المصورون الهولنديون هذا الطلب فى رهافة خط وضوء ولون حشدت الصنعة الشديدة التدقيق فى حيز صغير . وهؤلاء الفنانون معروفون فى جميع أرجاء أوربا وأمريكا ، لأن التنافس اليائس فيما بينهم حملهم على أن يطلقوا سيلا متدفقا سريعا من الصور الصغيرة بثمن رخيص ، وهى صور لاتخلو اليوم منها جدران متحف . ونحن اذنترك الشهادة على وفرة هؤلاء الرسامين لهامش سريع (*) ، نراه لزاما أن ننظر نظرة أكثر تريثا الى جان ستين ، المرح رغم حظه العاثر ، والى أعظم مصورى الحياة اليومية جان فرمير ، والى أعظم مصورى الطبيعة الهولنديين ، يعقوب فان رويسدال .

---

* نيقولا بيرشيم : القلعة فى الغابة (درسدن) فرديناند بول : يعقوب أمام فرعون (درسدن) ، جيرارد دو : عجوز فى النافذة (فينا) . بارنت فابريتوس : يعقوب وبنيامين (شيكاغو) . بارتلميوس فان درهيلست : عمده هولندى ، (نيويورك) بيترهى هوخ : داخل بيت هولندى (لندن) . فيليب دى كونينك : منظر طبيعى (فرانكفورت) . نيقولا مايس : عجوز تغزل (امستردام) . جابرايل ميتسو : سوق الخضر (لندن) . فرانس فان ميريس الأول : صورة ذاتية مع زوجته (لاهاى) . وليم فان ميريس : التعرف على برسورا (درسدن) . ايرت فان درنير : منظر مقمر (برلين) . جيرار تربورش : عشاق الموسيقى (لندن) ادريان فان درفلد : المزرعة (برلين) . وليم فان درفلد الثانى . زويدرزى (برلين) جان فينكس الثانى : منظر صيد (لندن) . أدريان فان درفرف : طرد هاجر (درسدن) . فيليب فوفرمان : وقفة جماعة صيد (دولسفش) .

أما ستين فكان ابن صانع جعة فى ليدن ، واشتغل فى لاهاى ، وديلفت ، وهارلم ، وأصبح آخر المطاف صاحب حانة فى ليدن ، وخلال هذه الفترات استطاع أن يجعل من نفسه أفضل مصور الأشخاص فى الفن الهولندى باستثناء رمبرانت . وحين بلغ الثالثة والعشرين (١٦٤٩) تزوج مارجريت ابنة المصور جان فان جوين ، ولم تملك من المهر غير وجهها وقوامها ، ولكنهما أفاداه بعض الوقت نموذجين ملهمين . وكان ينقد أجرا حقيرا على صوره حتى أن صيدليا حجز (١٦٧٠) على كل الصور التى استطاع أن يجدها فى بيت ستين وباعها بالمزاد وفاء لدين قدره عشرة جولدينات . وصوره الأولى تسجل لذات السكارى وعقوباتها . وصورته « الحياة المنحلة (١٧) » وهى مثال ممتاز من صوره ، فيها امرأة نعسانة وأخرى نائمة من الشراب ، وطفل ينتهز الفرصة فيسرق من صوان ، وكلب يأكل من المائدة ، وراهبة تنطلق بعد دخولها الحانه فى عظة عن خطيئة شرب الروم ، وكل شىء فى الصورة مكون ومرسوم بنظام الفن وانسجامه رغم أنه يصور الفوضى . وموضوع أجمل من هذا يبعث الحياة فى صورة أخرى له أسيئت تسميتها بـ « معرض الوحوش (١٨) » ، يرى فيها فتاة صغيرة تطعم حملا باللبن ، ودجاج الحديقة يثب هنا وهناك ، وطاووس يدلى ذيله من شجرة ذابله ، والحمام يحط فى أعلاها ، ويمامة تحلق قادمة من الطريق . هذا كله لحن رعوى يجعل جميع معضلات الفلسفة تبدو تافهة لامعنى لها . انه الحياة ، وكل جزء له مبرره الكافى الذى يتجاهل المطلقات . وبعد أن تجاوز ستين فترة الحانة رسم مشاهد مشرقة للحضارة الهولندية : باطن بيوت مبهجة ، ودروس موسيقى ، وحفلات موسيقى ، ومهرجانات ، وأسر سعيدة ، والفنان نفسه ، يدخن فى « الصحبة المرحة (١٩) » ، أو يعزف على العود (٢٠) . فلما فتت فى عضده الأجور البخسة التى نقدها على عمله ، عاد الى بيع الجعة ، وراح يشرب ليبنسى ، ثم مات فى الثالثة والخمسين مخلفا أربعمائة صورة بائرة .

ونظرة إلى صورة واحدة رسمها جان فرميرا و سمها « رأس فتاة »[٢١] تكشف عن عالم وفن يكادان يناقضان عالم ستين وفنه . وهذه اللؤلؤة التى يفوق ثمنها اللآلىء بيعت بالمزاد عام ١٨٨٢ بجولدنين ونصف ، ويقدر ناقد قدير فى أيامنا هذه أنها « واحدة من اثنتى عشرة صورة هى أروع صور العالم [٢٢] » وواضح أن الفتاة من بيت طيب وأسرة كريمة ، عيناها خاليتان من الخوف ، لا يغشاهما حتى دهش الشباب الطبيعى ، فهى سعيدة فى هدوء ، متيقظة لموسيقى الحياة ؛ وقد قدمها الفنان لنا بصنعة دقيقة فى اللون والخط والضوء تجعل من الفرشاة أداة مدهشة للفهم والتعاطف .

وقد ولد فرمير فى ديلفت عام ١٦٣٢ ؛ وعاش هناك على قدر علمنا طوال حياته ومات فيها (١٦٧٥) بالغاً الثالثة والأربعين ، وكاد يكون معاصراً لسبينوزا تماما (١٦٣٢ — ٧٧) . تزوج فى العشرين ، وأنجب ثمانية أطفال ، وكان يتقاضى ثمنا طيبا على صوره ، ولكنه عكف عليها فى عناية مستنفدة للوقت ، وأنفق المال الكثير على شراء الصور ، حتى إنه مات مدينا ، واضطرت أرملته إلى التماس المعونة من محكمة التفاليس . غير أن الأربع والثلاثين صورة التى بقيت من صوره توحى بجو من رفاهية الطبقة الوسطى . وتظهره إحداها[٢٣] فى مرسمه لابساً طاقية رقيقة خفيفة ، « وجركينة » متعددة الألوان ، وجوارب طويلة متجعدة ولكنها حريرية ، وقد انتفخ ردفاه من النعمة . ولا ريب فى أنه سكن حياً راقياً فى ديلفت ، ربما فى مشارفها حيث استطاع أن يلتقى « نظرة على ديلفت [٢٤] » وفى هذه الصورة الشهيرة نحس بحبه الجم لموطنه . ويبدو أنه راض نفسه على البقاء فى بيته بقناعة أكثر مما نلحظه فى مصورى زماننا . فحب البيت يتجلى فى أكثر التصوير الهولندى ، ولكن البيت فى فن فرمير يصبح معبداً صغيراً ، والزوجة معتزة بالخدمات التى تؤديها . وفى لوحته « للمسيح مع مريم ومرثا »[٢٥] تشارك مرثا مريم فى الجلوس على المنصة . ولم تمد نساؤه تلك الحزم الثقيلة من اللحم التى نراها أحيانا فى الفن الهولندى ، ففيهن شىء

من التهذيب والحساسية . بل لقد تجدهن — كما ترى فى السيدة الجالسة فى صورة « السيدة والخادمة » (٢٦)— غاليات اللباس ، رقيقات القسمات ، مصففات الشعر فى عناية ، أو غنيات بالحرير وآلات الموسيقى ، كما فى صورة « السيدة الجالسة إلى العذراوية »(٢٧) (آلة موسيقية) . إن فرمير يصنع من الحياة العائلية ملحمة ، أو قصيدة غنائية ذات لحظات عائلية بسيطة طبيعية ، لا مشاهد جماعية ذات نشاط مختلط متعدد ، بل — فى أفضل ما رسم من لوحات — امرأة واحدة فقط ، تقرأ رسالة فى هدوء (٢٨) ، أو تكب على خياطتها(٢٩) أو تتحلى بقلادة ، أو تنام على خياطتها(٣٠) ، أو مجرد صبية وابتسامتها (٣١). لقد سجل فرمير بفن كامل شكرانه لامرأة طيبة وبيت سعيد . ولكنه أوشك أن يكون نسياً منسياً فى القرن الثامن عشر ، ونسبت روائعه الصغيرة إلى دى هوخ ، أو تيربورخ ، أو رمبرانت ، ولم يبعث من مثواه إلا فى ١٨٥٨ . واليوم لا يعلو على اسمه غير اسم رمبرانت وهالس فى التصوير الهولندى .

بقى شىء واحد تفتقده فى هؤلاء المصورين للحياة اليومية — هو حياة الطبيعة التى أحاطت بالمدن المتطفلة عليها . فايطاليا ، وبوسان فى ايطاليا ، كانا قد التقطا شيئا من الهواء النقى والحقول الطلقة ، وستكتشفهما انجلترة فى القرن التالى ، اما المصورون الهولنديون فقد تركوا الآن برهة بيوتهم وباطنها النظيف او المرح ، ووضعوا حواملهم ليقتنصوا سحر الغدران المترقرقة ، وطواحين الهواء الساكنة الوادعة ، والمزارع المزهرة ، والأشجار التى تخجل تعجلنا المحموم ، والمراكب الغريبة تتهادى فى الثغور المزدحمة ، والسحب التى تلون السماء بشتى الأشكال . والعالم كله يعرف لوحة « طريق ميدلهارنس » التى رسمها مايندرت هوبيما — وهى منظور يتلاشى فى فضاء لا نهاية له ، ولكن اجمل منها بكثير لوحته « طاحونة المساء ذات السقف الاحمر الكبير (٣٢) » . وقد وجد ألبرت كويب الالهام فى الابقار السمينة تخوض المستنقعات الوافرة الخضرة (٣٣) ، والخيل تقف طامئة عند خان ، وفلوع

المراكب تختفى فوق البحر (٣٤). وتعجب سليمان فان رويسدال من ارتعاش المياه التى تعكس وتقلب صورة الزوارق والأشجار (القناة والمدية)(٣٥)، وعلم ابن أخيه أن يتفوق عليه .

أما ابن أخيه هذا ، واسمه يعقوب فان رويسدال ، فقد ترعرع فى هارلم ، وترك لنا « منظرا لهارلم (٣٦) » لا يقل وقعا فى نفس الناظر عن لوحة فرمير « ديلفت » ، ويفضلها نقلا لتمقد المدينة الكبيرة بما فيه من اتساع وزحمة . ثم انتقل إلى امستردام واصبح عضوا فى الاخوان المينونيين ، ولعل تصوفهم أعان فقره على إشعاره بالجانب المأساوى للطبيعة التى أحب أن يغنى فيها . وعرف أن تلك الحقول ، والغابات ، والسماوات التى تمد بالسلام ، تستطيع كذلك أن تدمر ، وأن للطبيعة نزوات من الغضب قد تقلع فيها الرياح المجنونه حتى أعتى الاشجار واصلبها وتمزقها من جذورها ، وأن الشقوق المهلكة قد تتكون فى الارض الطيبة ، وأن البرق قد ينفث ناره القتاله على كل شكل من أشكال الحياة فى لامبالاة عابثة . فصورته « مسقط الماء على الجرف (٣٧) » ليست أنشودة رعوية اتاهى ثورة البحر الغاضبة على صخور أقسم أن يحطمها ويغرقها أو يبر بها ، ولوحة « العاصفة (٣٨) » هى البحر يلطم عدوه اليابس فى غضب ، ولوحة « الشاطىء (٣٩) » لاتصور شاطئا للهو بل ساحلا كدرته أمواج عالية تحت سماء مكفهرة ، ولوحة « الشتاء (٤٠) » لاتعرض مرح التزحلق ، بل كوخا حقيرا يرتجف تحت غيوم منذرة ، وحفره الرائع « اشجار البلوط » يجردهامن وقارهاليرى أغصانها شعثاء أوعارية ، وسيقانها وقد أثخنها الزمن القاسى بالجروح وشوه شكلها . ولوحة « جبانة اليهود (٤١) » هى ذاتهاصورة للموت — أسوار متهدمه ، وشجرة تموت ، ومياه فيضان تجرى فوق القبور . وليس مرد هذا كله أن رويسدال كان دائما مكتئبا ، ففى لوحة « حقل القمح (٤٢) » نقل باحساس عميق هدوء طريق ريفى ، وبركة المحاصيل الوفيرة ، وفرحة الفضاء المترامى . ويبدو أن الهولنديين أحسوا أن أرضهم ومناخهم قد افترت عليهما صور رويسدال ، فلم ينقدوه عليها الأأجرا بخسا .

وتركوا صاحبها يموت فى ملجأ للفقراء . واليوم يضعه بعضهم فى مكان لايفضله فيه غير بوسان بين مصورى الطبيعه فى جميع العصور (٤٣).

ثروة لا حد لها فى حجرة صغيرة — رمبرانت وهالس ، فرمير ورويسدال ، سبينوزا وهويجنس ، ترومب ودرويتر ، جان دى ويت ووليم الثالث ، كلهم فى زمن واحد داخل حدود ضيقة ، يكدحون غير آمنين خلف الكثبان ، يصونون فنون السلم وسط نذر الحرب . تلك هى هولندة فى القرن السابع عشر . و « ليست العبرة بكبر الحجم » .

٤ — جان دى ويت : ٦٢٥ - ٧٢

بعد أن ظفرت الأقاليم المتحدة باستقلالها عكفت عقب معاهدة وستفاليا على طلب المال واللهو والحرب . كان أهلها أقل أمم الأرض اكتفاء بأنفسهم ، فمحاصيل أرضها لاتقيم أكثر من ثمن سكانها ، وحياة البلاد تعتمد على التجارة الخارجية واستغلال المستعمرات ، وهذان يعتمدان على بحرية قادرة على حماية السفن والمستوطنات الهولندية . وكان تفوق أسبانيا البحرى قد ولى بهزيمة الأرمادا الأسبانية ، ونشرت البحرية الإنجليزية التى ازدهاها النصر قلوعها فوق أرجاء مترامية من المحيط . ومالبث التوسع التجارى الإنجليزى أن اصطدم بالسفن الهولندية والمستوطنات الهولندية فى الهند وجزر الهند الشرقية ، وأفريقيا ، وحتى فى « امستردام الجديدة » التى ستصبح نيويورك . وأحس بعض الانجليز ، الذين لم تهدأ فيهم بعد حمية هوكنز ودريك ، أن هؤلاء الهولنديين الجبابرة ينبغى أن يحل محلهم بريطانيون جبابرة ، وأن هذا ميسور بنصر أو نصرين بحريين . وقد ذكر إيرل كلارندون فى تقرير له « أن التجار ألفوا الحديث عن الفائدة الكبرى التى يجنونها من حرب سافرة مع الهولنديين ، وعن سهولة قهرهم ، وعن حجم التجارة التى يمكن أن ينقلها الانجليز بعد ذلك » (٤٤) وراقت كرومويل الفكرة .

ففى ١٦٥١ أقر البرلمان الانجليزى قانونا للملاحة يحظر على السفن الاجنبية أن تجلب لأنجلترة أى بضاعة إلا ماينتجه بلدها . وكان الهولنديون يشحنون إلى انجلترة حاصلات مستعمراتهم ، فتوقفت الآن هذه التجارة الرابحة . وأرسلوا بعثة إلى لندن للحصول على بعض التعديل فى القانون ، فلم يكتف الأنجليز برفض الطلب ، بل طالبوا بأن تخفض المراكب الهولندية أعلامها إذا التقت بالمراكب الانجليزية فى «المياه الانجليزية» (أى جميع المياه بين انجلتره وفرنسا والأراضى المنخفضة) اعترافاً بسيادة الانجليز على تلك البحار . وعاد المبعوثون الهولنديون بخفى حنين إلى لاهاى . وفى فبراير ١٦٥٢ استولى الانجليز على سبعين سفينة تجارية هولندية وجدوها فى «المياه الانجليزية» . وفى ١٩ مايو التقى أسطول انجليزى بقيادة روبرت بليك بأسطول هولندى بقيادة مارتن ترومب ، ورفض ترمب خفض علمه ، فهاجمه بليك ، وانسحب ترومب . وهكذا بدأت «الحرب الهولندية الأولى» .

وأوشكت انفصالية الأقاليم ، المفروض أنها متحدة ، أن تجر عليها الدمار . ذلك أن الزعامة الحربية الموحدة التى أتاحها لها من قبل أمراء أورنج كانت قد انقطعت ، وأصبح المجلس التشريعى للولايات جمعية للمناقشة والجدل بدلا من أن يصبح دولة . أما الانجليز فكانوا يملكون حكومة قوية ممركزة يرأسها رجل شديد البأس هو كرومويل ، وكان لهم بحرية أفضل ، وقد أوتوا جميع الميزات التى حبتهم بها الجغرافيا والرياح الغربية السائدة . فدمروا أساطيل الصيد الهولندية ، واستولوا على المراكب التجارية الهولندية ، وهزموا أمير البحر الهولندى درويتر تجاه ساحل كنت . وانتصر ترومب على بليك تجاه دنجينيس (٣٠ نوفمبر ١٦٥٢) ، ولكنه مات فى المعركة فى يوليو التالى . وكانت نتيجة سنة واحدة من الحرب إثبات تفوق انجلترة بالبرهان الدامغ . وكاد حصار الإنجليز للساحل الهولندى يشل الحياة الاقتصادية فى الأقاليم المتحدة . وأشرف الألوف من سكانها على الهلاك جوعا وهددوا بالتمرد .

فى هذه المرحلة الحاسمة التعسة اضطلع جان دى ويت بزعامة البلاد ، وكان ينتمى إلى أسرة بعيدة العهد بالتفوق فى التجارة والسياسة الهولنديتين . وقد انتخب أبوه يعقوب دى ويت عمـــدة على دوردشت ست مرات . أما جان فقد تلقى كل التعليم الميسور ، وجاب أرجاء فرنسا مع أخيه الأكبر كورنيليس ، وانتقى بكرومويل فى إنجلترة ، ثم استقر فى لاهاى محامياً (١٦٤٧) . وبعد ثلاث سنوات كان أبوه واحـدا من الزعماء الجمهوريين الذين أودعهم السجن وليم الثانى أمير أورنج ، رئيس الدولة ، رغبـــة فى توطيد سلطته السياسية والحربية على جميع الأقاليم . فلما مات وليم الثانى (١٦٥٠) رفض المجلس التشريعى قبول ابنه الذى ولد عقب وفاته خلفاً له ، ربما متأثراً فى ذلك بإقامة انجلترة حكومة جمهورية فيها (١٦٤٩) بصورة بدا أن التوفيق حالفها ، وألغى منصب رئيس الدولة . وأصبحت المسرحيـــة الداخلية للأقاليم المتحدة صراعاً بين الروح التجارية الجمهورية المسالمة التى يمثلها دى ويت ، والروح الأرستقراطية العسكرية التى أزمع أن يحييها بعد قليل الشاب المتحمس وليم الثالث .

وفى ٢١ ديسمبر ١٦٥٠ ، انتخب جان دى ويت — وهو لا يزال فى الخامسة والعشرين — كبيراً لولاة دوردرشت ، وممثلا لها فى المجلس التشريعى للأقاليم المتحدة . وفى فبراير ١٦٥٣ عينه المجلس حاكماً أعلى للجمهورية ، وناط به مهـــمة عسيرة هى مفاوضة إنجلترة المنتصرة على الصلح . وكان كرومويل قاسياً لا يرحم ، فطالب بأن يعترف الهولنديون بالسيادة الانجليزية ويحيوا العلم الانجليزى فى القنال الانجليزى ، وبأن يسلموا بحق القباطنة الانجليز فى تفتيش السفن الهولندية فى البحر ، وبأن يؤدوا رسـوماً نظير امتياز الصيد فى المياه الانجليزية ، وبأن يدفعوا تعويضاً عن قتل الهولنديين للانجليز فى أمبوينا عام ١٦٢٣ ، وبأن ينحوا بصفة دائمـــة عن الوظائف أو السلطة جميع أفراد بيت أورنج — الذى قطع على نفسه عهداً بأن يرد أسرة ستيوارت إلى عرش انجلترة لما بينه وبينها من مصاهرة . وحذف

دي ويت هذا البند الأخير من المعاهدة كما قدمت للمجلس التشريعي وكما تصدق عليها منه (٢٢ أبريل ١٦٥٤) ، ثم أقنع المجلس التشريعي لاقليم واحد — هو اقليم هولندة — بقبول المعاهدة بما فيها هذا البند . ولم يغتفر له وليم الثالث فعلته هذه قط .

ثم وطد دي ويت مركزه بالزواج من ونديلا بيكر الغنية ، وأصبح عن طريقها صهرا لأمراء التجارة في أمستردام ، وبتأييدهم شغل اهم المناصب في هولندة هو وأبوه ، وأخوه ، وبنو عمومته ، وأصدقاؤه ؛ وسرعان ماقبض على زمام الحكم كله في الاقليم . وقبلت أقاليم أخرى زعامته على مضض ، لأن هولندة التي أغنتها موانيها كانت تدفع سبعة وخمسين في المائة من نفقات الاتحاد ، وتقدم معظم الاسطول الهولندي ، ولم يكن محبوبا من جماهير الشعب . ولكن حكمه كان مستنيرا وكفؤا . فقد حد من النفقات الباهظة ، وخفض الفائدة على الدين الفدرالي ، وأجرى فحصا شاملا للأسطول ، وبنى سفنا أفضل ، ودرب عاملين جددا في البحرية . واذ كان يعكس مشاعر التجار ، فانه كافح في سبيل السلام ولكنه استعد للحرب . وفي ١٦٥٨ ، ثم في ١٦٦٣ ، أعيد انتخابه حاكما اعلى للاقاليم المتحدة . وقد وقع من نفوس المراقبين باخلاصه لمهام الحكم ، وببساطة مسلكه وتواضعه ، وبنقاء حياته العائلية . ويسرت له ثروة زوجته العيش في منزل فخم يستطيع أن يستقبل فيه المبعوثين الأجانب في جومهيب ، ولكن ذلك المنزل كان مركزا للثقافة الهولنديه أكثر منه مركزا للمظهر المترف ، فقد امتزج فيه الشعر بالسياسة ، ونوقش العلم والفلسفة ربما بحرية لايطيقها ناخبودي ويت الكلفنيون . وحتى سبينوزا ، ذلك المهرطق المرهوب ، وجد صديقا وفيا وحاميا له في الحاكم الأعلى .

لقد كانت مأساته دائما أنه أحب السلام أكثر من الحرب ، بينما كان جيران الجمهورية الغنية يكتلون قوام للقضاء عليها . وفي ١٦٦٠ رد تشارلز

الثانى الى عرش انجلترة ، فأوصى جان دى ويت مشددا بأن يرضى عن ابن أخته وليم أورنج الثالث ، وبعد قليل طالب بالغاء « قانون الإبعاد » الذى أقصى بمقتضاه وليم عن المناصب ، ووافق دى ويت وهكذا مهد الملك الاستيوارتى لسقوط أسرة ستيوارت على غير قصد منه . وفى اكتوبر ١٦٦٤ ، استولت حملة انجليزية على مستعمرة نيو أمستردام الهولندية ، وأطلقت عليها اسما آخر هو نيويورك تكريما لدوق يورك (جيمس الثانى مستقبلا) وكان يومها قائد البحرية الانجليزية . واحتج المجلس التشريعى للأقاليم المتحدة ، ولم تعبأ إنجلترة بالاحتجاج ، وفى مارس ١٦٦٥ بدأت الحرب الهولندية الثانية .

وقد برر الموقف ما سبق أن اتخذه دى ويت من استعدادات . ذلك أن ضعف القيادة قد انتقل من المجلس التشريعى إلى حكومة تشارلز الثانى الغافلة العاجزة ، وبينما كان الملك المرح يراقص خليلته ، ظفر دى ويت بالثناء حتى من أعدائه على الهمة والإخلاص اللذين بذلهما لكل نواحى التنظيم الحربى وتفاصيله . فقد أبحر غير مرة مع الاسطول ، وعرض نفسه لكل مخاطر المعركة ، وألهم الملاحين بشجاعته وغيرته . ولم تكن البحرية الهولندية إلى ذلك الحين كفؤا للبحرية الانجليزية فى السفن أو الرجال أو النظام ، فأوقعت البحرية الانجليزية بقيادة دوق يورك هزيمة حاسمة بالبحرية الهولندية فى أول لقاء كبير فى الحرب (لوفستوفت ، ١٣ يونيو ١٦٦٥) . على أن المواطنين الهولنديين الصابرين أعادوا بناء أسطولهم وولوا عليه رجلا من أقدر وأجرأ أمراء البحر الذين عرفهم التاريخ . وفى يونيو ١٦٦٧ قاد هذا الرجل ، وهو ميشيل أدريانسزون درويتر ، ستا وستين سفينة إلى نهر التيمز ، واستولى على قلعة شيرنيس (على نحو أربعين ميلا شرقى لندن) ، وحطم الحواجز التى تعترض الدخول فى نهر ميدواى (الذى يصب فى التيمز عند شيرنس) وأخذ ، أو أحرق ، أو أغرق ست عشرة سفينة حربية كانت راسية هناك دون تأهب لمثل هذا الزائر الوقح (١٢ يونيو ١٦٦٧) . وإذ

لم يكن بتشارلز الثانى ولع بالحرب ، فقد أمر دبلوماسييه أن يعرضوا على الهولنديين صلحاً مقبولا . وفى ٢١ يوليو ١٦٦٧ وقعت الدولتان معاهدة بريدا ، وبمقتضاها نزل الهولنديون لانجلترة عن نيويورك التى خالوها غيرهامه ، ووافقوا على أن يحيوا العلم الانجليزى فى المياه الانجليزية ، ونزلت انجلترة للهولنديين عن مستعمرة سورينام (جيانا الهولندية فى أمريكا الجنوبية) وعدلت قانون الملاحة لصالح التجارة الهولندية . وكانت المعاهدة نصراً معتدلا لدى ويت وبلغت به قمة نجاحه .

غير أنه ارتكب الآن سلسلة من الأخطاء القاتلة ، فقد زاد من تنفير مؤيدى وليم الثالث بأن أجاز فى المجلس الإقليمى لهولندة (٥ أغسطس ١٦٦٧) « مرسوماً دائماً » يمنع أى حاكم لأى أقليم من تولى قيادة الجيش أو البحرية العليا للاتحاد . فاستقال على إثر ذلك أتباع الأمير الشاب من الجيش وتركوه خلوا من القواد المحنكين . ولسوء الحظ وقع هذا الحدث ، الناجم عن المنافسة بين أسرتين ، بينما كانت فرنسا تغزو الأراضى المنخفضة الأسبانية ، فهددت بذلك المصالح الحيوية للأقاليم المتحدة . فلو أن فرنسا هيمنت على الأقاليم الجنوبية لأسرعت بفتح الشلت للتجارة الأجنبية من جديد ، فإذا انتعشت بذلك أنتورب تحدت السيادة التجارية لأمستردام ، وأصبح اقتصاد الأقاليم الشمالية كله فى خطر . ثم كم من الزمن سيقف لويس الرابع عشر عند الحدود الهولندية لا يتجاوزها ؟ لو أن رأيه استقر على أن يلتهم الأقاليم المتحدة ، ويستولى على مصاب الراين ، لما بقى للبلد فى الواقع وجود ، ولقضى على البروتستنتية الهولندية قضاء مبرماً .

وعرض دى ويت على الملك المعتدى سلسلة من الحلول الوسط ، ولكنه رفضها . فاتفق مع أنجلترة (٢٣ يناير ١٦٦٨) ، ثم مع السويد ، على حلف ثلاثى للدفاع المشترك ضد التوسع الفرنسى . ووافق لويس فى لباقة على إنهاء « حرب الأيلولة » (الوراثة الأسبانية) شريطة أن يستبقى نطاقاً من المدن

والحصون التى استولى عليها فى فلاندر وإينو . وارتضت هذه الشروط أنجلترة والسويد ، ثم الأقاليم المتحدة ، فى معاهدة إكس — لا - شابل (٢ مايو ١٦٦٨) . وبدا أن دبلوماسية دى ويت جنبت البلاد الخطر ، وفى يوليو انتخب للمرة الرابعة ليشغل منصب الحاكم الأعلى للجمهورية فترة خمس سنوات أخرى .

ولكنه أخطأ استقراء سياسات ملكى فرنسا وأنجلترة . ذلك أن لويس لم يغتفر للهولنديين قط تدخلهم فى غزوه للأراضى المنخفضة الأسبانية . فأقسم أنه « إن ضايقته هولنده كما ضايقت الأسبان فسيرسل رجاله بالمجارف والمعاول ليقذفوا بها فى البحر[٤٥] » ، ربما بفتح الجسور البحرية عليها . كانت تغيظه الجمهورية ، وكان يطمع فى الراين ، فعقد النية على تدمير تلك ، والسيطرة على هذا . وزادت الصراع شدة حرب التعريفات الجمركية التى نشبت بين الخصمين ، فقد فرض كولبير رسوما مانعة على البضائع الهولندية التى تدخل فرنسا ، ورد الهولنديون عليها بمثلها . ولكن الذخيرة الحربية استثنيت استثناء بارعاً من هذه القيود ، ذلك أن لوفوا ، وزير الحربية الفرنسى ، أقنع رجال الصناعة الهولنديين بأن يبيعوه مقادير هائلة من العتاد الحربى[٤٦] ، وفى الوقت نفسه امتنع رجال الأعمال الهولنديون عن الموافقة على الضرائب التى أراد دى ويت فرضها لتزويد الجيش بالأمداد والمؤن . وأثبت السلك الدبلوماسى الفرنسى حذقه ، أو ثراءه ، بعزله إنجلترة والسويد عن تحالفهما مع الأقاليم المتحدة . فوافق تشارلز الثانى فى معاهدة دوفر السرية (١ يونيو ١٦٧٠) على التخلى عن الحلف الثلاثى والانضمام إلى لويس فى حربه مع الهولنديين . أما السويد فقد انسحبت من الحلف فى ١٦٧٢ لحاجتها للمعونة الفرنسية ضد الدنمرك وألمانيا ، ووعدت أسبانيا ، والامبراطورية ، وبراندنبورج ، الجمهورية بالمساعدة ، ولكن ما كان تحت تصرفها من قوات كان أضأل أو أبعد من أن يكون له كبير وزن أمام

القوات المجندة الضخمة التي أطلقت الآن على الأقاليم المتحدة براً وبحراً . وعاد دي ويت يعرض التنازلات والحلول الوسط ، فرفضها لويس

وفى ٢٣ مارس ١٦٧٢ بدأت إنجلترة الهجوم على الجمهورية الهولندية ، وفى ٦ أبريل أعلنت فرنسا عليها الحرب . وسرعان مازحف نحو ١٣٠٫٠٠٠ مقاتل على الدولة الصغيرة يقودهم تورين ، وكونديه ، ولسكسمبور ، وفوبان ، ولويس نفسه . يقول فولتير « لم يشهد الناس من قبل جيشاً فخماً كهذا الجيش(٧) » ، واخترقت القوة الفرنسية الرئيسية ، باستراتيجية بارعة وغير متوقعة ، الأراضى الألمانية — مهدئة ثائرة القرى بـ « الهدايا » — لتهاجم النقط الأضعف تحصيناً . وفى ١٢ يونيو ، وتحت نيران الهولنديين وبصر الملك ، عبر الفرنسيون الراين ، وهم يسبحون عرض الأقدام الستين التى لم يسمح لهم عمقها أن يخوضوها ، وأصبح هذا حدثاً محبباً تتناوله الصور والأيقونات الملكية . وزحفت الجيوش الملكية شمالا إلى قلب الأقاليم المتحدة ، فاستولت بسهولة على المدينة تلو المدينة . واستسلمت أوترخت دون مقاومة . وأذعن أقليما أوفريسيل وجلدرلاند ، ولم يبق بعد قليل غير أمستردام ولاهاى . ولم تجد كثيراً تلك الهزيمة التى أوقعها دورويتر فى ٦ يونيو بالأسطولين الإنجليزى والفرنسى مجتمعين فى خليج ساوثوولد . وطلب دى ويت الصلح ، فطالب لويس بتعويض ضخم ، وبسيطرة الفرنسيين على جميع الطرق الهولندية البرية والبحرية ، وبرد الكاثوليك إلى جميع أرجاء الجمهورية . ورفض الهولنديون هذه الشروط لأنها لا تفضل العبودية ، فلجأوا إلى دفاعهم الأخير : وفتحوا الجسور ، وأدخلوا البحر عدوهم القديم صديقاً منقذاً ، وما لبثت المياه أن تدفقت على اليابس ، وتقهقر الفرنسيون عاجزين أمام هذا الفيضان الذى أخذهم على غرة .

ومع هذا فقد خربت البلاد ، فكانت جيوش أسقف مونستر وناخب كولونيا ، المتحالفين مع لويس ، تزحف دون عائق على إقليم أوفريسيل ،

والسفن الفرنسية والإنجليزية تغير على التجارة الهولندية رغم أنف درويتر ، وأشرفت الحياة الاقتصادية للدولة المحاصرة على الانهيار . أما دى ويت فقد كافح خلال هذه الشهور القاسية كما لم يكافح أى رجل قبله فى تاريخ هولنده — فجمع الأموال ، وجهز الأسطول وزوده ، ووقف إلى جوار درويتر فى معركة خليج ساوثوولد ، وحاول بالبعثة تلو البعثة أن يفاوض على صلح ينقذ وطنه . وفى يونيو ١٦٧٢ عرض على لويس أن يتنزل له عن ماسترشت واجزاء من برابانت الهولندية ، وأن يدفع كل نفقات الحرب . ولكن لويس ازدرى هذا العرض أيضاً ، ولما سمع مواطنوه بأمر العرض نددوا به رجلا يبيت استسلام الخيانة للويس(٨) . وألقى عليه الشعب الآن كل تبعة ما أصابهم من نكبات . واتهموه بالثقه الساذجه المستهترة فى وعود تشارلز الثانى ولويس الرابع عشر ، ورموه بتعيين أقاربه فى أكثر من عشر وظائف مجزية ، وفوق هذا كله لم يستطيعوا أن يغتفروا له حرمان بيت اورنج من امتيازاته الحربية والسياسية التى حفظت على الأقاليم الهولندية حريتها طوال قرن من الزمان . ثم لاموه على عجز قواده البورجوازيين وجبنهم . ورماه القساوسة الكلفنيون بانه ملحد مقنع ، وتابع لديكارت وصديق لسبينوزا (٤٩) . وحتى طبقات التجار التى كانت من قبل سنده الأكبر انقلبت عليه الآن واتهمته بانه منظم الهزيمة .

وشاركه أخوه كورنيليس فى تلقى بغض الجماهير وشتائمها ، وهو الذى قاسمه من قبل مكافآت المنصب وأعباء الحرب ومخاطرها . وفى ٢١ يونيو ١٦٧٢ بذلت محاولة فاشلة لاغتيال جان ، وبعد يومين تلتها محاولة أخرى لقتل كورنيليس . وفى ٢٤ يوليو قبض موظفو لاهاى على كورنيليس بتهمة التامر على أمير اورنج وفى ٤ أغسطس استقال جان من منصبه حاكما أعلى . وفى ١٩ أوغسطس عذب كورنيليس وحكم عليه بالنفى . وشق جان طريقه خلال المدينة المعادية الى سجن الجيفانجينبورن ليرى أخاه رغم أنه حذربانه يعرض حياته للخطر . ومالبث جمع من

الغوغاء أن احتشد خارج السجن يحرضه رئيس شرطة وصائغ وحلاق . وكان هناك حارس مدنى كاف برد الغوغاء ولكنه شاركهم حقدهم على الأخوين دي ويت ، فلم يبد أي مقاومة حين حطموا أبواب السجن واندفعوا الى داخله . وقبضوا على جان وكورنيليس ، وجروهما الى الميدان ، وضربوهما حتى الموت ، وعلقوا جثتيهما على عمود نور ورأساهما منكسان (٢٠ أغسطس ١٦٧٢) . وماتت الجمهورية الهولندية بموتهما ، وعاد بيت أورنج الى السلطة من جديد .

٥ - وليم أورنج الثالث

نشأت مارى ستيوارت ولدها على لون مكتئب من ضبط النفس يترقب فى صمت فرصته حتى يأتى التجلد بالنصر ، وذلك بعد أن حطم روحها إعدام أبيها تشارلز الأول (١٦٤٩) ، وموت زوجها الشاب وليم أورنج الثانى (١٦٥٠) ، والغاء منصب رئاسة الدولة ، واقصاء بيت أورنج عن الوظائف . هذا الصبي الهزيل الجسد ، الذى أحدق به فى نموه الأعداء المكلفون بحراسته ، والذى ورث رغم ذلك عن وليم أورنج الأول شعاره «سأقاوم» — نقول انه شب فتى عليلا يخفى وراء وجهه الجامد نارا مستعرة من العزيمة والثأر . واذ كان صارما ، مؤدبا ، مجاملا فى برود ، فقد زهد فى اللهو والمرح ، ومارس الرياضات الخلوية علاجا لصداعه المتكرر ولتعرضه لنوبات الاغماء . لقد كان إناء ضعيفا لتلك الروح التى ستستولى على عرش انجلترة وتؤدب ملك فرنسا .

وذهبت أمه الى انجلترا فى ١٦٦٠ ابتهاجا بتتويج أخيها ، وماتت هناك بالجدري فى ليلة عيد الميلاد . وفى ١٦٦٦ أعلنت حكومة اقاليم هولنده الأمير ذا الستة عشر عاما قاصرا تحت وصاية الدولة ، واستبدل جان دي ويت بأوصيائه ومعلميه المحبوبين اشخاصا اكثر استجابة لسياسة المجلس

الاقليمى(٥٠). وكان كره وليم لدى ويت يزداد على الايام . وفى قمة سلطان جان ، أفلت الأمير من رقابة أوصيائه الجدد وركب جواده من لاهاى الى بيرجن أوب - زوم (١٦٦٨) ، ثم استقل زورقا الى زيلنده ، وكانت أكثر الأقاليم ولاء لأجداده وحياه سكان عاصمة مدلبورج بمظاهرات كبيرة تفيض حبا واخلاصا . فتولى دون تردد أو مقاومة رئاسة لمجلس الاقليمى لزيلندة. فلما عاد الى لاهاى أعلن انه بلغ الآن رشده فى عيد ميلاده الثامن عشر (٤ نوفمبر ١٦٦٨) ، وأنه منذ الآن سيستغنى عن الأوصياء الذين عينهم له مجلس هولنده . ولكن المجلس رفض سحبهم ، فطردهم ، ولكنهم بقوا . وترقب وليم فرصته.

وقد واتته حين اكتسحت الجيوش الفرنسية والألمانية الأقاليم الهولندية ، واستسلمت الجيوش الهولندية بلدا بعد بلد ، وبدا أن لاهاى ذاتها عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، وعين المجلس التشريعى وليم قائدا عاما للاتحاد (٢٥ فبراير ١٦٧٢) ، مذعنا لمطالب العسكريين ، ومؤملا أن تعود الى الأمة وحدتها ومعنويتها برد بيت أورنج الى مكان القيادة وفى ٢ يوليو انتخب مجلس زيلندة وليم حاكما لاقليمهم ، ضاربا بالمرسوم الدائم عرض الحائط ، وفى ٤ يوليو حذا مجلس هولنده حذوه ، وفى ٨ يوليو عين قائدا أعلى لقوات الاتحاد المسلحة فى البر والبحر . وقد ظهر معدنه حين عرض ملك فرنسا الصلح نظير تعويض بلغ ستة عشر مليون فلورين ، والنزول عن مساحات كبيرة لفرنسا ، ومونستر ، وكولونيا ، وقدم عرض سرى بالاعتراف بوليم ملكا على الباقى .واتجه اليه مجلس هولنده يطلب النصيحة فأجاب ، « خير لنا أن نقطع إربا من أن نقبل هذه الشروط (٥١) . » وحين حضر دوق بكنجهام الثانى من انجلترة ليحث وليم على الصلح وقال له « الا ترى أن وطنك قد ضاع ؟ » أجاب « ان وطني فى خطر عظيم ، ولكن هناك سبيل مؤكد لمنعه من الضياع ، وهو الموت فى آخر خندق(٥٢) » . ومع ذلك فى حكمة تستغرب من فتى فى الثانية والعشرين ، اشار بالمفاوضات الصابرة المجاملة مع الانجليز ، ولعله رأى آنئذ أن فى التعاون

بين الانجليز والهولنديين الأمل الوحيد لكبح اعتداءات فرنسا . واتخذ من التدابير ما يكفل توثيق الروابط بين الأقاليم المتحدة ، والامبراطورية ، وبراندنبورج . وكانت الخطوط العريضة لتحالف الأعظم تتشكل فى ذهنه .

ومضى الى المقر الرئيسى للجيش ، لذلك كان غائبا عن لاهاى حين قتل الأخوان دى ويت . والظاهر أنه لم يكن ضالعا فى تدبير هذه الفعلة ، التى ربما لم يدبرها أحد ، ولكنه لم يخف ارتياحه حين سمع بنبئها ؛ وحمى الرجال الذين قادوا الغوغاء ورتب لهم معاشا (٥٣) . ثم حاول الآن أن يكون قائدا كفؤا ، فلم يوفق قط فى محاولته ، غير أن المقاتلين المحنكين الذين انضووا تحت لوائه فى حماسة أعادوا تنظيم الجيش والبحرية ، وبدأت الانتصارات ترجح الهزائم ، وتفوق درويتر وكورنيليس ترومب (بن مارتن) على الأسطولين الانجليزى والفرنسى فى شونفيلت وكيكدوين (١٦٧٣) ، وصد الغزاة الألمان عند جرونجن ، واستولى وليم على ، ناردن ، وطهرت أقاليم جلدرلاند وأوترخت ، واوفريسل ، من العدو . وراح الفرنسيون يتقهقرون فى كل مكان تقريبا ، وأنقذت الأقاليم المتحدة ، مؤقتا على الأقل ، فهللت لوليم منقذا لها .

ثم أضاف الى هذه الانتصارات انتصارات دبلوماسية . ففى ١٩ فبراير ١٦٧٤ أقنع انجلترة بأن تبرم معه صلحا منفردا إذ وافق على أن يدفع لها تعويضات حربية قدرها مليونا فلورين ؛ وفى ٢٢ أبريل و ١١ مايو وقع معاهدتين مع مونستر وكولونيا ، ثم اكد التحالف القائم بين الأقاليم المتحدة ، وأسبانيا ، وبراندنبورج ، الدنمرك ، والامبراطورية ، ضد فرنسا التى أصبحت الآن معزولة . وكانت الضربة الأخيرة ظفره بيد مارى ، كبرى بنات جيمس دوق يورك وشقيق ملك انجلترة . وتقاربت الآن الدولتان البروتستنتيتان الكبريان ، وراحت الشبكة تحكم خيوطها حول فرنسا ، ولم يكن أمرا هينا أن يكون لمارى حق فى وراثة العرش الانجليزى لايتقدم عليه غير حق أبيها فيه . ونادر فى التاريخ أن دبر حاكم صغير السن كوليم مثل هذه الخطط البعيدة النظر ، ولا حقق لها نجاحا كهذا النجاح .

على أن الفرنسيين جددوا هجومهم خلال ذلك ، فاستولوا على إيبر وغنت ، وزحفوا نحو الحدود الهولندية . وهزم أسطول فرنسي درويتر تجاه شاطىء صقلية (٢٢ أبريل ١٦٧٦) ، وبعد أسبوع مات درويتر متأثراً بجراحه . وعرض لويس الصلح على الأقاليم المتحدة بشروط مغرية : أن يرد كل الأراضي الهولندية التي استولى عليها الفرنسيون ، شريطة أن توافق الأقاليم المتحدة على احتفاظه بفرانش - كونتيه واللورين . واحتج الامبراطور ، وبراندنبورج ، والدنمرك على هذا الصلح ، وأيدهم وليم ، ولكن المجلس التشريعي الذي غلبت عليه المصالح التجارية تغلب على رأيه ، وتخلى عن حلفائه ، ووقع مع فرنسا صلح نيميجن المنفصل (١٠ أغسطس ١٦٦٧) .

أما وليم فقد نظر إلى الصلح على أنه مجرد هدنة ، وكافح طوال السنوات العشر التالية ليعيد بناء الحلف وكبح التجار الهولنديون طمحه العسكرى ، محتجين بأن الأقاليم المنهكة فى حاجة لأن تستريح من النضال ، وأن الرخاء فى طريقه إليها . على أن حدثين وقعا عام ١٦٨٥ فاستغلهما وليم ذلك أن لويس ألغى مرسوم نانت ، فاحتشد الهيجونوت المضطهدون فى الأقاليم المتحدة ، وتزعموا دعوة نشيطة لتوحيد الدول البروتستينية ضد فرنسا . وفى انجلترة كشف جيمس الثانى ، بعد أن تولى عرشها ، عن أمله فى رد الأمة إلى الكثلكة ، فدبر البروتستنت الإنجليز عزله ، وبذلك يحل حق مارى زوجة وليم فى العرش . وكان وليم قد عشق اليزابيث فيلييه ، صديقة مارى(٥٤) الحميمة ، ولكن مارى غفرت له ، ووافقت على طاعة زوجها بوصفه ملكاً أن هى أصبحت ملكة على انجلترة وفى ١٦٨٦ أفلح وليم فى تنظيم حلف مع الامبراطورية ، وبراندنبورج ، وأسبانيا ، والسويد ، للدفاع المشترك . وفى ٣٠ يونيو ١٦٨٨ دعا الزعماء البروتستنت الانجليز وليم ومارى إلى دخول انجلترة بقوات مسلحة ومساعدتهم على خلع ملكهم الكاثوليكى . وتردد وليم ، لأن لويس الرابع عشر كان تحت يده جيش عرمرم ينتظر قرار الملك ليهاجم الأراضى المنخفضة أو الامبراطورية . وأرسل لويس الأمر للجيش بأن يزحف على ألمانيا ، فأطلق بذلك يد وليم . وفى ١ نوفمبر ١٦٨٨ أبحر بأربعة عشر ألف رجل ليكسب عرش انجلترة .

فهرس

الجزء الأول

من المجلد الثامن

الكتاب الأول

فرنسا في أوج عظمتها ١٦٤٣ — ١٧١٧

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

المراجع

م

CHAPTER I

1. Motteville, Mme. de, *Memoirs*, I, 79.
2. Retz, Cardinal de, *Memoirs*, 103.
3. Motteville, I, 81.
4. Retz, 103.
5. Motteville, III, 232.
6. *History Today*, July 1959, p. 461.
7. Bishop, M., *Life and Adventures of La Rochefoucauld*, 149.
8. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 36.
9. Retz, 281.
10. Sainte-Beuve, *Portraits of the Seventeenth Century*, I, 335.
11. Retz, 55, 73.
12. Voltaire, *Louis XIV*, 67.
13. Michelet, *Histoire de France*, IV, 388; Acton, *Lectures on Modern History*, 235.
14. Motteville, III, 237.
15. Palmer, *Molière*, 15.
16. Saint-Simon, *Memoirs*, II, 361.
17. Sainte-Beuve, I, 422.
18. *Ibid.*, 417.
19. *History Today*, March 1954, p. 149.
20. Voltaire, 256.
21. *Ibid.*, 69.
22. Rea, Lilian, *Countess of La Fayette*, 170.
23. Ferval, *Louise de La Vallière*, 55.
24. Saint-Simon, II, 369.
25. Sainte-Beuve, I, 413.
26. Saint-Simon, II, 361.
27. Sainte-Beuve, I, 423.
28. Louiv XIV, *Mémoires*, 35.
29. In Sainte-Beuve, I, 417.
30. Boulenger, *Seventeenth Century*, 178.
31. Motteville, III, 248.
32. Lewis, W. H., *Splendid Century*, 30.
33. Voltaire, 257.
34. Barine, *La Grande Mademoiselle*, 117.
35. Louis XIV, 76.
36. Martin, H., *Age of Louis XIV*, I, 63-65; Michelet, IV, 424-27.
37. Guizot, *History of Civilization*, I, 260.
38. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, I, 533.
39. Louis XIV, 96.
40. King, J. E., *Science and Rationalism in the Government of Louis XIV*, 87.
41. Saint-Simon, II, 34.
42. Louis XIV, 68.
43. King, 95.
44. Saint-Simon, II, 106, 370.
45. Guérard, *Life and Death of an Ideal*, 153.
46. Louis XIV, 70.
47. France, Anatole, *Nicolas Fouquet*, 258.
48. Voltaire, 262.
49. Martin, H., I, 23, quoting de Choisi.
50. Louis XIV, 74.
51. Martin, I, 22.
52. Sée, Henri, *Economic and Social Conditions in France during the 18th Century*, 93.
53. Martin, I, 34.
54. *Ibid.*, 33f.; Michelet, IV, 410.
55. Boulenger, 356.
56. Mousnier, R., *Histoire générale des civilisations*, IV, 148.
57. Voltaire, 324; Martin, I, 79.
58. Michelet, IV, 428.
59. Mousnier, IV, 148.
60. Voltaire, 273; Martin, I, 86.
61. Boulenger, 357; Lewis, *Splendid Century*, 81.
62. *History Today*, March 1954, p. 155.
63. Mousnier, IV, 252.
64. Nussbaum, *Economic Institutions of Modern Europe*, 154.
65. Mousnier, IV, 250; *Cambridge Modern History*, V, 11.
66. Boulenger, 355.
67. Levasseur, *Histoire des classes ouvrières et de l'industrie en France avant 1789*, I, 394.
68. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 366.
69. In Acton, *Lectures*, 326.
70. Martin, I, 489-90, 496.
71. Voltaire, 323.
72. Martin, I, 558.
73. Barine, 13.
74. Saint-Simon, I, 383; Voltaire, 288.
75. *Encyclopaedia Britannica*, XIII, 778c; Brereton, *Jean Racine*, 145-52.
76. Molière, *Théâtre: École des femmes*, I, i.
77. Sainte-Beuve, I, 250; Day, Lillian, *Ninon*, 34.
78. Sévigné, Mme. de, *Letters*, I, 98, April 1, 1671.
79. Day, *Ninon*, 141.
80. Parton, *Life of Voltaire*, I, 33.
81. Saint-Simon, I, 344.
82. Sévigné, I, 105, April 8, 1671; Day, *Ninon*, 242.
83. *Ibid.*, 80.
84. Saint-Simon, I, 344.
85. Day, 246.
86. *Ibid.*, 185.
87. Saint-Simon, I, 345.
88. Day, 260.
89. Sainte-Beuve, II, 199.

90. Boissier, *Mme. de Sévigné*, 109.
91. Michelet, V, 118.
92. Bourgeois, *Le Grand Siècle*, 74.
93. Boulenger, 349.
94. Bourgeois, 77; Guizot, *History of France*, IV, 587.
95. La Bruyère, *Characters*, chap. "Of the Gifts of Fortune."
96. Voltaire, 278.
97. Saint-Simon, II, 11.
98. Fulop-Miller, *Power and Secret of the Jesuits*, 415.
99. Martin, I, 172.
100. *Ibid.*, 171.
101. Stirling-Maxwell, *Annals of the Artists of Spain*, III, 942.
102. Day, *Ninon*, 163.
103. Cartwright, *Madame; A Life of Henrietta, Duchess of Orléans*, 89.
104. Racine, *Oeuvres: Andromaque*, Dedication.
105. Michelet, IV, 405.
106. *Ibid.*, V, 158.
107. Cartwright, 371; Voltaire, 284; Martin, I, 312.
108. Ferval, *La Vallière*, 67.
109. *Ibid.*, 302.
110. Voltaire, 282.
111. Michelet, IV, 437.
112. Saint-Simon, I, 391.
113. Boulenger, 192.
114. Cruttwell, *Mme. de Maintenon*, 29.
115. *Ibid.*, 46.
116. *Ibid.*, 53.
117. Michelet, V, 69; Martin, I, 535.
118. Saint-Amand, *Court of Louis XIV*, 46.
119. Cruttwell, 89, Martin, I, 530.
120. Boulenger, 195, Michelet, IV, 490; Cruttwell, 118-19.
121. Saint-Simon, II, 381.
122. *Ibid.*, III, 15.
123. Acton, 236; Ogg, *Europe in the 17th Century*, 231.
124. Louis XIV, 122-25.
125. Martin, I, 417.
126. Voltaire, 260, Martin, I, 400.; *Enc. Brit.*, XII, 682c; Acton, 243.
127. *Camb. Mod. History*, V, 77.
128. Lewis, *Splendid Century*, 239.

CHAPTER II

1. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 393; Guerard, 186-90.
2. Mesnard, *Pascal*, 99.
3. Campbell, *The Jesuits*, 259; Fülop-Miller, 195.
4. Voltaire, 430.
5. Saint Simon, II, 84.
6. *Ibid.*, III, 37.
7. Louis XIV, 119.
8. Ranke, *History of the Popes*, II, 420.
9. Fülop-Miller, 105.
10. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 74f
11. *Ibid.*, 83; Beard, Charles, *Port Royal*, II, 30.
12. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 89.
13. Beard, Charles, I, 30.
14. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 90.,
15. *Ibid.*, II, 407n.
16. Beard, C., I, 52.
17. Sainte-Beauve, *Port-Royal*, I, 94.
18. Pascal, *Provincial Letters*, Introd., 97, and 421n.
19. Voltaire, 419; Beard, C., I, 260.
20. Pascal, *Letters*, Introd., 109.
21. Mesnard, *Pascal*, 12.
22. Mornet, Daniel, *Short History of French Literature*, 75.
23. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, II, 379; Mesnard, 40.
24. Owen, John, *Skeptics of the French Renaissance*, 748.
25. Pascal, *Pensées*, Havet ed. Introd., p. *civ*.
26. Mesnard, 57.
27. *Ibid.*, 209.
28. Pascal, *Pensées*, Introd., p. *cxxiii*.
29. Pascal, *Provincial Letters*, 197.
30. *Ibid.*, 417.
31. *Ibid.*, 465; *Pensées*, II, 118.
32. McCabe, *Candid History of the Jesuits*, 235.
33. Mesnard, 92.
34. Voltaire, 424.
35. In Pascal, *Provincial Letters*, 127n.
36. Fülop-Miller, 195.
37. Voltaire, 424, 358.
38. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 118.
39. Voltaire, 359.
40. Sainte-Beuve, III, 173f.; Beard, C., I, 84.
41. Pascal, *Pensées*, Introd., *xxviii*; Mesnard, 137-38.
42. *Cf.* Rabelais, Book III, Ch. xiii.
43. *Pensées*, Introd., p. *xxv*; text, 17*bis*.
44. *Ibid.*, text, i, 1.
45. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, 174.
46. *Pensées*, Everyman's Library, No. 82.
47. *Pensées*, Havet ed., Book III, No. 18.
48. Everyman ed., No. 4.
49. Havet ed., XVI, p. 1*bis*.
50. *Ibid.*, XX, p. 19.
51. *Ibid.*, I, p. 1.
52. Everyman ed., No. 349.
53. *Ibid.*, No. 418.
54. Havet ed., VIII, p. 1.
55. *Ibid.*, II, p. 8.
56. *Ibid.*, VI, p. 51; Everyman ed., No. 451.
57. Havet, IV, p. 1.
58. *Ibid.*, II, pp. 6, *bis*., 3.
59. Everyman, No. 402.

60. *Ibid.*, No. 397; Havet, I, p. 3.
61. Havet, I, p. 6; Everyman, No. 347.
62. Everyman, No. 277.
63. Havet, XXIV, p. 52.
64. *Ibid.*, X, p. 1; Everyman, No. 233.
65. Everyman, No. 233.
66. Havet, II, p. 8.
67. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, II, 508.
68. Havet, IV, 7.
69. *Ibid.*, XIV, 2.
70. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 124.
71. Owen, 800.
72. *Ibid.*, 775.
73. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, III, 320.
74. Beard, C., II, 75.
75. *Provincial Letters*, 59.
76. *Pensées*, Havet, Introd., *cxii*.
77. Beard, C., II, 352.
78. Disraeli, Isaac, *Curiosities of Literature*, I, 97.
79. Saint-Simon, II, 12.
80. Boulenger, 284.
81. Michelet, V, 298.
82. In Martin, H., I, 231.
83. Lewis, *Splendid Century*, 108.
84. Sanders, *Bossuet*, 53.
85. *Camb. Mod. History*, V, 22.
86. Martin, I, 529.
87. *Ibid.*
88. *Ibid.*, 532.
89. Michelet, IV, 520.
90. Guizot, *History of France*, V, 23.
91. *Camb. Mod. History*, V, 23.
92. *Ibid.*
93. Boulenger, 263.
94. Martin, I, 552.
95. Ogg, *Seventeenth Century*, 305.
96. Martin, II, 33.
97. *Ibid.*, 43.
98. Buckle, H. T., *History of Civilization*, Ib, 492n., quoting Benoist, Élie, *Histoire de l'Édit de Nantes* (1695), V, 887f.
99. Michelet, IV, 507.
100. Voltaire, 409.
101. Martin, II, 44.
102. Robertson, J. M., II, 142.
103. Saint-Simon, III, 14.
104. Beard, Miriam, 373.
105. Bacon, "Of Unity in Religion," in *Essays*.
106. Sanders, *Bossuet*, 46.
107. Bossuet, *Oraisons funèbres et sermons*, 69.
108. *Ibid.*, 108.
109. Eccles. XVII, 14.
110. Romans XIII, 1.
111. Isaiah XIV, 1.
112. Sanders, 213.
113. Bossuet, in Ogg, 202.
114. Sanders, 260.
115. Buckle, Ib, 569.
116. Faguet, *Literary History of France*, 446.
117. Michelet, IV, 517.
118. Martin, II, 268.
119. Sanders, 280; Michelet, IV, 412.
120. Fénelon, *Télémaque*, end of Book IX.
121. *Ibid.*, Book XIII.
122. Faguet, *Literary History*, 446.
123. Hazard, *The European Mind: The Critical Years*, 208.
124. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, II, 191.
125. Bayle, *Philosophical Commentary on . . . "Let Them Come in,"* in Robinson, H., *Bayle the Sceptic*, 73.
126. Bayle, *Dictionnaire historique et critique*, *s.v.* "Xénophanes."
127. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, III, 302.
128. Mornet, *Les Origines intellectuelles de la Révolution française*, 24.
129. Meyer, R. W., *Leibniz and the 17th-Century Revolution*, 35.

CHAPTER III

1. Pradel, *L'Art au siècle de Louis XIV*, 101.
2. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 376.
3. *Ibid.*, 325.
4. Wingfield-Stratford, *History of British Civilization*, 583.
5. Pradel, 96.
6. *Ibid.*, 99.
7. Boulenger, 365.
8. Fergusson, *History of the Modern Styles of Architecture*, 236-8.
9. Saint-Simon, I, 186.
10. Martin, II, 212; Blomfield, *Three Hundred Years of French Architecture*, 86.
11. Victoria and Albert Museum, London.
12. Dillon, *Glass*, 210.
13. Guizot, *History of France*, IV, 566.
14. Stranahan, *History of French Painting*, 50.
15. Louvre.
16. Dimier, Louis, *Histoire de la peinture française* (Paris, 1927), II, 45.
17. Versailles.
18. Benoist, *Coysevox*, 115; the bust is in the Louvre.
19. Louvre.
20. Louvre.
21. Louvre.
22. Louvre.
23. Louvre.

CHAPTER IV

1. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 258.
2. Palmer, *Molière*, 46.

3. Mantzius, Karl, *History of Theatrical Art*, IV, 42.
4. Molière, *Le Misanthrope*, II, v, 711f.
5. Lucretius, *De rerum natura*, iv, 1155f.
6. Martin, I, [illegible], Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 95-97.
7. Palmer, 59.
8. Voltaire, *Life of Molière*, in Clark, B. H., *Great Short Biographies of the World*, 628.
9. Palmer, 147.
10. *Les Précieuses ridicules*, scene iv, in Molière, *Plays*, Everyman's Library ed.
11. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, III, 271.
12. Palmer, 145.
13. *Les Précieuses ridicules* (Everyman ed.), scene ix.
14. *L'École des maris* (Everyman), I, i.
15. *L'Impromptu de Versailles* (Everyman), I, i.
16. *L'École des femmes*, I, i.
17. *L'École des femmes* (Everyman) I, i.
18. *Critique de l'École des Femmes*, vi.
19. *Ibid.*
20. Michelet, IV, 419.
21. Molière, *Théâtre*, II, 40.
22. Palmer, 335.
23. *Tartuffe* (Everyman), I, vi.
24. *Ibid.*, III, ii.
25. III, vii.
26. IV, v.
27. *Le Festin de pierre* (Everyman), I, i.
28. *Ibid.*, III, i.
29. IV, ii.
30. Palmer, 380f.
31. As in the Everyman's Library edition.
32. *Le Festin de pierre* (Everyman), III, i.
33. Garrison, *History of Medicine*, 296.
34. *L'Amour médecin* (Everyman), II, v.
35. Palmer, 410.
36. *Le Misanthrope* (Everyman), II, i.
37. *Le Misanthrope*, I, i.
38. *Ibid.*, Classiques Larousse ed., 97-98.
39. In Sainte Beuve, *Seventeenth Century*, II, 126-27.
40. *L'Avare*, II, vi.
41. *Le Bourgeois Gentilhomme* (Everyman), II, iv.
42. Guizot, *History of France*, IV, 560.
43. Michelet, IV, 421.
44. *Le Malade imaginaire* (Everyman), III, iii.
45. Edwards, *Idols of the French Stage*, I, 40.
46. *Ibid.*, 45.
47. *Le Bourgeois Gentilhomme* (Everyman), I, i.
48. *Critique de l'École des femmes* (Everyman), vi.
49. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 140.
50. Guérard, *Life and Death of an Ideal*, 204.

CHAPTER V

1. Martin, I, 142; Boulenger, 360; *Camb. Mod. History*, V, 152; Bourgeois, *Le Grand Siècle*, 93.
2. Guizot, *History of Civilization*, II, 231; Hauser, *Social History of Art*, I, 470.
3. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française au xviii^e^ siècle*, III, 404.
4. Van Laun, *History of French Literature*, II, 184.
5. *Enc. Brit.*, VI, 441b.
6. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 293; Brereton, *Racine*, 29.
7. Racine, Louis, *Mémoires sur la vie . . . de Jean Racine*, in Racine, Jean, *Oeuvres*, I, 42.
8. Brereton, 29.
9. Guizot, *History of France*, IV, 539.
10. Racine, *Andromaque*, I, iii.
11. Brereton, 154; Martin, I, 170.
12. Suetonius, *De vita Caesarum: Divus Titus*, vii, 2.
13. Racine, Bérénice, I, v.
14. Desnoiresterres, VI, 96.
15. Guizot, *France*, IV, 541.
16. Smith, Adam, *Theory of Moral Sentiments*, I, 255.
17. Racine, *Oeuvres*, I, 765.
18. Brereton, *Racine*, 245-52.
19. *Ibid.*, 19.
20. 2 Kings xi; 2 Chronicles xii.
21. Racine, *Athalie*, IV, iii.
22. Parton, *Voltaire*, I, 591; Mme. du Deffand, in Strachey, *Books and Characters*, 99; Guizot, *France*, IV, 546; Sainte-Beuve, *Port-Royal*, VI, 147; Faguet, *Dix-septième Siècle*, 314.
23. Guizot, *France*, IV, 548.
24. Racine, Louis, *Mémoires*, in Racine, *Oeuvres*, I, p. *iii*.
25. Saint-Simon, I, 155; Guizot, *France*, IV, 548-49; Sainte-Beuve, *Port-Royal*, VI, 153; Faguet, *Dix-septième Siècle*, 303.
26. Guizot, IV, 548.
27. *Ibid.*
28. Racine, L., *Mémoires*, in Racine, *Oeuvres*, I, 113.
29. Babbitt, Irving, *The Spanish Character*, 98.
30. *Brereton*, 143.
31. Sévigné, Mme. de, *Letters*, II, 210 (Mar. 16, 1672).
32. Desnoiresterres, VI, 102, 281.
33. Hume, "Of Civil Liberty," in *Essays*, 52.

34. La Fontaine, *Choix de contes*, 151.
35. *Fables*, Preface.
36. Rea, *Life of . . . Countess of La Fayette*, 230.
37. Guizot, IV, 552.
38. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 148.
39. Guizot, IV, 553.
40. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, V, 24.
41. *Ibid.*
42. Faguet, *Dix-septième Siècle*, 238.
43. Boileau, Satire 1, in *Poètes français*, VII, 21.
44. Satire IX.
45. *Poètes français*, VII, 182-85; *Enc. Brit.*, III, 790d.
46. Day, *Ninon*, 211.
47. Boileau, *L'Art poétique*, i, ll. 75-76.
48. *Ibid.*, ll. 171-74.
49. IV, 59-60.
50. IV, 125-26.
51. III, 45-46.
52. III, 391-94.
53. In Fischer, *Descartes and His School*, 511.
54. Guizot, *France*, IV, 551.
55. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 261.
56. Lewis, *Splendid Century*, 268.
57. Guizot, IV, 519.
58. La Fayette, Mme. de, *La Princesse de Clèves*, 104.
59. Rea, *Countess of La Fayette*, 284.
60. Bishop, *La Rochefoucauld*, 266.
61. Boissier, *Mme. de Sévigné*, 27.
62. Sévigné, *Letters*, I, 170 (June 10, 1671).
63. Letter of Jan. 20, 1672.
64. In Boissier, 145.
65. *Ibid.*, 145-47.
66. *Letters*, Introd., *xxxviii*.
67. Letter of July 5, 1761.
68. Apr. 8, 1761.
69. Boissier, 201; Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 232.
70. Apr. 10, 1671.
71. Guizot, IV, 516.
72. Bishop, *La Rochefoucauld*, 128.
73. *Moral Maxims and Reflections*, 84.
74. *Ibid.*, 150.
75. 84.
76. 122.
77. 178.
78. 11.
79. 471.
80. 9.
81. 119.
82. 82, 465.
83. In Bishop, 68.
84. *Moral Maxims*, 15.
85. *Ibid.*, 77.
86. 138.
87. 140.
88. 74.
89. 367.
90. 436.
91. Preface to the first edition.
92. In Bishop, 144.
93. *Moral Maxims*, 688.
94. *Ibid.*, 70.
95. *Ibid.*, 658-59.
96. In Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, I, 380.
97. *Moral Maxims*, 476.
98. Rea, *Countess of La Fayette*, 265.
99. Sainte-Beuve, *loc. cit.*
100. Faguet, *Dix-septième Siècle*, 395.
101. La Bruyère, *Characters*, p. 273, Ch. xii, 7.
102. *Ibid.*, p. 492, Ch. xii, 7.
103. E.g., Ch. xi, 35, and Ch. xvii, 28, in La Bruyère, pp. 267, 469.
104. Guizot, *France*, IV, 528.
105. Motteville, *Memoirs*, I, 150.
106. French text in Fellows and Torrey, *The Age of the Enlightenment*, 35-39.
107. Hazard, *The Critical Years*, 127.
108. Saint-Évremond, Letter to de Créqui, in King, J., *Science and Rationalism*, 26.
109. Frederick II to Voltaire, Sept. 19, 1774, in Voltaire and Frederick the Great, *Letters*.
110. Lewis, *Splendid Century*, 282.
111. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 1.

CHAPTER VI

1. A good example in Metropolitan Museum of Art, New York.
2. Vienna.
3. Dresden.
4. Madrid.
5. Louvre.
6. Wolf, *History of Science . . . in the XVIth and XVIIth Centuries*, 626.
7. Beard, Miriam, 305.
8. Day, Clive, *History of Commerce*, 194; Marx, *Capital*, I, 826.
9. *Camb. Mod. History*, V, 12.
10. Adam Smith, in Nussbaum, *History of Economic Institutions*, 72.
11. Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 44.
12. Spinoza, *Tractatus Theologico-Politicus*, Ch. xx.
13. Pepys, *Diary*, May 14, 1660.
14. Hazard, *Critical Years*, 93.
15. Graetz, H., *History of the Jews*, V, 20.
16. Hazard, 88.
17. Vienna.
18. The Hague.
19. New York.
20. Baron Thyssen Collection.
21. The Hague.
22. Mather, F. J., *Western European Paint-*

9

ing of the Renaissance, 549.
23. Czernin Collection, Vienna.
24. The Hague.
25. Edinburgh.
26. Frick Gallery, New York.
27. London.
28. Dresden.
29. Louvre.
30. New York.
31. Washington.
32. Chicago.
33. Budapest.
34. Frick Gallery.
35. Brussels.
36. Berlin.
37. London.
38. Louvre.
39. The Hague.
40. Amsterdam.
41. Dresden.
42. New York.
43. Mather, 590.
44. In Beard, Miriam, 288.
45. In Browne, Sir Thomas, *Religio Medici*, 19.
46. Voltaire, *Agė of Louis XIV*, 94; Martin, *Louis XIV*, I, 333.
47. Voltaire, 93.
48. Bowen, Marjorie, *William Prince of Orange*, 196.
49. Martin, I, 347.
50. Bowen, 92.
51. *Camb. Mod. History*, V, 158.
52. Burnet, Bishop, *History of His Own Times*, 117.
53. *Camb. Mod. History*, V, 160; Acton, Lectures, 228.
54. Kronenberger, *Marlborough's Duchess*, 30.